ما أخفاه العلمانيون

من تاريخ مصر الحديث

معتز زاهر

اسم الكتاب: ما أخفاه العلمانيون من تاريخ مصر الحديث

اسم المؤلف: معتز زاهر

رقم الطبعة: الأولى

السنة: 2014 م / 1435 هـ

رقم الإيداع: 5665 / 2014

عدد الصفحات: 312 صفحة

القياس: 17× 24 سم

https://www.facebook.com/daralqmar
https://twitter.com/daralqmar
http://www.alqmar.com
info@alqmar.com
رمز بريدي 11761 سعود 11511 ص.ب 113

ما أخفاه العلمانيون

من تاريخ مصر الحديث

معتز زاهر

بسم اللہ الرحمن الرحیم

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام علىٰ خير خلق الله أجمعين، وبعد:

فإن فترة (القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين) من تاريخ مصر الحديث، من المهم دراستها للغاية؛ كي نتعرف علىٰ تطور فكر المصريين، وما هو الأصيل فيه والدخيل عليه، وما الفكر الذي يستحق الإنكار وما الذي يستوجب الإقرار.

وتستمد أيضًا تلك الفترة أهميتها من كونها الفترة السابقة علىٰ الحرب العالمية الأولىٰ وإعلان بريطانيا الحماية علىٰ مصر عام ١٩١٤م، ودخول مصر مرحلة التاريخ المعاصر، وانفصالها شكلًا وموضوعًا عن الدولة العثمانية، قبل أن تسقط هذه الدولة رسميًا وينهار نظام الخلافة عام ١٩٢٤م، وتسيطر الأفكار العلمانية والقومية والغربية علىٰ بلاد المسلمين، ويتشتت المسلمون الذين يحملون المنهج الإسلامي الصحيح غير المتأثر بالغرب وأفكاره، ويصيروا هم الغرباء أصحاب الفكر الدخيل علىٰ المجتمع!

ثم تبدأ مرحلة إنشاء الجماعات الإسلامية، التي حاولت كل جماعة

منها أن تسد الفراغ الذي تركه سقوط النظام الإسلامي والخلافة الإسلامية، وأن تسعىٰ لإعادة ذلك النظام وتلك الخلافة علىٰ منهاج النبوة، كما بشّر النبي ﷺ أمته.

وقد ساهم المؤرخون والكُتاب و«المثقفون» العلمانيون بشكل كبير في طمس المعالم الإسلامية لتلك الفترة محل البحث وحرّفوها، من أجل أن يُثبتوا لأفكارهم امتدادًا عبر التاريخ المصري الحديث بلا وجود شيء تاريخي معارض لها، ومن ثَم تكون لديهم حجة في ترويجها ونشرها في مصر المعاصرة، تبعًا لتوجه البلاد الجديد نحو الغرب وأفكاره المسيحية المختلطة بفلسفته الملحدة، وكي لا تكون تلك المعالم الإسلامية تكئة وجذورًا تاريخية للمطالبين بالمرجعية الإسلامية كأساس للنهضة، النابذين لأفكار الغرب المتعارضة مع الشريعة الإسلامية.

من هنا جاءت أهمية كتابة هذا البحث، الذي لا أزعم أني استقصيت فيه كل ما هو داخل في موضوعه، لكني اكتفيت فقط بضرب المثل علىٰ الطمس والتزوير والتزييف في الثقافة والمناهج ووسائل الإعلام المختلفة، التي يتم تقديمها للقراء وطلبة المدارس والجامعات والجمهور المسلم، في مواد التربية الوطنية والقومية والتاريخ وغير ذلك.

وما أكثر ما تركته سعيًا للإيجاز وعدم التشعب[1]، هذا غير ما فاتني

---

(١) كما هو الحال في عدم تناول المواقف الإسلامية العظيمة لبعض شخصيات الثورة العرابية غير أحمد عرابي، كخطيب الثورة العرابية عبدالله النديم وغيره، والمواقف الإسلامية لأئمة الأدب الحديث؛ كأحمد شوقي ومحرم وحافظ إبراهيم وغيرهم، ومواقف الزعيم محمد فريد الذي أكمل مسيرة مصطفىٰ كامل بعد وفاته، وغير ذلك.

مما هو موجود في المصادر الأخرىٰ التي لم أطلع عليها ولم أحط بما فيها.

لذا أدعو جميع الباحثين المنصفين إلىٰ التنقيب في هذه الحقبة الثرية وغيرها؛ لاستخراج القيم والمبادئ الإسلامية التي تم طمسها ممن كتبوا التاريخ وعملوا بالثقافة والإعلام بالدولة المصرية الحديثة، سواء ما يتعلق بالأحداث التاريخية أو مناهج بعض العظماء والزعماء، ومن أجل تصفية التاريخ من شوائب العلمانيين غير المهنيين، وتجلية الأمور علىٰ حقيقتها.

ومعلوم ما للتاريخ من قيمة في تربية النشء، والإفادة من التجارب، من أجل صناعة حاضر ومستقبل أفضل.

وقد اعتمدت في هذا البحث علىٰ مصادر متنوعة، ولكن عمدة المصادر التي اعتمدت عليها حرصت علىٰ أن تكون بقلم مَن عايشوا الأحداث، كالشيخ عبد الرحمن الجبرتي، والمعلم نقولا الترك، فيما يخص الاحتلال الفرنسي مثلًا.

أما بالنسبة للشخصيات التاريخية، فحرصت علىٰ الاعتماد علىٰ ما كتبوه وحرروه بأيديهم، سواء كانت مذكرات، كما في فصل أحمد عرابي، أو مؤلفات الشخصية التي أتحدث عنها، كما في فصل رفاعة الطهطاوي ومصطفىٰ كامل.

وختامًا، أهدي هذا الكتاب وأهب ثوابه إلىٰ شهداء الإسلام الأبطال، الذين قضوا في مذبحة رابعة العدوية، وغيرها من المذابح في أنحاء القطر المصري، من سيناء إلىٰ مطروح، ومن الأسكندرية إلىٰ أسوان، وأخص بالذكر الصديقين العزيزين: الشهيد مهند سلام، والشهيد

عبد الرحمن فرج، تقبلهما الله، سائلًا الله تعالىٰ أن يقتص لهم جميعًا في القريب العاجل.

وما كان من توفيق فمن الله، وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين.

كتبه

معتز زاهر

الجيزة، السبت، ٧-٥-١٤٣٥هـ

الفصل الأول

مصر الإسلامية في القرن الثامن عشر

• أولًا: طبيعة الحياة الفكرية:

كانت الحياة الفكرية في القرن الثامن عشر الميلادي في مصر «تكاد تكون مقصورة علىٰ الأزهر؛ فهو محور هذه الحياة ومنبعها وبيئتها»[1].

وإلىٰ جانب الأزهر كانت هناك مساجد أخرىٰ تسير علىٰ منواله أيضًا؛ مثل الأشرفية، وقوصون، والمؤيَّد، والسلطان حسن، والمشهد الحسيني، وغير ذلك، ولكن الأزهر كان هو الأشهر والأهم، فكان هو قبلة العلماء وطلاب العلم في مصر والعالم الإسلامي.

هذا إضافة إلىٰ وجود العديد من المدارس التي يسيطر فيها التعليم الديني قاطبة، فلم يكن هناك البتة تعليم مدني لا يجعل الدين الإسلامي هو أساس الدراسة، ومن أمثلة هذه المدارس: المدرسة السنانية، والمتبولية،

(١) مصر في القرن الثامن عشر، محمود الشرقاوي، (١/ ٤٨).

والسليمانية، والسيوفيين (جامع الشيخ مطهر)، والغورية، والمحمودية، والصرغتمشية، وغير ذلك.

وقد كانت تلك المساجد والمدارس منتشرة في جميع أنحاء مصر وليس في القاهرة فقط، كما هو الحال في دمياط التي كانت من أكثر المدن نشاطًا في الحركة الدينية والعلمية، وكذلك الأسكندرية، والغربية، والدقهلية، والسويس، وجرجا، وأسيوط، وملوي، وغير ذلك.

وظل الاتجاه الإسلامي يسود مسرح الحياة الفكرية والسياسية في مصر بلا منازع منذ الفتح الإسلامي[١]، فلم تكن هناك أفكار أخرىٰ علىٰ ساحة الحياة الفكرية تخرج عن نطاق الفكر الإسلامي؛ فالخلاف الفكري كان حول مسائل فقهية ما، أو حكم الدين في نازلة معينة، وهكذا مما يتعلق بالفكر الديني، فلم يكن هناك أفكار غربية علمانية، اشتراكية أو ليبرالية، أو دعوات قومية أو وطنية أو انفصالية، أو ما شابه ذلك.

وكانت المرجعية العلمية منحصرة في مشايخ الأزهر وعلماء الدين عمومًا؛ فكانوا هم «النخبة»، وقادة الفكر، وإليهم المردّ عند الخلاف الفكري الديني.

فعلىٰ سبيل المثال وفي بدايات القرن الثامن عشر الميلادي، وبالتحديد عام (١١٢٣ الموافق ١٧١١م)، جاء أغا[٢] من الدولة العثمانية

---

(١) الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية في الحياة السياسية المصرية ١٩٢٨ - ١٩٤٨، د. زكريا بيومي، (ص٧).

(٢) «أغا» أي: سيد.

إلىٰ مصر في شهر رمضان، وجلس بجامع المؤيد[1]، فكثر عليه الجمع وازدحم المسجد، وأكثرهم أتراك، ثم انتقل من الوعظ وذَكَر ما يفعله أهل مصر بضرائح الأولياء، وإيقاد الشموع والقناديل علىٰ قبور الأولياء، وتقبيل أعتابهم[2]، وقال إن فعل ذلك كُفر يجب علىٰ الناس تركه، وعلىٰ ولاة الأمور السعي في إبطال ذلك.

وذكر أيضًا قول الشعراني[3] في طبقاته إن بعض الأولياء اطلع علىٰ اللوح المحفوظ، وقال إن هذا لا يجوز، وإنه لا يطلع الأنبياء فضلًا عن الأولياء علىٰ اللوح المحفوظ، وإنه لا يجوز بناء القباب علىٰ ضرائح الأولياء والتكايا ويجب هدم ذلك، وذكر أيضًا وقوف الفقراء بباب زويلة في ليالي رمضان وما يفعلونه من أخطاء شرعية.

فلما سمع الناس منه ذلك خرجوا ثائرين بعد صلاة التراويح، ووقفوا بالنبابيت والأسلحة؛ فهرب الذين يقفون بباب زويلة، فقطع هؤلاء الثائرون الجوخ والأكر المعلقة علىٰ الباب، وقد كان بعض الناس يظنون أن تعليق هذه الأشياء علىٰ باب زويلة يقضي حوائجهم[4]، فقطعها هؤلاء

---

(١) أحد أكبر مساجد القاهرة الإسلامية، أنشئ بالقرن التاسع الهجري، وهو بجانب باب زويلة.

(٢) لا تزال تلك الأفعال تحدث حتىٰ الآن، في مسجد الحسين والبدوي والسيدة زينب وغيرهم.

(٣) أبو المواهب الشعراني، أحد أقطاب المتصوفة بمصر، تُوفي بالقاهرة عام ٩٧٣هـ.

(٤) حتىٰ الآن توجد آثار ذلك بباب زويلة، مسامير، وأسنان بشرية، وأوراق تشمل أدعية، وغيره.

الثائرون وهم يقولون: أين الأولياء؟! في تحدٍّ لهم ولإظهار أن هذا محض خرافة.

فذهب بعض الناس إلىٰ العلماء بالأزهر وأخبروهم بقول ذلك الواعظ، وكتبوا فتوىٰ وأجاب عليها الشيخ أحمد النفراوي[1] والشيخ أحمد الخليفي[2] بأن كرامات الأولياء لا تنقطع بالموت، وأن إنكار هذا الأغا اطلاع الأولياء علىٰ اللوح المحفوظ لا يجوز، ويجب علىٰ الحاكم زجره عن ذلك!

وأخذ بعض الناس تلك الفتوىٰ ودفعها للأغا وهو في مجلس وعظه، فلما قرأها غضب وقال: يا أيها الناس! إن علماء بلدكم أفتوا بخلاف ما ذكرت لكم، وإني أريد أن أتكلم معهم وأباحثهم في مجلس قاضي العسكر[3]، فهل منكم من يساعدني علىٰ ذلك وينصر الحق؟ فقال له الجماعة: نحن معك لا نفارقك!

فنزل عن الكرسي واجتمع عليه العامة زيادة عن ألف نفْس، ومرّ بهم من وسط القاهرة، إلىٰ أن دخل بيت القاضي قرب العصر، فانزعج القاضي وسألهم عن مرادهم، فقدّموا له الفتوىٰ وطلبوا منه إحضار المفتيين والبحث معهما.

---

(١) أحد كبار علماء المالكية، ينعته الجبرتي بـ«الإمام العالم العلامة».

(٢) كان محدثًا فقيهًا أصوليًا نحويًا بيانيًا متكلمًا عروضيًا منطقيًا آية في الذكاء، كما يقول الجبرتي.

(٣) قاضي العسكر هو القاضي الشرعي المعيَّن من الدولة العثمانية، ويكون من كبار علماء المسلمين.

فقال القاضي: اصرفوا هؤلاء الجموع ثم نحضرهم ونسمع دعواكم، فقالوا للقاضي: ما تقول في هذه الفتوىٰ؟ فقال القاضي: باطلة. فطلبوا منه أن يكتب لهم حجة ببطلانها. فقال: إن الوقت قد ضاق والشهود ذهبوا إلىٰ منازلهم. وخرج الترجمان فقال لهم ذلك؛ فضربوه! واختفىٰ القاضي بحريمة، فما وسع نائب القاضي إلا أنه كتب لهم حجة حسب مرادهم.

ثم اجتمع الناس في يوم الثلاثاء وقت الظهر بجامع المؤيد لسماع الوعظ علىٰ عادتهم فلم يحضر لهم ذلك الواعظ، فأخذوا يسألون عن المانع من حضوره؟ فقال بعضهم: أظن أن القاضي منعه من الوعظ.

فقام رجل منهم وقال: أيها الناس! من أراد أن ينصر الحق فليقم معي! فتبعه الجم الغفير، فمضىٰ بهم إلىٰ مجلس القاضي، فلما رآهم القاضي ومَن في المحكمة طارت عقولهم من الخوف، وفر مَن بها من الشهود ولم يبق إلا القاضي، فدخلوا عليه وقالوا له: أين شيخنا؟ فقال: لا أدري. فقالوا له: قم واركب معنا إلىٰ الديوان ونكلم الباشا[1] في هذا الأمر، ونسأله أن يحضر لنا خصومنا الذين أفتوا بقتل شيخنا، ونتباحث معهم فإن أثبتوا دعواهم نجوا من أيدينا وإلا قتلناهم.

فركب القاضي معهم مكرهًا، وتبعوه مِن خلفه وأمامه، إلىٰ أن طلعوا إلىٰ الديوان، فسأله الباشا عن سبب حضوره في غير وقته. فقال: انظر إلىٰ هؤلاء الذين ملأوا الديوان والحوش، فهم الذين أتوا بي. وعرّفه قصتهم

---

(١) الباشا حينها لقب يُطلق علىٰ الوالي العثماني علىٰ مصر.

وما وقع منهم بالأمس واليوم، وأنهم ضربوا الترجمان وأخذوا منه حُجة قهرًا، وأتوا اليوم به أيضًا قهرًا.

فأرسل الباشا إلىٰ كَتْخُدَا الينكجرية[1] وكتخدا العزب، وقال لهما: اسألوا هؤلاء عن مرادهم. فسألوهم فقالوا نريد إحضار النفراوي والخليفي ليبحثا مع شيخنا فيما أفتيا به عليه. فأعطىٰ الباشا أمرًا بإحضار صاحبي الفتوىٰ النفراوي والخليفي.

فنزل الثائرون إلىٰ مسجد المؤيد، وأتوا بالواعظ وأصعدوه إلىٰ الكرسي، فصار يعظهم ويحرضهم علىٰ اجتماعهم في غد بالمؤيد ويذهبون بجمعيتهم إلىٰ القاضي، وحضّهم علىٰ الانتصار للدين وقمع الدجالين! وافترقوا علىٰ ذلك.

وأما الباشا فإنه أرسل إلىٰ إبراهيم بك وقيطاس بك يعرفهم ما حصل وما فعله العامة من سوء الأدب، وقصدهم تحريك الفتن وتحقير الباشا والقاضي، وأنه قد عزم هو والقاضي علىٰ السفر من البلد.

فلما قرأ الأمراء ذلك لم يقر لهم قرار، وجمعوا بعض كبار المسئولين، وأجمعوا رأيهم علىٰ أن ينظروا في أمر هذه العصبة، وأن ينفىٰ ذلك الواعظ من البلد. فلما كان صبيحة ذلك ذهبوا إلىٰ جامع المؤيد فلم يجدوا منهم أحدًا، وجعل يفحص ويفتش فمن ظفر به ضربوه أو نفوه، وهدأت الأمور[2].

---

(١) أو «الانكشارية» كما ينطقها المعاصرون، وهم طائفة من الجنود. و«كَتْخُدا» أي: نائب أو وكيل.

(٢) عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي، (١/ ٨٣-٨٦).

فهكذا إذَن كانت طبيعة الخلافات الفكرية، كانت لا تخرج في مجموعها عن الإطار الإسلامي، وكان الناس يتحاكمون فيها إلىٰ المفتين والقضاة الشرعيين، حتىٰ يحكموا فيما بينهم بشرائع الإسلام وما يتوافق مع صحيح الدين.

فكان الخلاف هنا (صوفيًا - سلفيًا)، حول مسائل إسلامية كثر حولها الخلاف والأخذ والرد من قديم الزمان إلىٰ وقتنا هذا بين هاتين المدرستين.

ولكنك لا تجد بأية حال خلافًا حول الدين نفسه وكونه مرجعية مُلزمة في كل شيء أم لا كما يحدث الآن في القرن الواحد والعشرين، فلا ترىٰ تنازعًا حول إقامة الحدود الشرعية مثلًا، فضلًا عن أن تجد مَن يقول إنها رجعية وغير لائقة بعصرنا والعياذ بالله!

كما أنك لا تعثر علىٰ مرجعية فكرية تناطح المرجعية الدينية، وإن وُجد من يدعو إلىٰ الخروج الفكري عن الدين الإسلامي.. كان مصيره أن تُعلق رقبته علىٰ باب زويلة، وأن تُحرق كتبه هناك أيضًا، علىٰ مرأىٰ ومسمع الناس، حتىٰ يتعظ من تسوّل له نفسه أن يفعل مثل ذلك، ولأن الحفاظ علىٰ الدين ومرجعيته كان أول مهام السلطان والحاكم المسلم.

• ثانيًا: المشايخ صوت الشعب الوحيد:

كان الأزهر هو المثابة التي يفزع إليها الناس حين يحزبهم أمر، والمأمن الذي يقصده الشعب حين تضيق بهم السبل.

كان العلماء والمجاورون من طلبة العلم في الأزهر يستمعون إلىٰ

الشعب عندما يلجأ إليهم؛ فيغضبون علىٰ من أوقع بالناس الظلم، وكان غضبهم في أحيان كثيرة كافيًا لأن يرجع الظالم عن ظلمه؛ بل نجد في بعض الأحيان أن الحاكم الظالم كان يعلن عن توبته أمام العلماء، ويعاهد الله أمامهم علىٰ أن يعدل.

فالأزهر فوق مكانته العلمية ومهمته الدينية كان بمثابة (البرلمان) الذي يترجم عن رغبات الشعب، سخطًا ورضىً[(١)].

وكان في هذه الحقبة إبراهيم ومراد بك -وقد غدت لهما قيادة المماليك في مصر، وأصبحا ولهما الأمر والنهي في البلاد، بعد أن وهن أمر الدولة العثمانية- في حاجة ملحة إلىٰ المال؛ فقاما بفرض ضرائب جديدة، واحتكار التجارة، وابتزاز التجار، واغتصبوا حقوق الفرنجة في ممارسة التجارة الخارجية فبارت، هذا إلىٰ جانب الفوضىٰ التي ضربت أطنابها، والمجاعات والأوبئة، وبوار التجارة الخارجية بعد تحولها إلىٰ رأس الرجاء الصالح، وخلل الأمن الذي عصف بالفلاحين. ولم يجد الناس والمقهورون ملاذًا لهم غير الأزهر[(٢)].

وكان للشيخ عبد الله الشرقاوي[(٣)] حصة في قرية بشرقية بلبيس، فحضر إليه أهلها وشكوا من محمد بك الألفي أحد كبار المماليك، وذكروا أن أتباع الألفي حضروا إليهم وظلموهم، وطلبوا منهم ما لا قدرة

(١) مصر في القرن الثامن عشر، محمود الشرقاوي، (٢/ ١٢٣).

(٢) الأزهر في ألف عام، بيارد دودج، (ص٩٧).

(٣) من كبار علماء الشافعية، وتولّىٰ مشيخة الأزهر فترة.

لهم عليه، واستغاثوا بالشيخ فاغتاظ وحضر إلىٰ الأزهر مع جمع المشايخ، وقفلوا أبواب الجامع!

وذلك بعد ما خاطب مراد بك وإبراهيم بك فلم يبديا شيئًا، ففعلوا ذلك في ثاني يوم، وقفلوا الجامع، وأمروا الناس بغلق الأسواق والحوانيت[1]!

ثم ركبوا في ثاني يوم واجتمع عليهم خلق كثير من العامة وتبعوهم، وذهبوا إلىٰ بيت الشيخ السادات[2]، وازدحم الناس علىٰ بيت الشيخ من جهة الباب والبركة بحيث يراهم إبراهيم بك، وقد بلغه اجتماعهم فبعث من قِبله أيوب بك الدفتردار[3]، فحضر إليهم وسلم عليهم ووقف بين يديهم وسألهم عن مرادهم؟

فقالوا له: نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات التي ابتدعتموها وأحدثتموها!

فقال: لا يمكن الإجابة إلىٰ هذا كله، فإننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات.

فقالوا له: هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس! وما الباعث علىٰ الإكثار من النفقات وشراء المماليك والأمير يكون أميرًا بالإعطاء لا بالأخذ؟!

---

(١) جمع حانوت، وهو محل التجارة.
(٢) أحد علماء الأمة الصادقين المجاهدين المجاهرين بالحق، وسيأتي الكلام عنه بكثرة.
(٣) الدفتردار: ناظر المالية أو الموظف المكلف بتظيم أموال الدولة.

فوعدهم بإبلاغ من أرسلوه، وانصرف ولم يعد لهم بجواب، وانفض المجلس.

وركب المشايخ إلىٰ الجامع الأزهر، واجتمع أهل الأطراف من العامة والرعية وباتوا بالمسجد!

وأرسل إبراهيم بك إلىٰ المشايخ يعضدهم ويقول لهم: أنا معكم! وهذه الأمور علىٰ غير خاطري ومرادي. وأرسل إلىٰ مراد بك يخيفه عاقبة ذلك.

فبعث مراد بك يقول: أجيبكم إلىٰ جميع ما ذكرتموه إلا شيئين، ديوان بولاق، وطلبكم المنكسرَ من الجامِكِيّة[1]، ونبطل ما عدا ذلك من الحوادث والظلم، وندفع لكم جامكية سنة تاريخه أثلاثًا.

ثم طلب أربعة من المشايخ عينهم بأسمائهم، فذهبوا إليه بالجيزة، فلاطفهم والتمس منهم السعي في الصلح علىٰ ما ذكر.

ورجعوا من عنده وباتوا علىٰ ذلك تلك الليلة، وفي اليوم الثالث حضر الباشا إلىٰ منزل إبراهيم بك واجتمع الأمراء هناك وأرسلوا إلىٰ المشايخ، فحضر الشيخ السادات والسيد النقيب والشيخ الشرقاوي والشيخ البكري والشيخ الأمير، وكان المرسل إليهم رضوان كتخدا إبراهيم بك، فذهبوا معه ومنعوا العامة من السعي خلفهم.

ودار الكلام بينهم وطال الحديث وانحط الأمر علىٰ أنهم تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم.

---

(١) «الجامِكِيَّة» أي: المرتب، والجمع: جوامك.

وانعقد الصلح علىٰ أن يدفعوا سبعمائة وخمسين كيسًا موزعة، وعلىٰ أن يرسلوا غلال الحرمين، ويصرفوا غلال الشون وأموال الرزق، ويبطلوا رفع المظالم المحدثة والكشوفيات والتفاريد والمكوس[1]، ما عدا ديوان بولاق، وأن يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم إلىٰ أموال الناس، ويرسلوا صرة الحرمين والعوائد المقررة من قديم الزمان، ويسيروا في الناس سيرة حسنة.

وكان القاضي حاضرًا بالمجلس فكتب حُجة عليهم بذلك، وفرمن عليها الباشا وختم عليها إبراهيم بك وأرسلها إلىٰ مراد بك فختم عليها أيضًا.

وانجلت الفتنة ورجع المشايخ وحول كل واحد منهم وأمامه وخلفه جملة عظيمة من العامة، وهم ينادون حسب ما رسم ساداتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة من مملكة الديار المصرية[2].

فكان العلماء إذن هم قادة الشعب، يتصدرون الناس إذا وقع عليهم ظلم، أو اعتدىٰ عليهم معتدٍ، أو كثرت علىٰ الناس المغارم والضرائب والمصادرات، أو ألمت بهم فتنة.

وكان من عادة الناس كما رأينا إذا وقع بهم شيء من ذلك توجهوا وحدانًا وزرافات إلىٰ الجامع الأزهر، وقد تذهب النساء أيضًا، ويذهب الصبيان، ولهم في الطريق إليه ثورة وعجيج، فإذا دخلوا الجامع صعدوا

---

(١) أنواع مختلفة من الضرائب غير العادية.

(٢) عجائب الآثار في التراجم والأخبار، الجبرتي، (٢/ ١٦٦-١٦٨).

إلىٰ مآذنه ينادون الناس ويصرخون بالظلم الذي يلقونه، ثم يبطل فريق منهم دروس العلماء التي تحلق حولهم فيها طلابهم في الأزهر، وقد يبطلون الصلاة فيه.

ثم يقبلون علىٰ العلماء يستصرخونهم مستجيرين بهم، فيرسل العلماء بعضًا منهم إلىٰ أولي الأمر، أو يخرجون جميعًا، أو يخرج بعضهم قائدًا لهذا الجمع المستجير الغاضب، حتىٰ يصل به إلىٰ مجلس ولي الأمر أو منزله، طالبًا منه رفع الظلم أو منع العدوان، أو كف الجباة، أو قطع الفتنة، ولهم في ذلك شجاعة فائقة[1].

وقد حدث أن اجتاح أحد نواب الحكام، ويُدعىٰ حسين بك، علىٰ رأس قواته بيت أحمد سالم الجزار، متولي رياسة دراويش الشيخ اليومي[2]، ونهب كل فراشه، واستولىٰ علىٰ مجوهرات النساء.

وفي صباح اليوم التالي ثارت جماعة من أهالي الحسينية[3] بسبب ما حصل، وحضروا إلىٰ الجامع الأزهر ومعهم طبول، والتف عليهم جماعة كثيرة من الناس، ومعهم نبابيت ومساوق.

وذهبوا إلىٰ الشيخ الدردير[4] فوافقهم وساعدهم بالكلام وقال لهم:

---

(١) مصر في القرن الثامن عشر، محمود الشرقاوي، (١٢٧).

(٢) كان يكثر الدراويش في مصر كثرة عظيمة ... يعكفون علىٰ الرياضة الدينية، ويعيشون علىٰ الصدقة. المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم، إدوارد لين، (ص٢١١).

(٣) أحد أحياء القاهرة القرية من الجمالية.

(٤) الشيخ أحمد الدردير من كبار علماء المالكية.

أنا معكم! فخرجوا من نواحي الجامع وقفلوا أبوابه، وطلع منهم طائفة علىٰ أعلىٰ المنارات يصيحون ويضربون بالطبول، وانتشروا بالأسواق وأغلقوا الحوانيت.

وقال لهم الشيخ الدردير: في غد نجمع أهالي الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة، وأركب معكم وننهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا، ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم!

فلما كان بعد المغرب ذهب بعض كبار المسئولين إلىٰ الشيخ الدردير وتكلموا معه، وخافوا من تضاعف الحال، وقالوا للشيخ: اكتب لنا قائمة بالمنهوبات ونأتي بها من محل ما تكون. واتفقوا علىٰ ذلك وقرءوا الفاتحة وانصرفوا[1].

ووقعت حادثة أخرىٰ لطائفة المغاربة المجاورين بالجامع الأزهر (المغاربة المقصود بهم مسلمو شمال أفريقيا جميعهم)، وذلك أنه آل إليهم مكان موقوف، وجحد واضع اليد ذلك، والتجأ إلىٰ بعض الأمراء وكتبوا فتوىٰ في شأن ذلك، واختلفوا في ثبوت الوقف بالإشاعة[2]، ثم أقاموا الدعاوىٰ في المحكمة، وثبت الحق للمغاربة، ووقع بينهم منازعات، وعزلوا شيخهم وولوا آخر، وكان المندفع في الخصومة واللسانة شيخًا منهم يسمىٰ الشيخ عباس، والأمير الملتجئ إليه الخصم يوسف بك.

فلما ترافعوا وظهر الحق علىٰ خلاف غرض الأمير حنق لذلك،

---

(١) عجائب الآثار، (١/ ٦٠٩-٦١٠)، الأزهر في ألف عام، (ص٩٦).

(٢) اي بأن يشيع بين الناس بأنه وقف منذ سنوات عديدة، دون وجود بينة تنفي ذلك.

ونسبهم إلىٰ ارتكاب الباطل، فأرسل من طرفه من يقبض علىٰ الشيخ عباس المذكور من بين المجاورين، فطردوا المعينين وشتموهم وأخبروا الشيخ أحمد الدردير، فكتب مراسلة إلىٰ يوسف بك تتضمن عدم تعرضه لأهل العلم ومعاندة الحكم الشرعي.

وأرسلها صحبة الشيخ عبد الرحمن الفرنوي وآخرين، فعندما وصلوا إليه وأعطوه التذكرة نهرهم، وأمر بالقبض عليهم وسجنهم بالحبس.

ووصل الخبر إلىٰ الشيخ الدردير وأهل الجامع، فاجتمعوا في صبحها، وأبطلوا الدروس والأذان والصلوات، وقفلوا أبواب الجامع، وجلس المشايخ بالقبلة القديمة، وطلع الصغار علىٰ المنارات يكثرون الصياح والدعاء علىٰ الأمراء.

وأغلق أهل الأسواق القريبة الحوانيت، وبلغ الأمراء ذلك فأرسلوا إلىٰ يوسف بك فأطلق المسجونين.

وأرسل إبراهيم بك من طرفه إبراهيم أغا بيت المال فلم يأخذ جوابًا، وحضر الأغا إلىٰ الغورية[1] ونزل هناك ونادىٰ بالأمان، وأمر بفتح الحوانيت، فبلغ مجاوري المغاربة ذلك فذهب إليه طائفة منهم وتبعهم بعض العوام وبأيديهم العصي والمساوق، وضربوا أتباع الأغا ورجموه بالأحجار، فركب عليهم وأشهر فيهم السلاح هو ومماليكه، فقتل من مجاوري المغاربة ثلاثة أنفار وانجرح منهم كذلك ومن العامة. وذهب

---

(١) أحد أحياء القاهرة العريقة القريبة من الجامع الأزهر، أنشئ في عهد السلطان الغوري.

الأغا ورجع الفريق الآخر، وبقي الهرج إلىٰ ثاني يوم.

فحضر إسماعيل بك، والشيخ السادات، وعلي أغا كتخدا الجاويشية[1]، وحسن أغا أغات المتفرقة، والترجمان، وحسن أفندي كاتب حوالة، وغيرهم، فنزلوا الأشرفية وأرسلوا إلىٰ أهل الجامع تذكرة بانفضاض الجمع وتمام المطلوب. وكان ذلك عند الغروب فلم يرضوا بمجرد الوعد، وطلبوا الجامكية والجِرايَة[2]، فركبوا ورجعوا.

وأصبح يوم الأربعاء والحال علىٰ ما هو عليه وإسماعيل بك مظهر الاهتمام لنصرة أهل الأزهر، فحضر مع الشيخ السادات وجلسوا بالجامع المؤيدي، وأرسلوا للمشايخ تذكرة صحبة الشيخ إبراهيم السندوبي، ملخصها أن إسماعيل بك تكفل بقضاء أشغال المشايخ وقضاء حوائجهم وقبول فتواهم وصرف جماكيهم وجراياتهم، وذلك بضمان الشيخ السادات له، فحضر الشيخ إبراهيم بالتذكرة وقرأها الشيخ عبد الرحمن العريشي[3] جهارًا وهو قائم علىٰ أقدامه. فلما سمعوها أكثروا من الهرج واللغط.

وترددت الإرساليات والذهاب والمجيء بطول النهار، ثم اصطلحوا وفتحوا الجامع في آخر النهار، وأرسلوا لهم في يوم الخميس جانبًا من دراهم الجامكية. ومن جملة ما اشترطوه في الصلح عدم مرور الأغا والوالي والمحتسب من حارة الأزهر . . .[4].

---

(١) إحدىٰ الفرق العسكرية العثمانية.

(٢) الجِراية: الجاري من الرواتب.

(٣) من كبار علماء المذهب الحنفي، يصفه الجبرتي بـ«الشيخ الفقيه الإمام الفاضل».

(٤) عجائب الآثار في التراجم والأخبار، الجبرتي، (١/٤٩٦-٤٩٨). الأزهر في ألف عام، بيارد دودج، (ص٩٥-٩٦).

وحدث أن حضرت من ناحية قبلي سفينة وبها تمر وسمن وخلافه، فأرسل سليمان بك الأغا وأخذ ما فيها جميعه، وادعىٰ أن له عند أولاد وافي مالًا منكسرًا، ولم يكن ذلك لأولاد وافي وإنما هو لجماعة يتسببون فيه من مجاوري الصعايدة وغيرهم.

فتعصب مجاورو الصعايدة وأبطلوا دروس المدرسين، وركب الشيخ الدردير والشيخ العروسي[1] والشيخ محمد المصيلحي[2] وآخرون وذهبوا إلىٰ بيت إبراهيم بك وتكلموا معه بحضرة سليمان بك كلامًا كثيرًا مفحمًا.

فاحتج سليمان بك بأن ذلك متاع أولاد وافي وأنا أخذته بقيمته من أصل مالي عندهم، فقال العلماء: هذا لم يكن لهم، وإنما هؤلاء أربابه ناس فقراء، فإن كان لك عند أولاد وافي شيء فخذه منهم. فرد بعضه وذهب ببعضه[3].

وتعسف كاشف الغربية مع بعض الناس وجعل علىٰ كل جمل يباع في سوق المولد[4] نصف ريال فرانسة[5]، فأغار أعوان الكاشف علىٰ بعض الأشراف وأخذوا جمالهم.

---

(١) الشيخ أحمد موسىٰ العروسي من كبار العلماء الذين تولوا مشيخة الأزهر.

(٢) أحد علماء الشافعية، يصفه الجبرتي بـ«المتقن».

(٣) عجائب الآثار، (١/ ٦١٠-٦١١).

(٤) مولد السيد البدوي.

(٥) عملة نقدية، يقال فضية ويقال ذهبية، كان يتم التعامل بها أحيانًا، ويقال إنها مسكوكة بالنمسا.

وكان ذلك في آخر أيام المولد، فذهبوا إلىٰ الشيخ الدردير وكان هناك بقصد الزيارة، وشكوا إليه ما حلّ بهم، فأمر الشيخ بعض أتباعه بالذهاب إليه، فامتنع الجماعة من مخاطبة ذلك الكاشف.

فركب الشيخ بنفسه وتبعه جماعة كثيرة من العامة، فلما وصل إلىٰ خيمة كتخدا الكاشف دعاه فحضر إليه، والشيخ راكب علىٰ بغلته، فكلمه الشيخ ووبخه وقال له: أنتم ما تخافون من الله؟!

وفي أثناء كلام الشيخ لكتخدا الكاشف هجم علىٰ الكتخدا رجل من عامة الناس وضربه بنبّوت، فلما عاين خدامه ضرب سيدهم هجموا علىٰ العامة بنبابيتهم وعصيهم، وقبضوا علىٰ السيد أحمد الصافي تابع الشيخ وضربوه عدة نبابيت.

وهاجت الناس علىٰ بعضهم، ووقع النهب في الخيم وفي البلد، ونهبت عدة دكاكين، وأسرع الشيخ في الرجوع إلىٰ محله، وراق الحال بعد ذلك.

وركب كاشف المنوفية وهو من جماعة إبراهيم بك الكبير وحضر إلىٰ كاشف الغربية وأخذه، وحضر به إلىٰ الشيخ، وأخذوا بخاطره وصالحوه ونادوا بالأمان.

وانفض المولد ورجع الناس إلىٰ أوطانهم وكذلك الشيخ الدردير، فلما استقر بمنزله حضر إليه إبراهيم بك الوالي وأخذ بخاطره أيضًا، وكذلك إبراهيم بك الكبير وكتخدا الجاويشية[1].

---

(١) عجائب الآثار، (١/ ٦١١).

وفي هذه الأيام حصل وقف حال، وضيق في المعايش، وانقطاع للطرق، وعدم أمن، ووقوف العربان ومنع السبل، وتعطيل أسباب، وعسر في الأسفار برًّا وبحرًا، فاقتضىٰ رأي الشيخ العروسي أنه يجتمع مع المشايخ ويركبون إلىٰ الباشا ويتكلمون معه في شأن هذا الحال[1].

ومرة بعد أخرىٰ كان شيوخ الأزهر يتصدون للدفاع عن حقوق المصريين، ويقومون بالوساطة لدىٰ أمراء المماليك لإحقاق مطالب المصريين[2]، بل وغير المصريين أيضًا، كما رأينا في حادثة المغاربة الذين وقع عليهم الظلم.

إن علماء الدين كانت لهم مكانة كبيرة وتأثير واسع، لدرجة أن سلاطين الدولة العثمانية -وهم أعلىٰ سلطة حينها في جميع البلاد الإسلامية- كانوا يراسلون بعض علماء الأزهر في مصر، ويخطبون ودهم، ومن ذلك ما ذكره الجبرتي أن السلطان مصطفىٰ بن أحمد خان (مصطفىٰ الثالث) كان يراسل والد الجبرتي والشيخ أحمد الدمنهوري ويهاديهما ويرسل إليهما الصلات والكتب[3].

وعندما أصدر السلطان محمد الرابع فرمانًا إلىٰ عمر باشا وزيره بمصر، بإعداد سجلات الرواتب والعلوفيات مفصلةً، ثم إرسالها إلىٰ الأستانة للنظر في شأنها، قام الشيخ إبراهيم الميموني بكتابة رسالة

---

(١) عجائب الآثار، (٢/ ٥٠).

(٢) الأزهر في ألف عام، بيارد دودج، (ص٩٦).

(٣) عجائب الآثار في التراجم والأخبار، الجبرتي، (١/ ٤٣٧).

موضحًا فيها مدىٰ اعتماد العلماء وطلبة العلم والفقراء علىٰ مرتبات تلك الأوقاف، وأن توقفها يعني توقف الحركة العلمية إجمالًا، وما يتبعه من خراب الديار المصرية، ثم أرسلها إلىٰ السلطان، فما لبث السلطان أن استجاب وعدل عن فرمانه[1].

فكانوا قوة لا يُستهان بها، تقف أمام ظلم الحكام، وتكون ظهيرًا للمظلومين، ويتقرب إليهم السلاطين، كما أنهم كانوا يجهرون بالحق أمام الحكام والمسئولين فيما يخالف الشريعة الإسلامية، التي كان إليها المرجع والمردّ في كل شيء كما ذكرنا.

وقد حدث وورد أغا من الدولة العثمانية وعلىٰ يده مراسيم وأوامر، منها إيقاف صرف بعض الأموال الموقوفة علىٰ بعض طرق الخير، فلما قُرئ ذلك قال القاضي: أمر السلطان لا يخالف ويجب إطاعته.

فقال الشيخ سليمان المنصوري[2]: يا قاضي الإسلام! هذه المرتبات للإنفاق علىٰ خيرات ومساجد وأسبلة، ولا يجوز إبطال ذلك، وإذا بطل بطلت الخيرات وتعطلت الشعائر المرصد لها ذلك، فلا يجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله أن يبطل ذلك، وإنْ أمر ولي الأمر بإبطاله لا يُسلم له ويخالف أمره؛ لأن ذلك مخالف للشرع، ولا يسلم للإمام في فعل ما يخالف الشرع ولا لنائبه[3].

---

(١) الحركة العلمية في مصر في القرن السابع عشر، ناصر عبدالله عثمان، (ص٦٥).

(٢) أحد كبار العلماء الأحناف في وقته.

(٣) عجائب الآثار في التراجم والأخبار، الجبرتي، (١/ ٢٢١).

وحدث أيضًا أن قام الشيخ عبد الباقي بن الشيخ عبد الوهاب العفيفي بتطليق بنت أخيه من زوجها في غيابه، علىٰ يد الشيخ حسن الجداوي المالكي[1]، علىٰ قاعدة مذهبه، وزوّجها من آخر، وحضر زوجها من الفيوم وذهب إلىٰ الأمير وشكا له.

فطلب الأمير الشيخ عبد الباقي فوجده غائبًا في منية عفيف، فأرسل إليه أعوانًا أهانوه وقبضوا عليه ووضعوا الحديد في رقبته ورجليه، وأحضروه في صورة منكرة، وحبسوه مع أرباب الجرائم من الفلاحين.

فركب الشيخ علي الصعيدي العدوي[2] والشيخ الجداوي وجماعة كثيرة من المتعممين، وذهبوا إلىٰ الأمير، وخاطبه الشيخ الصعيدي فقال له: ما هذه الأفعال وهذا التجاري؟!

فقال له الأمير: أفعالكم يا مشايخ أقبح!

فقال الشيخ: هذا قول في مذهب المالكية معمول به!

فقال: من يقول إن المرأة تطلق زوجها إذا غاب عنها، وعندها ما تنفقه وما تصرفه ووكيله يعطيها ما تطلبه ثم يأتي من غيبته فيجدها مع غيره؟!

فقالوا له: نحن أعلم بالأحكام الشرعية!

فقال: لو رأيت الشيخ الذي فسخ النكاح!

فقال الشيخ الجداوىٰ: أنا الذي فسخت النكاح علىٰ قاعدة مذهبي!

---

(١) أحد كبار علماء المالكية في وقته، ويصفه الجبرتي بالعلامة.

(٢) أحد كبار علماء المالكية، يصفه الجبرتي بشيخ الكُل في وقته.

فقام الأمير علىٰ أقدامه وصرخ وقال: والله أُكسّر رأسك!

فصرخ عليه الشيخ علي الصعيدي، وسبّه وقال له: لعنك الله! ولعن اليسرجي[1] الذي جاء بك! ومن باعك! ومن اشتراك! ومن جعلك أميرًا!

فتوسط بينهم الحاضرون من الأمراء يسكّنون حدته وحدتهم، وأحضروا الشيخ عبد الباقي من الحبس، فأخذه العلماء وخرجوا وهم يسبّون الأمير وهو يسمعهم![2].

وكان علي بك الكبير مهابًا عظيمًا، ومع ذلك كان للشيخ الدمنهوري[3] جرأة عليه وفي مراجعته فيما يفعل، ويقول له الشيخ ما لا يستطيع أحد قوله، وكان الأمير المذكور يقر له بالحق[4].

● ثالثًا: الدفاع عن بلاد السلطان!

كان الصراع دائرًا في أوربا بين إنجلترا وفرنسا؛ حيث رغبت فرنسا في قطع طريق التجارة بين إنجلترا ومستعمراتها في الهند من ناحية، وفي تكوين إمبراطورية شرقية فرنسية تكون مصر قاعدتها من ناحية أخرىٰ.

وقد شغل هذا المشروع تفكير ساسة فرنسا وقادتها منذ عهد لويس الرابع عشر، وظل يشغل تفكير الساسة والقادة حتىٰ الثورة الفرنسية

---

(١) اليسرجي: تاجر العبيد.

(٢) عجائب الآثار في التراجم والأخبار، الجبرتي، (١/ ٥١٢).

(٣) كان يُلقب بالمذاهبي لأنه يفتي علىٰ المذاهب الأربعة، وكان موسوعة علمية متنقلة.

(٤) أخبار أهل القرن الثاني عشر، إسماعيل بن سعد الخشاب، (ص٤٨).

١٧٨٩م، إلىٰ أن خرج إلىٰ حيز التنفيذ حين أُسند أمر تنفيذ هذا المشروع الاستعماري إلىٰ القائد الفرنسي نابليون بونابرت عام ١٧٩٨م.

سبق الأسطول الإنجليزي أسطول فرنسا في المجيء إلىٰ الأسكندرية بقصد التفتيش عن الأسطول الفرنسي الذي خرج ناحية مصر، وطلب قائد الأسطول الإنجليزي السماح له بالبقاء في مياه الإسكندرية، فرفض أهل الإسكندرية بزعامة السيد محمد كُريم.

يقول الجبرتي:

«حضر إلىٰ الثغر عشرة مراكب من مراكب الإنكليز، ووقفت علىٰ البعد بحيث يراها أهل الثغر، وبعد قليل حضر خمسة عشر مركبًا أيضًا، فانتظر أهل الثغر ما يريدون، وإذا بقارب صغير واصل من عندهم، وفيه عشرة أنفار، فوصلوا البر واجتمعوا بكبار البلد والرئيس إذ ذاك فيها والمشار إليه بالإبرام والنقض السيد محمد كُريم.

فكلموهم واستخبروهم عن غرضهم، فأخبروا أنهم إنكليز حضروا للتفتيش علىٰ الفرنسيس لأنهم خرجوا بعمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات، ولا ندري أين قصدهم فربما دهموكم فلا تقدرون علىٰ دفعهم ولا تتمكنوا من منعهم!

فلم يقبل السيد محمد كريم منهم هذا القول، وظن أنها مكيدة وجاوبوهم بكلام خشن!

فقالت رسل الإنكليز: نحن نقف بمراكبنا في البحر محافظين علىٰ الثغر، لا نحتاج منكم إلا الإمداد بالماء والزاد بثمنه.

فلم يجيبوهم لذلك، وقالوا:

هذه بلاد السلطان، وليس للفرنسيين ولا لغيرهم عليها سبيل؛ فاذهبوا عنا.

فعندها عادت رسل الإنكليز»[1].

ونلحظ هنا تمسك الشعب المصري بالدولة العثمانية علىٰ ما أصابها من ضعف «إنها بلاد السلطان»، وأنهم يفرّقون بين الاحتلال الإنجليزي أو غيره، وبين السلطة الشرعية الممثلة في خليفة المسلمين العثماني، وأنهم لا يرونهما سواء، ولا ينظرون إلىٰ التابعية للدولة العثمانية علىٰ أنها احتلال، كما يزعم العلمانيون الذين يسمون حقبة تابعية مصر للخلافة العثمانية بـ«الاحتلال العثماني» أو «الاحتلال التركي».

ولم يقل المصريون حينها للإنجليز مثلًا: إن حدود مصر للمصريين فقط أبًا عن جد، وليس لأي دولة كانت أن تحتلها، حتىٰ لو كانت الدولة العثمانية!

بل كان الشعب حينها ينظر إلىٰ الدولة العثمانية أنها دولة الإسلام الكبرىٰ، وأن سلطانها هو سلطان المسلمين، ولم تكن الدولة العثمانية بالنسبة للمصريين دولة أجنبية، لأنه من المبادئ المقررة في الشريعة الإسلامية أن بلاد المسلمين جميعها تعتبر دارًا واحدة، مهما تعددت أقاليمها، وأن لها سلطانًا أو خليفة واحدًا، يدين له جميع المسلمين بالسمع والطاعة.

وقد كان وجدان الناس في ذلك الوقت وجدانًا دينيًا، وعاطفتهم في

---

(١) عجائب الآثار في التراجم والأخبار، الجبرتي، (٢/١٧٩-١٨٠).

الأغلب قائمة علىٰ الدين والعقيدة، فلم تكن لهم غالبًا عاطفة وطنية، ولا يستطيعون أن يدركوها[1]. فلم يكونوا يوالون ويعادون علىٰ الوطنية والمصرية ويتعصبون لبلدهم؛ بل كانوا يرون أن جميع المسلمين جنسيتهم الإسلام فقط، ويعتقدون أنه لا حرج أن تكون مصر تابعة لسلطان الدولة العثمانية؛ فهو خليفة المسلمين حتىٰ لو كان غير مصري، هذا مع معارضتهم الشديدة أن يحتل مصر إنجليزي أو فرنسي، ذلك لأنهم مسيحيون وغير مسلمين.

حتىٰ التنازع علىٰ السلطة كان داخل الإطار الإسلامي، فقد كان المصريون قد اعتادوا الانقلابات السياسية بكثرة ملحوظة، وبخاصة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، بحيث كادت تصبح هذه الانقلابات أمرًا عاديًا في الحياة السياسة بمصر، ولكن كانت جميعها علىٰ وتيرة واحدة، لم يأت واحد منها بجديد علىٰ النظام السياسي، أو التقاليد الدينية، أو الحياة الاجتماعية.

هذه الانقلابات المكرورة كانت كلها انقلابات إسلامية وفردية، وفي نطاق الدولة العثمانية، فلم تستهدف الاستقلال عن الدولة العثمانية؛ فكانت تختلف تلك الانقلابات اختلافًا جذريًا عن الانقلاب الذي تم بنزول الحملة الإنجليزية ثم الفرنسية أرض مصر، فكان اختلاف الدين هو الحائل الأكبر دون إيجاد جو من التعايش السلمي، وكان هو العامل الأهم الذي حدد نوع العلاقات[2].

---

(١) مصر في القرن الثامن عشر، محمود الشرقاوي، (٢/ ١٢٤).

(٢) الأزهر جامعًا وجامعة، د. عبد العزيز الشناوي، (٢/ ٤٠-٤٣).

الفصل الثاني

الجهاد الإسلامي -لا القومي- ضد الفرنسيين

• تمهيد:

يتناول الكُتاب العَلمانيون والقوميون والوطنيون الاحتلالَ الفرنسي والأحداث التي جرت خلاله، من وجهة نظر علمانية وقومية متعصبة بحتة.

فيصورون في كتاباتهم أن الصراع فقط كان بين «مصريين» و«فرنسيين»، حول قطعة أرض تُسمىٰ «مصر»، وأن «المصريين» انتفضوا للدفاع عن «أرضهم» و«هُويتهم المصرية»، بما لهم من حق «السيادة» علىٰ «الحدود المصرية».

ويقولون إن ما دفع «المصريين» إلىٰ «الكفاح» -وليس «الجهاد» بالطبع- ما كان لديهم من «حس وطني»، وهو ما كان دومًا لا يفارق «الشخصية المصرية» من قديم الزمان، من أيام الفراعنة!

وبذلك شوّهوا الحقائق التاريخية، ولم يتناولوها بتجرد، فحرّفوها تارة، وأخفوها تمامًا تارة أخرىٰ، وأوجدوا قسرًا مفاهيم لم تكن موجودة

أصلًا في وجدان الشعب المصري المسلم، كما سيتضح للقارئ الكريم من هذا الفصل إن شاء الله.

إن تناول أحداث الاحتلال الفرنسي من المصادر التي كتبها مَن عايشوها بدون تحريف، كالجبرتي ونقولا الترك .. من شأنه أن يُطلعنا علىٰ طبيعة أهل مصر حينها؛ يجعلنا ندرك فكرهم، وطريقة تعاملهم مع ما يحدث حولهم، وشكل حياتهم اليومية، وغير ذلك.

مما يجعلنا ننجح في أن نلحظ الفوارق، ونقارن بين العصور المختلفة مقارنة صحيحة، وبالتالي نستخلص العبر، ونسجل التغيرات، ونعلم ما جرّه ارتداء ثوب الغرب وقيَمه علينا من تابعية وتأخر وسير في ذيل الأمم.

• أولًا: وصول الفرنسيين وجهاد أهل الإسكندرية:

في أوائل شهر يوليو من عام ١٧٩٨م الموافق شهر المحرم من عام ١٢١٣هـ أصبح أهالي الإسكندرية ليروا الفرنسيين كالجراد المنتشر حول المدينة.

فعندها خرج أهل الثغر فلم يستطيعوا مدافعتهم ولا أمكنهم ممانعتهم ولم يثبتوا لحربهم، ورجع أهل الثغر إلىٰ التترس في البيوت والحيطان، ودخل الفرنسيون البلد، كل ذلك وأهل البلد لهم بالرمي يدافعون، وعن أنفسهم وأهليهم يقاتلون ويمانعون، فلما أعياهم الحال، وعلموا أنهم مأخوذون بكل حال، وليس ثم عندهم للقتال استعداد لخلو الأبراج من آلات الحرب والبارود، وكثرة العدو وغلبته، طلب أهل الثغر الأمان فأمّنوهم، ورفعوا عنهم القتال ومن حصونهم أنزلوهم.

ونادىٰ الفرنسيون بالأمان في البلد، ورفعوا علم فرنسا، وطلبوا أعيان الثغر فألزموهم بجمع السلاح وإحضاره إليهم، وأن يضعوا شعار فرنسا علىٰ صدورهم إذلالًا لهم[1].

ولكن أهل الإسكندرية مع ذلك استطاعوا أن ينالوا من الفرنسيين قبل أن يستتب الأمر لهم، حتىٰ أوشك قائدهم نابليون نفسه أن يُقتل!

فقد ذكر مسيو بوريون سكرتيره الخاص، أنه دخل مع نابليون من حارة لا تكاد لضيقها تسع شخصين متجاورين، فأوقفتهما طلقات الرصاص التي كان يسددها إليهم رجل وامرأة من إحدىٰ النوافذ!

ولم يستطع نابليون المسير إلا بعد أن هاجم عدد من جنوده المنزل، وقتلوا الرجل والمرأة، وجُرح الجينرال كَليبر حينها جرحًا بليغًا[2].

وكتب الجينرال بيرتييه رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية في رسالة منه لوزارة الحربية يقول: إن الأهالي دافعوا عن أسوار المدينة دفاع المستميت، وقد أصيب في هذه الموقعة الجينرال كَليبر (الذي سيخلف نابليون فيما بعد) بعيار ناري في جبهته فجُرح جُرحًا بليغًا، وأصيب الجينرال مينو (الذي سيصبح فيما بعد الخليفة الثاني لنابليون) بضربة حجر أسقطته من أعلىٰ السور، فنالته رضوض شديدة، وأصيب الأدجودان جينرال أسكال بجرح بليغ في ذراعه من عيار ناري، وقتل اللواء ماس، وخمسة ضباط آخرون.

---

(١) ينظر: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، الجبرتي، (٢/ ١٨٠-١٨١).

(٢) مصر في القرن الثامن عشر (٣/ ٣٨)، ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية، نقولا الترك، (ص١٤١).

وكتب الجنرال مينو إلىٰ نابليون يقول: إن الجنود الفرنسيين واجهوا مخاطر عظيمة؛ لأن الأهالي دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم[1].

وكان قد ظل فريق من أهل الإسكندرية بقيادة محمد كُريم معتصمًا بقلعة قايتباي يقاتل، ولم يكن هذا الفريق أكثر من عشرين مجاهدًا، استطاع أن يعوق طليعة الجيش الفرنسي، وأن يقتل قائد تلك الطليعة، ثم سلم مقهورًا[2].

وبعد عشرة أيام من تواجد الفرنسيين، بدأت المقاومة السرية في الإسكندرية بالتواصل مع محمد كُريم، وتنوعت ما بين اغتيال الفرنسيين في الشوارع، وإلقائهم في البحر، وإتلاف آبار المياه في طريقهم، وإخفاء الإبل كي لا يستعينوا بها، وامتدت المقاومة أيضًا إلىٰ رشيد والبحيرة والغربية، بعمليات مشابهة[3].

• ثانيًا: نابليون يتظاهر بالإسلام!

وبعد أن وصلت الأخبار إلىٰ القاهرة، اجتمع الوزير السلطاني باكير باشا العثماني، والعلماء (كالشيخ عبدالله الشرقاوي، والشيخ محمد السادات، والشيخ محمد المهدي[4]، والشيخ خليل الجوهري، والشيخ

---

(١) مصر في القرن الثامن عشر، (٣/٣٩)، تاريخ الحركة القومية، عبد الرحمن الرافعي، (١/١٧٩).

(٢) مصر في القرن الثامن عشر (٣/٣٨).

(٣) ينظر: مصر في القرن الثامن عشر (٣/ ٤٠-٤٣).

(٤) من علماء المذهب الحنفي، كان نصرانيًا ثم أسلم، يصفه الجبرتي بالـ«الأستاذ الفريد، واللوذعي المجيد، الإمام العلامة، والنحرير الفهامة، الفقيه النحوي، الأصولي الجدلي المنطقي».

سليمان الفيومي[1]، والشيخ مصطفىٰ الصاوي[2]، وغيرهم)، والأمراء، والقاضي، وكبار العسكر، وغيرهم.

وقال مراد بك للوزير العثماني: إن هؤلاء الفرنساوية ما دخلوا هذه الديار إلا بإذن الدولة العثمانية، ولابد أن الوزير عنده علم بتلك النية، ولكن القدرة تساعدنا عليكم وعليهم!

فأجابه الوزير العثماني: لا يجب عليك أيها الأمير أن تتكلم بهذا الكلام العظيم، ولا يمكن أن دولة بني عثمان تسمح بدخول الفرنساوية علىٰ البلاد الإسلامية!

واتفق المجتمعون علىٰ إرسال رسالة إلىٰ إسلامبول (إسطنبول)؛ حيث مقر السلطان العثماني، ليطلعوه علىٰ المستجدات في مصر، وأن مراد بك يجهز العساكر ويخرج لملاقاة الفرنسيين، وإبراهيم بك الكبير وباكير باشا الوزير يظلون مع بقية الجنود لحماية القاهرة[3].

وكان قد هاج أكثر العلماء والأعيان، وقالوا: لا بد أن نقتل بالسيف جميع النصارىٰ قبل أن نخرج إلىٰ حرب الكفار!

فقال الوزير العثماني وشيخ البلد إبراهيم بك: غير ممكن أن نسلم بهذا الرأي؛ لأن هؤلاء رعية مولانا السلطان، صاحب النصر والشان[4].

---

(١) من علماء المالكية، يصفه الجبرتي بـ«العمدة النحرير والنبيل الشهير».

(٢) مصطفىٰ الصاوي الشافعي، كان عالمًا نجيًا وشاعرًا لبيًا، كما يقول الجبرتي.

(٣) ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية، نقولا الترك، (ص٣٢-٣٣)، عجائب الآثار (٢/ ١٨١).

(٤) ذكر تملك جمهور الفرنساوية، (ص٣٣).

وكتب بونابرت رسالة ووزعها علىٰ المصريين، بدأها بـ: بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، لا ولد له ولا شريك له في ملكه!

ومما جاء فيها: أن المماليك الذين يتسلطون في البلاد المصرية، يعاملون بالذل والاحتقار من يأتي مصر من الفرنساويين، ويؤذونهم ويتعدون عليهم، وقد حضرت الآن ساعة عقوبتهم بعد صبر طويل.

وقال إن رب العالمين القادر علىٰ كل شيء قد حكم علىٰ انقضاء دولة المماليك.

ثم قال: يا أيها المصريون قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرق إلا بقصد إزالة دينكم؛ فذلك كذب صريح فلا تصدقوه، وقولوا للمفترين إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وإنني أعبد الله ﷻ أكثر من المماليك، وأحترم نبيه والقرآن العظيم!

وقال بونابرت: وقولوا أيضًا لهم إن جميع الناس متساوون عند الله، وإن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب؛ فماذا يميزهم عن غيرهم حتىٰ يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم، ويختصوا بكل شيء حسن فيها، من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة؟!

فإن كانت الأرض المصرية التزامًا للماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم؛ ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم، ولكن بعونه تعالىٰ من الآن فصاعدًا لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية، وعن اكتساب المراتب العالية؛ فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور، وبذلك يصلح حال الأمة كلها.

أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجُربجية[1] وأعيان البلد، قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضًا مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرىٰ، وخرّبوا فيها كرسي البابا الذي كان دائمًا يحث النصارىٰ علىٰ محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة، وطردوا منها الكواللرية[2] الذين كانوا يزعمون أن الله تعالىٰ يطلب منهم مقاتلة المسلمين.

ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه، أدام الله ملكه، والمماليك امتنعوا من إطاعة السلطان، طوبىٰ ثم طوبىٰ لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم، طوبىٰ للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين، فإذا عرفونا أكثر تسارعوا إلينا بكل قلب، لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون علىٰ المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقًا إلىٰ الخلاص ولا يبقىٰ منهم أثر.

ويختم قائلًا: والواجب علىٰ المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أن يلازموا وظائفهم، وعلىٰ كل أحد من أهالي البلدان أن يبقىٰ في مسكنه مطمئنًا، وكذلك تكون الصلاة قائمة في الجوامع علىٰ العادة، والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله ﷻ لانقضاء دولة المماليك، قائلين بصوت عالٍ: أدام الله إجلال السلطان العثماني، أدام الله إجلال العسكر

---

(١) «الجُربجية»، أي: العسكر.

(٢) الكواللرية: فرسان مالطا. ولهم سفارة في مصر بوسط البلد بشارع هدىٰ شعراوي.

الفرنساوي، لعن الله المماليك، وأصلح حال الأمة المصرية[1].

ويتضح من هذا الخطاب مدىٰ اطلاع نابليون علىٰ حب أهل مصر للإسلام، ومدىٰ تدينهم، ومدىٰ حرصهم علىٰ التابعية والولاء للسلطان العثماني بصفته خليفة المسلمين ورئيسهم الديني؛ لذلك ادعىٰ أنه مسلم موحد بالله، ومحبّ للسلطان، وأنه متحد ومتحالف معه، وما أتىٰ إلا بإذنه، وأنه والسلطان اتحدا لقهر روسيا واسترجاع ما أخذته من بلاد المسلمين، وأكرم نابليون من بقي من العثمانيين في مصر، وأحسن إليهم، لدرجة أن بعضهم استغرب هذا الأمر، كما أمر أن تستمر العُملة كما هي عليها اسم السلطان العثماني، وأن تُرفع أعلام الدولة العثمانية في كل مكان يوجد به الفرنسيون[2].

يقول نقولا الترك:

«الفرنساوية قد استعملوا احتيالات كثيرة، وسلكوا مسالك غزيرة، لأجل الضرورة؛ كاشتهارهم بالإسلام ونكرانهم للنصرانية، وإظهارهم للحرية، وإقرارهم بالاتحاد مع الدولة العثمانية، وأنهم بإذنهم دخلوا الديار المصرية، وأنهم مع الإسلام علىٰ أخلص طوية، وأحسن نية، ويرغبون راحتهم ويحبون ديانتهم... ومع كل ذلك، كانت قلوب المسلمين غير آمنة، والأحقاد في ضمائرهم كامنة، ويشتهون للفرنسيين المهالك، والوقوع في أضيق المسالك»[3].

---

(١) ينظر: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، الجبرتي، (٢/ ١٨٠-١٨٤).

(٢) ينظر: ذكر تملك الفرنساوية، (ص٣٩، وص٤٢، وص٥٤).

(٣) ينظر: ذكر تملك الفرنساوية، (ص٤٥).

فكلام نابليون والفرنسيين لم يصدقه غالب المصريين؛ فكانت قلوبهم غير آمنة ولا مطمئنة، وكانوا يقولون إن كل هذا خداع ومخاتلة ريثما يتملك، وأما هو فنصراني ابن نصراني! وهي جملة معبرة تصور نظرة المجتمع المصري الديني إلىٰ بونابرت، فلم يصف المصريون بونابرت بأنه أوروبي ابن أوروبي، ولم يقولوا عنه إنه فرنسي ابن فرنسي، بل اتخذوا من الدين معيارًا لتقييم بونابرت[1].

وقد انخدع في الفرنسيين جزء من المصريين أول الأمر، لما ادعوه من الإسلام والموالاة للسلطان العثماني، فكان المسلمون يظنون أن الفرنسيين تأتي لهم الأوامر من الدولة العثمانية بالتواجد في مصر كما كانوا يقولون لهم![2].

وفي موطن آخر من مذكرات نقولا الترك يقول إنه كان مما يحز في نفوس المصريين خضوع بلادهم لحكم أوروبي مسيحي، لأن مصر بلد إسلامي منذ أن فتحها عمرو بن العاص، ولأنها ظلت علىٰ هذا الوضع الإسلامي علىٰ توالي الأدهر والعصور، واختلاف الحكام الذين تعاقبوا علىٰ حكمها[3].

• ثالثًا: الفرنسيون يزحفون نحو القاهرة:

زحف الفرنسيون نحو القاهرة، ووقعت أول مواجهة بين مراد بك،

---

(١) الأزهر جامعًا وجامعة، د. عبد العزيز الشناوي، (٢/ ٤٤).

(٢) ذكر تملك الفرنساوية (ص٤١-٤٢، وص٥٨).

(٣) الأزهر جامعًا وجامعة (٢/ ٤٤-٤٥).

وبين الفرنسيين، بالقرب من شبراخيت بالبحيرة، وانهزم فيها مراد بك.

واجتمع بالقاهرة الباشا والعلماء ورؤوس الناس، وأعملوا رأيهم في هذا الحادث العظيم، فاتفق رأيهم علىٰ عمل متاريس في أنحاء متفرقة، وتم توزيع قوات وأسلحة في أماكن مختلفة، وكان العلماء والمتصوفة والصبية يجتمعون بالأزهر كل يوم ويقرأون البخاري وغيره ويدعون الله.

ونودي بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس، وكرروا المناداة بذلك كل يوم، فأغلق الناس الدكاكين والأسواق، وخرج الجميع لبر بولاق.

فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم، وينصبون لهم خيامًا، أو يجلسون في مكان خرب أو مسجد، ويرتبون لهم فيما يصرف عليهم ما يحتاجون له من الدراهم التي جمعوها من بعضهم.

وبعض الناس يتطوع بالإنفاق علىٰ البعض الآخر، ومنهم من يُجهز جماعة من المغاربة والشوام بالسلاح والأكل وغير ذلك، بحيث إن جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما في قوتهم وطاقتهم.

وسمحت نفوسهم بإنفاق أموالهم، فلم يشح في ذلك الوقت أحد بشيء يملكه.

وخرج الصوفية بالطبول والزمور والأعلام، وهم يصيحون ويذكرون الله.

وصعد علماء مصر والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف إلىٰ القلعة،

فأنزلوا منها راية كبيرة، سمّتها العامة البيرق النبوي[1]، وأمام العلماء وحولهم آلاف من عامة الناس بالنبابيت والعصي، فرفع العلماء الراية، والناس معهم كالبحر الدفّاق، يهللون ويُكبّرون، ويكثرون من الصياح، ومعهم الطبول والزمور وغير ذلك، ووصلوا إلىٰ بولاق وهم يدعون الله تعالىٰ، وصعدوا إلىٰ المنابر وفتحوا المصاحف.

وأما باقي القاهرة فإنها كانت خالية، لا تجد بها أحدًا سوىٰ النساء في البيوت، والصغار، وضعفاء الرجال الذين لا يقدرون علىٰ الحركة، والأسواق مصفرة، والطرق مجفرة من عدم الكنس والرش، وغلا سعر السلاح والبارود والرصاص، ومحصل الأمر أن جميع من بمصر من الرجال تحول إلىٰ بولاق، وفي كل يوم يتزايد الجمع ويعظم الهول.

وقام فريق من الناس بالقبض علىٰ بعض التجار الإفرنج الموجودين بمصر، وتفتيش محلاتهم، وكذلك بيوت النصارىٰ الشوام، والأقباط، والأروام[2]، والكنائس، والأديرة، بحثًا عن الأسلحة، كي لا يتعاونوا مع الفرنسيين. والعامة لا ترضىٰ إلا أن يقتلوا النصارىٰ واليهود، فيمنعهم الحكام عنهم، ولولا ذلك المنع لقتلتهم العامة.

واستمر الأمر علىٰ ذلك حتىٰ تلاقىٰ الفريقان، وكانت الغلبة للفرنسيين في موقعة إمبابة، وانسحب مراد بك إلىٰ الصعيد، ورحل باكير باشا وإبراهيم بك إلىٰ الشام، وكانت الخسارة كبيرة، وحدث هرج ومرج

---

(١) البيرق: العَلَم الكبير.

(٢) الأروام: أي النصارىٰ الكاثوليك.

وخوف، ورحل الكثيرون هائمين علىٰ وجوههم، وعم الحزن.

وأمر بونابرت أن يضع جميع أهل مصر علىٰ رؤوسهم أو صدورهم عَلَم الفرنسيين، وأمر بالقصاص من كل من لم يضعه.

وبدأ نابليون بعد استقرار الأمور له يداهن المصريين ويتقرب إليهم، وإلىٰ المشايخ والعلماء خاصة، فكان أول من طلب مقابلتهم هم علماء الأزهر، فكان هذا الطلب اعترافًا بزعامة العلماء للشعب المصري، وأرسل إلىٰ المشايخ كي يعودوا ووعدهم بالأمان، فحضر الشيخ السادات والشيخ الشرقاوي وبعض المشايخ ومن انضم إليهم من الناس الفارين، وأما عمر مكرم نقيب الأشراف فإنه لم يطمئن ولم يحضر[1].

● رابعًا: نابليون يتودد إلى المشايخ:

لقد حاول بونابرت أن يمارس سياسة استعمارية مع علماء الأزهر، نطلق عليها تجاوزًا سياسة التعايش السلمي، ويطلق عليها المؤرخون الفرنسيون: سياسة بونابرت الإسلامية، وانبثاقًا من هذه السياسة تظاهر باحترامه للدين الإسلامي وبالحرص علىٰ استمرار المسلمين في إقامة الشعائر الدينية، كالصلاة في المساجد، ثم الاحتفال بالمناسبات الدينية الإسلامية وغيرها، ربطًا للشعب الإسلامي في مصر بالحكم الفرنسي، وسعيًا لتأييد العلماء له فتخلد الجماهير إلىٰ السكينة وعدم المقاومة.

وقد قال بونابرت في مذكراته عن علماء الأزهر: إنهم زعماء الشعب

---

(١) عجائب الآثار (٢/ ١٨٥-١٩٣)، الأزهر جامعًا وجامعة، د. عبد العزيز الشناوي، (٢/ ٢١-٢٢)، ذكر تملك الفرنساوية، (٣٥-٣٧).

المصري، وقد ظفروا بثقة ومودة سكان مصر عن بكرة أبيهم. . . وإن أكبر العقبات التي واجهتنا وسوف تواجهنا أيضًا إنما تنبثق عن الأفكار الدينية[1].

ولهذا أمر نابليون بإنشاء ديوان لإدارة القاهرة، يضم فريقًا من علماء الأزهر، فمن المشايخ من رفض كالشيخ السادات وعمر مكرم -رغم ورود أسمائهم ضمن أعضاء الديوان بقرار نابليون- واختاروا المسار الثوري، ومنهم من قبل ذلك كأمر واقع، رغبة في تقليل الفساد قدر الإمكان، كالشيخ الشرقاوي والمهدي والصاوي والبكري والفيومي، وهؤلاء قد غضب منهم الثوار بعد ذلك. وكان هناك بعض مشايخ السوء، ولكنهم قليلون، وكانوا في نظر الناس عملاء وبوقًا للاحتلال الفرنسي، ولم يكونوا من قادة الشعب الذين يلجأ إليهم عند الشدائد.

والفريق الثاني الذي قَبِل الدخول في هذا الديوان كانوا يعرفون حرص نابليون علىٰ وجودهم لترسيخ شرعيته، وبالتالي استخدموا ذلك في شفاعتهم في بعض المعتقلين المسلمين، وفي دفع مظالم الفرنسيين، وفي إخراجهم من الجامع الأزهر بعد أن دخلوه عقب ثورة القاهرة الأولىٰ، وغير ذلك، وكان نابليون ينزل علىٰ كلامهم في كثير من الأحيان خشية انضمامهم لصف العلماء الثوريين وتأليبهم الشعب عليه.

وذات يوم، طلب بونابرت مشايخ الديوان، فلما استقروا عنده نهض بونابارت من المجلس ورجع وبيده طيلسانات ملونة بألوان علم فرنسا،

---

(١) الأزهر جامعًا وجامعة، د. عبد العزيز الشناوي، (٢/ ٧-١٠).

أبيض وأحمر وكحلي، فوضع منها واحدًا علىٰ كتف الشيخ الشرقاوي؛ فرمىٰ الشيخ به إلىٰ الأرض! واستعفىٰ وتغير مزاجه وانتقع لونه واحتد طبعه!

فقال الترجمان: يا مشايخ! أنتم صرتم أحبابًا لنابليون، وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته، فإن تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس، وصار لكم منزلة في قلوبهم.

فقالوا له: لكن قدرنا يضيع عند الله وعند إخواننا من المسلمين!

فاغتاظ لذلك بونابرت[1].

وقد طلب منهم نابليون فيما بعد أن يدلّوه علىٰ المشايخ الذين كانوا وراء ثورة القاهرة الأولىٰ ظنًّا منه أنهم خونة وسيساعدونه، فلم يعترف المشايخ بأسمائهم، فقال لهم نابليون: نحن نعرفهم بالواحد![2].

وقد أمر نابليون بأن يؤدي رجال حرس الشرف، الذين يرابطون أمام مقر القيادة العامة للجيش الفرنسي في الأزبكية، التحية العسكرية بالسلاح لعلماء الأزهر[3].

وأرسل بونابرت إلىٰ الشيخ محمد المسيري[4] كبير علماء الأسكندرية رسالة، ومما جاء فيها: تعلمون التقدير الخاص الذي شعرت به نحوكم

(١) ينظر: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، الجبرتي، (٢/ ٢٠٣-٢٠٤).

(٢) عجائب الآثار في التراجم والأخبار، (٢/ ٢٢٢).

(٣) الأزهر جامعًا وجامعة، د. عبد العزيز الشناوي، (٢/ ٢١-٢٢).

(٤) الشيخ محمد المسيري المالكي، أجلُّ مذكور في الثغر، كما يقول الجبرتي.

منذ اللحظة الأولىٰ التي عرفتكم فيها، إني أرجو ألا يتأخر الوقت الذي أستطيع فيه جمع الرجال العقلاء، والمتعلمين في البلاد، وإقامة نظام موحد يقوم علىٰ مبادئ القرآن! التي هي وحدها المبادئ الحقة، والتي هي وحدها قديرة علىٰ إسعاد الناس[1].

ومما يُلاحظ أن استعانة نابليون ببعض مشايخ السوء، يدل في ذاته علىٰ مدىٰ أهمية علماء الأزهر في الجملة لدىٰ الفئات المختلفة من أهل مصر، ومدىٰ تأثيرهم في الحياة السياسية والاجتماعية وغير ذلك، وإلا لما أوجدهم نابليون في الصورة مطلقًا؛ فالفرنسيون كانوا لا يزالون في أعقاب الثورة الفرنسية التي تميزت بالإلحاد وطمس كل ما هو ديني.

فبعد ثورة فرنسا عام ١٧٨٩م وإعدامها الملك لويس السادس عشر عام ١٧٩٣، كان القائمون بالثورة يريدون أن يطمسوا كل شيء من النصرانية؛ فغيّروا التقويم النصراني، ورفضوا الديانة، وأغلقوا الكنائس والأديرة، وقتلوا الرهبان والراهبات وعددًا من الأساقفة، ورموا الأيقونات النصرانية، وكسروا الصلبان[2].

- **خامسًا: الشعب يتجهّز للجهاد:**

بعد احتلال الفرنسيين مصر، عمّ الحزن الشديد سائر أرجاء البلاد، بل وحتىٰ خارجها.

ويكفي مثلًا علىٰ هذا ما حدث لصالح بك أمير الحج بمصر؛ ففي

---

(١) الأزهر جامعًا وجامعة، (٢/ ٣٢).

(٢) ينظر: نقولا الترك، ذكر تملك الفرنساوية، (ص٢٤).

سنة ١٢١٢هـ خرجت بعثة الحج من مصر، وكان صالح بك أمير البعثة، وخلال رجوعه علم باحتلال الفرنسيين لمصر، فبكىٰ صالح بك، وقرر عدم الرجوع إلىٰ مصر، وصار حائرًا لا يدري ماذا يفعل، وقرر بعد مشورة أصحابه أن يتوجه إلىٰ القدس.

وحينما شاهده أهل القدس بدءوا يشتمون ويقولون: لعنكم الله يا ملاعين! ويا أظلم الظالمين! سلمتم المسلمين للفرنساوية اللئام وهربتم من وجه الكفار؟!

فلما سمع صالح بك تلك الشتائم اتقدت بقلبه النيران، ورجع بيته، ومرض أيامًا عديدة من قهره، ثم توارىٰ في قبره[١].

لقد عاث الفرنسيون (المتمدنون) في مصر فسادًا! وفرضوا ضرائب كثيرة باهظة، وداهموا العديد من البيوت ونهبوها، وأعدموا كل من يعارضهم، وهدموا كثيرًا من المساجد لتحصين مواقعهم.

ثم سمع المصريون بانهزام الفرنسيين في موقعة أبي قير البحرية في أغسطس عام ١٧٩٨م، فقد تسربت أنباء تلك الهزيمة إلىٰ أهل القاهرة علىٰ الرغم من حرص الفرنسيين الشديد علىٰ تكتم أخبارها، وتهديدهم بقطع لسان كل مصري، أو تغريمه مائة ريال إذا خاض في ذكر هذه الواقعة[٢].

ولم يلبث أن وقع أمر، جعل العاطفة الدينية تزداد تأججًا في نفوس

---

(١) ذكر تملك الفرنساوية، (ص٤٧).

(٢) عجائب الآثار (٢/ ٢٠١).

المصريين، فقد أعلن سليم الثالث سلطان الدولة العثمانية الحرب علىٰ فرنسا في سبتمبر ١٧٩٨م.

وقد تسلل إلىٰ القاهرة من بلاد الشام رسل يحملون معهم منشورًا أصدره السلطان، دعا فيه المصريين إلىٰ الجهاد الديني ضد الفرنسيين، واتخذ أولئك الرسل طريقهم إلىٰ الجامع الأزهر سرًّا، وتلقف علماء الأزهر وطلابه هذا المنشور.

لقد حمل منشور السلطان علىٰ الفرنسيين حملة عنيفة، فوصفهم بأنهم قوم لا ينكرون وحدانية الله فقط، ولا ينكرون رسالة محمد فحسب، بل ينكرون وجود الله، ويهزأون بكل الأديان، ولا يعتقدون في يوم البعث والحساب والحياة الآخرة، وأنهم يُحلون ما تحرمه الأديان، ويعتقدون أن الكتب السماوية ليست إلا مجموعة من الأكاذيب أو نوعًا من الأساطير، وأن موسىٰ وعيسىٰ ومحمدًا ليسوا إلا رجالًا عاديين لم يخصهم الله بالرسالة التي عهد إلىٰ كل منهم بتبليغها إلىٰ بني الإنسان.

واهتم المنشور بعد هذا الهجوم علىٰ الفرنسين بتحريض الشعب المصري علىٰ الجهاد الديني ضدهم، وأثار في المصريين العاطفة الدينية فخاطبهم بقوله: يا حماة الإسلام، يا مدافعون عن العقيدة، يا من تعبدون الله وحده، يا من تؤمنون برسالة محمد بن عبد الله، أجمعوا كلمتكم وانفروا إلىٰ الحرب، والله القدير يرعاكم، إن الإسلام محفور في قلوبنا، إنه ينساب في عروقنا مع دمائنا، ولقد قال الله تعالىٰ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ﴾ [آل عمران: ٢٨] والحديث الشريف يقول:

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»[1].

ومضىٰ المنشور يقول مخاطبًا المصريين: لقد دقت ساعة الخلاص، وحان الوقت لكي تبيدوا قوىٰ الشر، ولا ترهبكم جموعهم؛ لأن الأسود لا تخشىٰ الثعالب، وقد أصدرنا الأمر إلىٰ الباب العالي بحشد قوات من أنحاء الإمبراطورية، وبعد قليل تتحرك جيوش عديدة مهيبة، وستغطي مراكب عالية كالجبال سطح البحر، وستصل مدافع تبرق وترعد، وأبطال يسترخصون الموت انتصارًا لقضية الله، وسوف يلقىٰ الفرنسيون الهلاك، وتنهار آمالهم؛ لأن وعد الله حق، والعظمة لله رب العالمين.

ولم يكن يبدأ شهر أكتوبر من عام ١٧٩٨م حتىٰ علم سكان القاهرة عن بكرة أبيهم أن سلطان المسلمين قد أعلن الجهاد الديني ضد الفرنسيين[2].

وكان الصدر الأعظم (الرجل الثاني بعد السلطان العثماني) قد أرسل منشورًا إلىٰ مصر، في الثاني والعشرين من سبتمبر، يحوي تكذيبًا قاطعًا لكل ما ردده بونابرت في منشوراته من حدوث تفاهم بينه وبين السلطان العثماني، وقد قُرئ هذا المنشور في المساجد، وكان فيه تحريض للشعب المصري علىٰ قتل الفرنسيين[3].

«وعندما شاعت الأخبار بأن الفرنساوية تملكوا الديار المصرية..

---

(١) حديث متفق عليه، رواه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٢) الأزهر جامعًا وجامعة، د. عبد العزيز الشناوي، (٢/ ٤٨-٥٢).

(٣) الأزهر جامعًا وجامعة، د. عبد العزيز الشناوي، (٢/ ٥٢).

هاجت جميع ممالك الإسلام لمحاربة الفرنساوية اللئام، وصاحوا: يا غيرة الدين وحماية المؤمنين! واستنهضت الدولة العلية والسدة الملوكية لاستخلاص الديار المصرية، وأبرزت الأوامر والأحكام وساير الباشوات والحكام تستنهضهم للمغازاة عن دين الإسلام. وقد حضرت الأوامر الشريفة إلىٰ أحمد باشا الجزار بالمغازاة علىٰ هؤلاء الكفار ويكون سردار العسكر»[1].

وكان أحمد باشا الجزار والي الشام يرسل المنشورات إلىٰ المصريين، يبلغهم أن السلطان قد عينه واليًا علىٰ مصر، بالإضافة إلىٰ منصبه في بلاد الشلام، وأنه سيزحف علىٰ رأس قوات جرارة لطرد الفرنسيين منها، ويدعو المصريين «للقيام ضد الكفار»[2].

وحين علم بونابرت باستنهاض العثمانيين للمسلمين بقيادة الجزار لطرد الفرنسيين من مصر.. أرسل رسالة إلىٰ أحمد باشا الجزار يستعطفه ويخبره فيها بأن الدولة الفرنساوية متحدة مع الدولة العثمانية بالحب والصداقة منذ أعوام عديدة! وأنهم -أي الفرنسيون- لم يجيئوا إلىٰ مصر إلا مضطرين لسطو إنجلترا علىٰ أراضيهم بالهند، وللقضاء علىٰ المماليك الذين يعصون الدولة العلية العثمانية، ولحماية المسلمين ورفع شرائع الدين! وأنهم ما جاءوا إلا بإذن الدولة العثمانية، وأنهم محافظون علىٰ سك العملة وبقاء الخطب باسم السلطان سليم دام بالعز والتنعيم.

---

(١) ذكر تملك الفرنساوية (ص٤٩). وسردار العسكر: قائدهم.

(٢) الأزهر جامعًا وجامعة، (٢/ ٥٢).

ولما وصلت رسالة بونابرت إلىٰ أحمد باشا الجزار اشتد به الغيظ والغضب، وأمر أن يرحل الكافر الذي جاء بهذه الرسالة من البلاد فورًا، وإلا سيحرقه بالنار![1].

وكذلك أرسل الوالي العثماني أحمد باشا الجزار وإبراهيم بك برسالة إلىٰ الشيخ حسن طوبار شيخ إقليم المنزلة، يحثّانه ألا يقبل الفرنسيين في أرضه، وأن يستنهض أهالي الإقليم ضدهم، وأن يكون مجاهدًا في حربهم، ويعدانه بإرسال المدد العسكري إليه، واستجاب الشيخ حسن طوبار واستنهض أهالي القرىٰ التي حوله، وتجمعوا في قرية الشعرا بالقرب من دمياط بالتنسيق مع أهالي دمياط، وباغتوا الفرنسيين وهم يصيحون: اليوم يوم المغازاة من هؤلاء الكفار ومن يتبعهم من النصارىٰ! اليوم ننصر الدين ونقتل هؤلاء الملاعين![2].

واجتمع المماليك الذين فروا إلىٰ الصعيد، وتركوا ما كان بينهم من الأحقاد، وأخلصوا الوداد، وغفروا السيئات، وصفحوا عما فات، واتفقوا علىٰ المغازاة في سبيل الله، وصاحوا: يا غيرة الدين ونصرة المسلمين، الله أكبر علىٰ هؤلاء الكافرين[3].

وكان إبراهيم بك من ناحيته يبعث بمنشورات أخرىٰ إلىٰ المشايخ علماء الأزهر، يبلغهم أنه في طريقه إلىٰ القاهرة، ويطلب منهم تحريض

---

(١) ذكر تملك الفرنساوية (ص٤٩-٥١).

(٢) ذكر تملك الفرنساوية، (ص٥٣).

(٣) ذكر تملك الفرنساوية، (ص٥٦).

الشعب علىٰ الثورة ضد الفرنسيين، وكان هناك رسل يأتون خفية من بلاد الشام يحملون تلك المكاتبات، ويتسللون إلىٰ الجامع الأزهر، ويلتقون العلماء والطلاب، ويتداولون المنشورات فيما بينهم ليقرءوها في مساجد القاهرة[1].

ولما حضر الفرنسيون إلىٰ القاهرة ودخلوا قصر مراد بك، وجدوا فيه رسائل من محمد كريم لمراد بك بأخبارهم، وبالحث علىٰ الاجتهاد في حربهم، وتهوين أمرهم، وتنقيصهم.

فاشتد غيظهم عليه، فأرسلوا وأحضروه من الإسكندرية، وحبسوه، فتشفّع فيه أرباب الديوان من المشايخ عدة مرات فلم يمكن.

وطلب الفرنسيون منه مبلغًا كبيرًا من المال يعجز عنه، وقالوا له أمامك اثنتا عشرة ساعة لتحضر المال وإلا قتلناك.

فلما انقضىٰ الأجل ربطوه وضربوا عليه بالبنادق، ثم قطعوا رأسه، ورفعوها علىٰ نبوت وطافوا بها، والمنادي يقول: هذا جزاء من يخالف الفرنسيس[2].

وقد قال محمد كُريّم والجند تسير به إلىٰ ساحة الإعدام:

«يا أمة محمد! اليوم بي، وغدًا بكم».

وحين قُتل كان حزنًا عظيمًا لدىٰ المصريين، خاصة أن السيد محمد

---

(١) الأزهر جامعًا وجامعة، د. عبد العزيز الشناوي، (٢/ ٥٢).

(٢) عجائب الآثار في التراجم والأخبار، الجبرتي، (٢/ ٢٨٠).

كريم كان من الأشراف، ومن ذلك الوقت تنافرت قلوبهم زيادة[1].

وكان ذلك في الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول عام ١٢١٣، الموافق السادس من سبتمبر ١٧٩٨م، فـ رحمه الله رحمة واسعة وتقبله في الشهداء.

وقد كان ثبات محمد كُريم وجهاده راجعَين لنشأته الإسلامية والدينية، فقد كان والد محمد كريم يرجو من الله أن يرزقه بولد، بعد أن أنجب عددًا من الإناث، وكانت والدته لا تقدر علىٰ الإنجاب، فكان يخشىٰ عليها زوجها من الحمل، وعندما أنجبت السيد محمد كريم، انطلقت الزغاريد وأعطىٰ مبلغًا كبيرًا للقابلة.

ونذر والد محمد كريم ابنه لخدمة الدين، وكان والده رجلًا متدينًا، فعلّم ابنه العلوم الدينية ومبادئ القراءة والكتابة في أحد الكتاتيب بالإسكندرية، ثم أرسله بعد ذلك إلىٰ الأزهر الشريف لاستكمال دراسته الدينية، وظل بالأزهر عدة سنوات حظي فيها بقسط من العلوم الدينية واللغة العربية والفقه والشريعة، ولكنه ترك الأزهر لوفاة والده، وهو كان لا يزال صبيًا بغير مهنة، ومما زاد الأمر سوءًا أن والده ترك أسرة كبيرة العدد، ولم يترك عقارًا أو مالًا للإنفاق. فكفله عمه واشترىٰ له دكانًا صغيرًا، وكان كريم دائم التردد علىٰ المساجد ليتعلم فيها[2].

---

(١) ذكر تملك الفرنساوية، (ص٤٨، وص٥٩)، مصر في القرن الثامن عشر، (٣/ ١٢٠).

(٢) محمد كُريم، كتبه: مصطفىٰ سعد محمود، وصابرين سليمان، موقع (مكتبة التاريخ).

أما النصارىٰ[1]، فقد تزايد نفوذهم في مصر بعد الاحتلال الفرنسي؛ فقد استولوا علىٰ إيراد الأوقاف الخيرية الإسلامية، واعتبروها غنيمة لهم. ورأىٰ المسلمون أن النصارىٰ قد علوا عليهم، وشمخوا بأنوفهم، وصاروا يخاطبونهم بلهجة تنم عن التهكم والازدراء والسخرية. وأصبحوا يلبسون مثل المسلمين العمامة البيضاء، ويسيرون علىٰ جانب الطريق الأيمن، وغير ذلك مما كانوا لا يفعلونه، وكان خاصًا بالمسلمين.

ولكن بونابرت رأىٰ أن هذا سيؤثر علىٰ خططه ويفسدها، فأمر بعودة النصارىٰ إلىٰ عادتهم القديمة في لبس العمائم السود والزرق، وترك لبس العمائم البيض، والشيلان الكشميري والمشجرات[2].

ونبّه الفرنسيون أيضًا بالمنادة في أول رمضان بأن نصارىٰ البلد يمشون علىٰ عادتهم مع المسلمين أولًا، ولا يتجاهرون بالأكل ولا يشربون الدخان ولا شيئًا من ذلك بمرأىٰ منهم، كل ذلك لاستجلاب خواطر المسلمين وفق خطة بونابرت[3].

وزاد حنق المصريين أكثر وأكثر، بسبب أن الفرنسيين كانوا «يُخرجون النساء والبنات المسلمات مكشوفات الوجوه في الطرقات، ثم اشتهر شرب الخمر وبيعه إلىٰ العسكر، ثم هدمت جوامع ومنارات في بركة الأزبكية لأجل توسيع الطرقات لمشي العربات، وكان المسلمون يتنفسون

---

(١) سيأتي معنا الكلام عن دورهم بشيء من التفصيل.

(٢) الأزهر جامعًا وجامعة، د. عبد العزيز الشناوي، (٢/ ٥٢).

(٣) عجائب الآثار، الجبرتي، (٢/ ٢٥٢).

الصعداء من صميم القلوب، ويستعظمون هذه الخطوب، وصاحوا: لقد آن أوان القيام علىٰ هؤلاء اللئام، فهذا وقت انتصار الإسلام»[1].

● سادسًا: المشايخ يشعلون ثورة القاهرة الأولى:

يشير بونابرت في أكثر من موضع في مذكراته، إلىٰ أن هؤلاء الناقمين علىٰ الحكم الفرنسي، كانوا يجتمعون في رحاب الجامع الأزهر، كلما صدر عن السلطات الفرنسية تصرف يسيء إليهم.

وحسبنا أن نشير هنا إلىٰ إحدىٰ المرات، فقد ذكر بونابرت أنه لما صدرت الأوامر بهدم المقابر، تقاطرت وفود سكان القاهرة إلىٰ مقر القيادة العامة للجيش الفرنسي في الأزبكية، وكان يتزعم هذه الوفود الشعبية أئمة المساجد ومؤذنوها، وهم -وفق وصف نابليون- قوم مسرفون في تعصبهم، وأنهم تكلموا أمامه بانفعال شديد، وصبوا جام غضبهم علىٰ المهندسين الفرنسيين.

وعلىٰ الرغم من أنه أصدر الأوامر بإيقاف عمليات هدم المقابر فورًا، فإن المتظاهرين خرجوا من عنده، وذهبوا إلىٰ الجامع الأزهر كي يتدارسوا الموقف[2].

يذكر نابليون في مذكراته أن الشيخ السادات كان يترأس لجنة للثورة، لتنظّم شئونها، وكانت تجتمع تلك اللجنة بالأزهر الشريف.

ويقول دي لاجونكير: كانت الدعوة إلىٰ الثورة تختلط بأذان

---

(١) ذكر تملك الفرنساوية، (ص٥٩).

(٢) الأزهر جامعًا وجامعة، د. عبد العزيز الشناوي، (٢/ ٣٧-٣٨).

المؤذنين، فيدعون إلىٰ الله وإلىٰ الثورة علىٰ المآذن، صباح مساء، فبلغ تهييج النفوس أشده، حتىٰ لتكفي حادثة واحدة لتضرم بركان الهياج[1].

ويقول بونابرت في مذكراته أيضًا: إنه من فوق أربعمائة منارة من مساجد القاهرة كانت تنطلق أصوات المؤذنين تطلب من المسلمين القيام علىٰ الفرنسيين، وكان المؤذنون يصفونهم تارة بأنهم أعداء الله، وتارة أخرىٰ بأنهم غير مؤمنين، وتارة ثالثة بأنهم كَفَرة.

واعتمد مجلس الثورة علىٰ أئمة المساجد والقُراء فيها، في إلهاب المشاعر الدينية لدىٰ الجماهير؛ فكانت خطبة الجمعة التي تلقىٰ في المساجد تدور حول ضرورة الجهاد الديني، وكذلك كانت تُختار الآيات القرآنية التي يرد فيها ذكر الجهاد، ليتلوها قراء المساجد سواء قبل صلاة الجمعة، أو يوميًا قبل أداء صلاة العصر[2].

يقول بونابرت عن مجلس الثورة: إن مجلس الثورة تولّىٰ تنظيم الثوار وتوزيع العمل الثوري عليهم، وأخرج الأسلحة من مخابئها، ولم يغادر هذا المجلس صغيرة أو كبيرة من المسائل التي تكفل نجاح الثورة، إلا ناقشها ونظمها.

وفي مساء السبت ٢٠ أكتوبر، اجتمع في الجامع الأزهر ثلاثون من أعضاء مجلس الثورة، وعدد من رسل المماليك، واستقر رأي المجتمعين علىٰ إشعال الثورة في صباح الأحد ٢١ أكتوبر، وأن يكون أول مظاهر لها

---

(١) مصر في القرن الثامن عشر، (٣/ ٥٣).

(٢) الأزهر جامعًا وجامعة، (٢/ ٧٩).

إغلاق الحوانيت، ودعوة التجار والصناع والحرفيين إلىٰ التوجه في هذا الوقت المحدد إلىٰ الجامع الأزهر؛ حيث تبدأ المسيرة الشعبية إلىٰ القيادة العامة للجيش الفرنسي بالأزبكية، بحجة التظلم من فرض النظام الضريبي الجديد، الذي صدرت به التشريعات المالية في اليوم السابق ٢٠ أكتوبر[١].

وفي الصباح الباكر من يوم الأحد ٢١ أكتوبر ١٧٩٨م، انطلق رجال الأزهر شيوخه وطلابه في شوارع منطقة الأزهر يتنادون إلىٰ الثورة، ويلهبون مشاعر الأهلين بخطبهم الحماسية، ويدعونهم إلىٰ الجهاد الديني ضد الفرنسيين، ويطلبون منهم التجمع في الجامع الأزهر.

وصعد المؤذنون إلىٰ مآذن المساجد، يدعون المسلمين إلىٰ المشاركة في حماية الدين بالقيام علىٰ الفرنسيين.

ووقفت النساء علىٰ سطوح المنازل، وعند طيقان[٢] البيوت، يطلقن بأعلىٰ أصواتهن صيحات مدوية، تعبيرًا عن مشاعر الغضب علىٰ الفرنسيين، فكانت أصواتهن تبعث في سكان القاهرة مزيدًا من الرغبة في التحرك والانضمام إلىٰ ركب الثوار[٣].

فتجمع الكثير من العامة من غير رئيس يسوسهم، ولا قائد يقودهم، وأصبحوا يوم الأحد متحزبين، وعلىٰ الجهاد عازمين، وأبرزوا ما كانوا

---

(١) الأزهر جامعًا وجامعة، (٢/ ٨١).

(٢) أي النوافذ.

(٣) الأزهر جامعًا وجامعة، (٢/ ٨٨).

أخفوه من السلاح، وآلات الحرب والكفاح، وحضر السيد بدر وصحبته عامة أبناء الحسينية، وفتوات الحارات التي خارج الحسينية، ولهم صياح عظيم وهول جسيم، ويقولون بصياح في الكلام: نصر الله دين الإسلام!

فذهبوا إلىٰ بيت قاضي العسكر، وتجمعوا وتبعهم ممن علىٰ شاكلتهم نحو الألف والأكثر، فخاف القاضي العاقبة، وأغلق أبوابه، وأوقف حُجابه، فرجموه بالحجارة والطوب، وطلب الهرب فلم يمكنه الهروب.

وكذلك اجتمع بالأزهر العالم الأكبر.

وفي ذلك الوقت حضر حاكم القاهرة الفرنسي الجينرال ديبوي وسط طائفة من عساكره، فبادر إليهم الثوار وقتلوا الكثير من عساكره، وضرب أحد الأتراك ديبوي بخشبة علىٰ خاصرته؛ فسقط عن ظهر جواده مغشيًا عليه، ثم مات بعد ذلك متأثرًا بجراحه.

ثم خرج الناس يهرعون، ومن كل حدب ينسلون، ومسكوا الأطراف الدائرة بمعظم أخطاط القاهرة[1].

كان الأزهر هو شعلة الثورة المتأججة، فأمر نابليون بضربه بالمدافع، وأن يقتحمه جنوده، وأمر بقتل أي رجل موجود في الأزهر والمناطق المحيطة، وبحرق كل بيت تُلقىٰ منه الحجارة علىٰ الفرنسيين.

يقول ريبو: لقد أوشك الأزهر أن يسقط من شدة الضرب فتُدفن تحت أنقاضه الجماهير الحاشدة فيه، وأصبح الحي المجاور للأزهر صورة من

---

(١) عجائب الآثار في التراجم والأخبار، (٢/٢١٨-٢٢٠)، ذكر تملك الفرنساوية (ص٦٠).

الخراب والتدمير، فلم يكن يُرىٰ إلا بيوت مدمرة ودور مخترقة، ومات تحت الأنقاض آلاف من السكان الآمنين، كان يُسمع لهم أنين موجع، وصيحات مرعبة[1].

لقد أدرك نابليون أنه لا مناص من استخدام أقصىٰ وسائل العنف لسحق الثورة، واستمر القتال بين الفريقين بضراوة بالغة، ولكن أخذت كفة الفرنسيين ترجح، إذ كانوا يمثلون جيشًا نظاميًا مدربًا علىٰ أحدث أساليب القتال، ومزودًا بالأسلحة والعتاد، بينما كان الثوار أخلاطًا جمعتهم وحدة العقيدة الدينية، وغلبت عليهم الشجاعة والفدائية، إلا أنهم كانت تعوزهم الأسلحة والذخائر، وكان ينقصهم التدريب والمران، لذلك تغلبت عليهم القوات الفرنسية[2].

ودخل الفرنسيون إلىٰ الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول، وبينهم المشاة كالوعول، وتفرقوا بصحنه ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته، وعاثوا بالأروقة والحارات، وكسروا القناديل والسهّارات، وهشّموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة.

ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع، والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات.

والكتب والمصاحف علىٰ الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها!

---

(١) مصر في القرن الثامن عشر، (٣/ ٥٤-٥٥).

(٢) الأزهر جامعًا وجامعة، (٢/ ٩٩).

وأحدثوا في الأزهر، وتغوطوا وبالوا وتمخطوا، وشربوا الشراب وكسروا أوانيه، وألقوها بصحن المسجد ونواحيه، وكل من صادفوه به عرّوه، ومن ثيابه أخرجوه[1].

وقام الفرنسيون بالقبض علىٰ كثير من الناس، وأوثقوهم بالحبال وقهروهم.

وكثير من الناس ذبحوهم، وفي نهر النيل ألقوهم، ومات في هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصىٰ عددها إلا الله، وطال بالكفرة بغيهم وعنادهم ونالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم[2].

وبلغ عدد الشهداء عددًا يتراوح بين ألفين وألفين وخمسمائة، وفق تقدير نابليون، وقدّرهم ريبو مؤرخ الحملة الفرنسية بأربعة آلاف، وقدرهم نقولا الترك بأكثر من أربعة آلاف.

أما قتلىٰ الفرنسيين فقدّرهم ريبو بمائتين، وقدرهم نقولا الترك بألفين.

وضمن قتلىٰ الفرنسيين قائدان من أعظم قواد نابليون، وهما:

ديبوي، حاكم القاهرة، وهو من أعظم قواد نابليون شجاعة، منحه نابليون رتبة جينرال وهو في الثانية والثلاثين من عمره. يقول عنه نقولا الترك: «الجبار العنيد، والمُعَدّ في الحرب بألف صنديد . . . صاحب العز والنصر المشيد، الذي كان يين تلك الجيوش فريدًا».

---

(١) عجائب الآثار، (٢/ ٢٢٠-٢٢١).

(٢) عجائب الآثار، (٢/ ٢٢٢).

وقد فرح الناس بمقتل ديبوي فرحًا شديدًا[1].

والثاني هو سلكوسكي، وكان مقربًا من نابليون، وعالمًا وعضوًا بالمجمع العلمي الفرنسي، وحزن نابليون لموته حزنًا شديدًا.

كما كان من قتلىٰ الفرنسيين عدد من الضباط والمهندسين والأطباء والعلماء والرسامين، فقد هاجم الثائرون في فورة غضبهم مقر العلماء المرافقين للحملة، وكسروا آلاتهم الهندسية، وأجهزتهم العلمية والفلكية، وقتلوا بعضًا منهم، وعلقوا رؤوسهم علىٰ باب الجامع الأزهر.

وقد أسرعت قوة من الجيش الفرنسي من القلعة، وأطلقت النار علىٰ الثوار المزدحمين بالباب الخارجي لذلك المقر، ثم دخل الجنود وقتلوا من وجدوه من المسلمين، وكانوا جملة كثيرة، وكان من بين القتلىٰ الشيخ محمد الزهار[2].

وكان عدد من الجنود الفرنسيين يسيرون في شوارع القاهرة، ولا يحملون أسلحة، وفوجئوا باندلاع الثورة، فنال الثوار منهم منالًا عظيمًا.

وكان بعض الفرنسيين المدنيين قد أقاموا عددًا من المطاعم والمقاهي وأماكن اللهو في أطراف القاهرة، فأصبحوا صيدًا ثمينًا للثوار، فقتلوهم، ونهبوا دورهم.

وانطلق الثوار يهاجمون دوريات الجنود في كل مكان، وتُركت جثث الفرنسيين في الشوارع، ووزع الثوار أنفسهم إلىٰ مجموعات هاجمت

(١) ذكر تملك الفرنساوية، (ص٣٥، وص٤٠، وص٦١).

(٢) أحد علماء الشافعية.

مواقع المخافر الفرنسية، وفتكوا بحراسها[1].

وهاجم قرابة سبعة آلاف ثائر من منطقة باب الفتوح مواقع مدافع الفرنسيين، بالبنادق والعصي والرماح، واستطاع فريق من الثائرين أن يصل إلىٰ مقر القيادة الفرنسية في الأزبكية، وتسلقوا مسجدًا يشرف عليها فسلطوا علىٰ جنودها نيرانهم، وقتلوا من الفرنسيين عددًا كبيرًا، ولم يستطع الفرنسيون التغلب عليهم إلا باقتحام المسجد وقتل من فيه من الثائرين[2].

وبعد أن أجهض نابليون الثورة، أعدم كثيرًا من لجنة الثورة، وكانوا ثمانين من الزعماء والمجاهدين، كما أعدم الكثيرين من غيرهم، قتلهم ووضع جثثهم في زكائب، وألقىٰ بهم في النيل.

وقد أوشك نابليون أن يأمر بقتل الشيخ السادات لما رابه من أمره أن يكون هو من يقف خلف الحراك الثوري، ولم يكن بعد قد تأكد من ذلك، لكنه خشي من عواقب قتله، ومن أثر ذلك في الناس، لما كان للشيخ السادات من حرمة ومكانة عظيمة.

وقد قال بعد ذلك نابليون في مذكراته: إن الدلائل قد قامت عنده علىٰ أن الشيخ السادات كان زعيم الثورة.

وكتب نابليون في رسالة إلىٰ الجينرال رينيه الذي كان قائد حاميته في الشرقية: إنه في كل ليلة يقطع رؤوس نحو ثلاثين من الرجال، وكثير من

---

(١) الجبرتي (٢/ ٢٢٧-٢٢٨)، ذكر تملك الفرنساوية (ص٦١)، مصر في القرن الثامن عشر (٣/ ٥٧-٥٨)، الأزهر جامعًا وجامعة (٢/ ٩٣-٩٤).

(٢) مصر في القرن الثامن عشر، (٣/ ٥٤-٥٥).

زعماء الأهالي، وأن هذا سيكون درسًا قاسيًا لهم.

وكتب الجينرال برتييه في رسالة إلىٰ الجينرال دوجا قائد حامية المنصورة، أنهم نكّلوا بالثائرين في مذبحة رهيبة.

وذكر مسيو بورين أن نساء كثيرات نُفذت فيهن أحكام الإعدام(١). وذلك لدورهن في الثورة.

واعتقل الفرنسيون عددًا من مشايخ الأزهر الذين قادوا الثورة، منهم الشيخ سليمان الجوسقي شيخ طائفة العميان، والشيخ أحمد الشرقاوي، والشيخ عبد الوهاب الشبراوي(٢)، والشيخ يوسف المصيلحي(٣)، والشيخ إسماعيل البراوي(٤)، وغيرهم.

وبعدها بأيام أخذوا العلماء المعتقلين، وعرّوهم من ثيابهم، وصعدوا بهم إلىٰ القلعة، فسجنوهم إلىٰ الصباح، ثم أخرجوهم وأجلسوهم القرفصاء علىٰ الأرض، وأطلقوا علىٰ كل شيخ من أولئك العلماء عيارًا ناريًا أرداه قتيلًا، وألقوا جثثهم من السور إلىٰ خلف القلعة. ولم يعرف أحد عن قتلهم إلا بعد فترة(٥).

ورغم رفض الشيخ السادات عضوية الديوان الذي أمر نابليون

---

(١) مصر في القرن الثامن عشر، (٣/ ٥٧-٥٨).

(٢) أحد علماء الشافعية، يصفه الجبرتي بـ«الشيخ الإمام العمدة الفقيه الصالح القانع».

(٣) الشاب الصالح والنبيه الفالح الفاضل الفقيه، كما ينعته الجبرتي.

(٤) وصفه الجبرتي بـ«الأجلّ المفوه العمدة».

(٥) عجائب الآثار (٢/ ٢٢٢-٢٢٥)، الأزهر جامعًا وجامعة، (٢/ ١١٥).

بتشكيله، ورفضه أيضًا لرئاسة لجنة برئاسته وبعضوية كل من قنصل النمسا العام وأحد قادة الجيش الفرنسي، إلا أن نابليون ظل يحترمه ويتقرب إليه لما يعلم من مكانته الشعبية.

ولم يفلح هذا التودد النابليوني في احتواء الشيخ السادات، فقد ترأس -كما مرّ- لجنة الثورة، التي أشعلت الثورة، وقد فكر نابليون -كما سبق- في إعدامه لكنه تراجع عن ذلك، لأنه أدرك كما يقول في مذكراته أن إعدامه سيجعل منه شهيدًا في نظر الشعب، وكان يظفر بالاحترام العميق، والتقدير البالغ في كافة بلاد الشرق[1].

وأصدر نابليون خلال الثورة أمرًا بهدم الأزهر تمامًا ومساواته بالأرض، لما لمسه من دوره القيادي في الحياة المصرية السياسية والدينية، وأدرك أيضًا من الثورة التضحيات التي جاد به الأزهريون في سبيل تحرير مصر من الحكم المسيحي الأوربي، وعرف أيضًا قدرة الأزهريين علىٰ تحريك الجماهير ثوريًا ودينيًا. لكنه تراجع عن قراره بعد أن هدأت هواجسه قليلًا[2].

• سابعًا: ثورة القاهرة الثانية:

مع الوقت، حاصرت الأخطار الفرنسيين في مصر من كل جانب؛ فالجيش الفرنسي يُقتل العديد من جنوده في ثورة القاهرة الأولىٰ، وحرب

---

(١) الأزهر جامعًا وجامعة، (٢/ ١٣٣).

(٢) عجائب الآثار، (٢/ ٢٢٢-٢٢٥).

العصابات التي يقوم بها المصريون وغيرهم من المسلمين المقيمين بمصر تزداد ضراوة يومًا بعد يوم.

والأسطول الإنجليزي يقطع الإمدادات عن الجيش الفرنسي، بعد تدميره لأسطوله في موقعة أبي قير البحرية، وقتله للعديد من الفرنسيين.

ولما سمع ملوك أوربا بهزيمة الفرنسيين في موقعة أبي قير البحرية.. هبوا لاستعادة البلاد التي أخذها الفرنسيون منهم بعد الثورة الفرنسية.

وفشلت حملة بونابرت علىٰ الشام -بعد أن ارتكب مذبحة في يافا وحيفا- للقضاء علىٰ الجيش العثماني بقيادة أحمد باشا الجزار، والذي كان مخولًا من الدولة العثمانية بقيادة الجيوش التي ستحرر مصر كما سبق، فأماني بونابرت قد تحطمت علىٰ صخرة عكا بفلسطين، وقد كان متكبرًا يظن أنه لا يُهزم، وأرسل رسالة إلىٰ واليها العثماني أحمد باشا الجزار قائلًا:

«إنني الآن أمام قلاع عكا، ولن يكسبني قتل شخص هرم مثلك شيئًا؛ لذا فأنا لا أرغب في الدخول معكم في معركة، كن صديقًا وسلِّم هذه المدينة دون إراقة الدماء».

فردَّ عليه الوالي العثماني قائلًا: «نحمد الله تعالىٰ لكوننا قادرين علىٰ حمل السلاح، وقادرين علىٰ الدفاع، إنني أنوي أن أقضي الأيام القليلة الباقية من عمري في الجهاد ضد الكفار!».

وعندما تسلم نابليون هذا الجواب الذي قطع أمله في الدخول إلىٰ المدينة ظافرًا دون قتال، التفت إلىٰ ضباطه وقال لهم:

«لقد أصبح من الواضح الآن أن هذا الشيخ الهرم سيكون سببًا في ضياع بضعة أيام منا، ولكن لا بأس، لا تقلقوا، سنكون بعد يومين في وسط هذه المدينة، سنلقنهم درسًا لن ينسوه».

وبدأت المدافع تقصف أسوار عكا بالليل والنهار بلا انقطاع، وهُدمت بعض أجزاء من سور المدينة، واندفع الفرنسيون يريدون الدخول من هذه الفجوات، ولكنهم قوبلوا بحراب وسيوف ورصاص الحامية العثمانية، والتحموا معهم بقيادة أحمد باشا الجزار.

وأسفر الهجوم عن تراجع الفرنسيين بعد أن تكبّدوا خسائر فادحة كادت تأكل نصف الجنود، وبعد أربعة وستين يومًا من الحصار والقتال الدامي قرر نابليون الانسحاب، وكانت هذه هي المعركة البرية الوحيدة التي خسرها نابليون حتىٰ ذلك اليوم.

وجاءت حملة عثمانية عظيمة إلىٰ الإسكندرية، في ١٥ يوليو ١٧٩٩م، وابتهج لقدومها المصريون، وهاجم العثمانيون بشدة وضراوة الفرنسيين المدافعين عن قرية أبي قير، وقتلوا من الفرنسيين الكثير، وكان منهم القومندان جودار، واستولوا علىٰ أبي قير وتحصنوا بها بعد فرار باقي الفرنسيين، ثم أتت قوات كبيرة من الجيش الفرنسي، وقامت المعركة مع العثمانيين، وكانت كفة العثمانيين هي الراجحة في البداية، وقُتل الجينرال تركو، وثلاثمائة جندي فرنسي، وجُرح الجينرال ميراد جُرحًا بليغًا بفكّه فاغتاظ لأجله بونابرت جدًّا، وبعد قتال شديد كانت الغلبة للفرنسيين[١].

(١) كان الفرنسيون عندما يقع في أسرهم بعض القادة العثمانيين الكبار أو أبنائهم، =

«وحين تواردت الأخبار إلىٰ القاهرة بما جرىٰ علىٰ العساكر العثمانية، نزل علىٰ مسلمي مصر البليّة، وخابت منهم تلك الأمَليّة، وحزنوا حزنًا عظيمًا؛ إذ كان في أملهم أن يملك المسلمون تلك الأقاليم»[1].

وعندما عاد بونابرت إلىٰ مصر منتصرًا حضر لديه كثير من الحكام والعلماء والأعيان وأرباب الديوان، وهنوه بقدومه وانتصاره، فنظر إليهم بعين فراسته واعتباره، وقد وجدهم في حزن عظيم، وخاطبهم بخطاب يدل علىٰ مدىٰ توتره وظنه بانكشاف أمره، ومما قال لهم:

يا للعجب منكم أيها العلماء والسادات، إنني أراكم تغتمون وتحزنون من انتصاري، حتىٰ الآن ما عرفتم مقداري؟! وقد خاطبتكم مرارًا عديدة، وأخبرتكم بأنني مسلم موحد، وأعظّم النبي محمدًا وأودُّ المسلمين، وأنتم إلىٰ الآن غير مصدقين! وقد ظننتم أن خطابي هذا إليكم خشية منكم، مع أنكم شاهدتم بأعينكم وسمعتم بأذنكم قوة بطشي واقتداري، وتحققتم من فتوحاتي وانتصاري، لقد بغضت النصارىٰ ولاشيت ديانتهم، وهدمت

= كانوا يكرمونهم ولا يقتلونهم، ولعل ذلك يدل علىٰ خوفهم من تهيج المصريين إن علموا بمقتلهم، وخشيتهم من تأليب الدولة العثمانية أكثر عليهم، وعندما جُرح أحد قادة العثمانيين واسمه الزرناجي باشا، أخذه الفرنسيون وداووه لكنه مات متأثرا بجراحه، فأقاموا له مأتمًا عظيمًا واحتفالًا فخيمًا، وأحضروا العلماء والأعيان وقواد العساكر وأرباب الديوان، ودفنوه بأكبر الجوامع وأفخر المواضع. يُنظر ذكر تملك الفرنساوية (ص١٠٠).

(١) ذكر تملك الفرنساوية (ص٩٤).

معابدهم، وقتلت كهنتهم، وكسرت صلبانهم ورفضت إيمانهم، ومع ذلك يفرحون لفرحي ويحزنون لحزني؛ فهل تريدين أن أرجع نصرانيًا ثانيًا؟[1].

وكان هناك رجلًا مغربيًا يقال له الشيخ الكيلاني، كان مجاورًا بمكة والمدينة والطائف، فلما وردت أخبار الفرنسيس إلىٰ الحجاز وأنهم ملكوا الديار المصرية . . انزعج أهل الحجاز وضجّوا بالحرم وجرّدوا الكعبة، وصار هذا الشيخ يعظ الناس ويدعوهم إلىٰ الجهاد، ويحرضهم علىٰ نصرة الحق والدين، وقرأ بالحرم كتابًا مؤلفًا في معنىٰ ذلك؛ فاتعظ جملة من الناس، وبذلوا أموالهم وأنفسهم، واجتمع نحو الستمائة من المجاهدين وركبوا البحر إلىٰ القصير (مدينة مصرية علىٰ البحر الأحمر) مع ما انضم إليهم من أهل ينبع، وغيرهم، ثم انضم إليهم جملة من أهل الصعيد، وبعض الأتراك، والمغاربة، وحاربوا الفرنسيس.

ورحل نابليون سرًا إلىٰ فرنسا، وشاعت الأخبار بعد ذلك برحيله، ففرح أهل مصر وحزن الفرنسيون.

وجاءت حملة عسكرية عثمانية أخرىٰ إلىٰ شاطئ دمياط، مكونة من خمسين مركبًا وثلاثة آلاف جندي، ثم خرجوا إلىٰ البر ليلًا وبنوا المتاريس واستعدوا للقتال، وجاءت إليهم قوات فرنسية واشتبكت معهم وانتصروا عليهم.

وخرج الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا في أغسطس عام ١٧٩٩م من

---

(١) ذكر تملك الفرنساوية، (ص٩٤).

إسطنبول علىٰ رأس جيش عثماني ضخم لاستخلاص مصر من أيدي الفرنسيين، يقول المعلم نقولا: «وفي آخر شهر ربيع الأول سنة ١٢١٤ [أول سبتمبر ١٧٩٩م] قدم الوزير الأعظم والدستور الأفخم إلىٰ أراضي الشام بالعز والإنعام، بالعساكر والجيوش الغزيرة، وارتجت لقدومه الأقطار، وخشي سطوته الكبار والصغار، وكان وزيرًا عادلًا، عاقلًا فاضلًا، وعن أمور الشريعة مناضلًا، يبغض الظلم والعدوان، ويحب العدل والأمان»(١).

فلما وصل الصدر الأعظم بجيشه الكبير إلىٰ غزة في طريقه إلىٰ مصر، أدرك الجينرال كَلِيبِر -خليفة نابليون في مصر- صعوبة التغلب علىٰ هذه الأوضاع الصعبة والمخاطر المحدقة، ورأىٰ بعد مشاورة الجينرالات أن من المصلحة مغادرة الحملة لمصر، فقرر التفاوض مع الصدر الأعظم، فأرسل كليبر إليه بالصلح والاتفاق، ورفع الشر والنفاق.

واتفق الطرفان علىٰ خروج الجيش الفرنسي بطريقة تحفظ ماء وجهه وتبقي علىٰ شرفه العسكري، وذلك بأن يكون الجلاء علىٰ نفقة الجيش العثماني، وتضمّن الاتفاق طريقة تنظيم جلاء الفرنسيين عن مصر، والمراحل والأزمنة لتحقيق هذا الجلاء، وغير ذلك، وكان هذا الاتفاق في العريش؛ لذا عُرف تاريخيًّا باتفاقية العريش أو معاهدة العريش. ثم تُممت هذه المعاهدة بأخرىٰ عُقدت في الصالحية.

وشاع خبر المعاهدة وقرب رحيل الفرنسيين في سائر الأقاليم

---

(١) ذكر تملك الفرنساوية، (ص١٠١).

المصرية، وصار فرح عظيم عند أهل الملة الإسلامية، باستنقاذ مصر من يد الفرنساوية، ورجوعها إلىٰ الدولة العثمانية، وصار في إسطنبول عاصمة الدولة العثمانية فرح عظيم، وأمر السلطان العثماني سليم بزينة عظيمة، وضُربت المدافع الكثيرة، وبدأت تتجهز المراكب والسفن بالبضائع لتُرسل كهدايا إلىٰ مصر، كذلك قد شاع الخبر في سائر الأقطار الإسلامية، وكان فرحًا عظيمًا وسرورًا جسيمًا[1].

وبدأ كليبر بجمع كتائب جيشه من الأقاليم وإرسالها إلىٰ رشيد والإسكندرية تمهيدًا لرحيلها، وكلما أخلىٰ الفرنسيون مكانًا.. دخله العثمانيون وحلوا محل القوات الفرنسية المنسحبة.

«وترادفت العساكر العثمانية والجيوش السلطانية، وامتدوا إلىٰ مدينة بلبيس وإلىٰ العادلية، وبقوا مسافة ثلاث ساعات عن القاهرة، بالجيوش الوافرة والعساكر المتكاثرة، واجتمعت علىٰ جيش الصدر الأعظم العربان وسكان تلك البلدان، وزاد عدد العساكر عن مائة ألف، وخرج أعيان مصر والعلماء والحكام والتجار والعوام لمقابلة الصدر الأعظم، واندهش السمع والبصر من رؤية ذلك العسكر والجيش المفتخر، وكادت القلوب أن تذوب من الفرح والسرور، من تغيير تلك الأمور، وخلاص بلاد المسلمين من يد الكافرين»[2].

وأصبح جلاء الفرنسيين قاب قوسين أو أدنىٰ، غير أن كليبر فوجئ

---

(١) ذكر تملك الفرنساوية، (ص١١٤-١١٥).

(٢) ذكر تملك الفرنساوية، (١١٥).

برسالة من الإنجليز برفض المعاهدة، وأنه لم يعد أمام الفرنسيين سوىٰ التسليم بلا قيد أو شرط كأسرىٰ حرب، ولا سبيل لعودتهم إلىٰ فرنسا علىٰ هذا النحو الذي تم الاتفاق عليه مع الدولة العثمانية.

فأرسل كليبر إلىٰ الصدر الأعظم بما ورده من الإنجليز، وطلب منه الرجوع إلىٰ العريش، فرد عليه الصدر الأعظم بأن الإنجليز لن يستطيعوا أن يفعلوا بكم شيئًا ما دمتم متفقين مع الدولة العلية، فرد كليبر بأنه لابد من قرار إنجليزي رسمي بالموافقة علىٰ المعاهدة وعدم رفضها لأن ذلك قد يكون فيه مهلكة للجيش الفرنسي، وطلب منه كليبر أن يرجع علىٰ الأقل إلىٰ بلبيس إلىٰ حين تصحيح الموقف الإنجليزي.

وهنالك وقع الصدر الأعظم في حيرة شديدة، فماذا يفعل بهذا الجيش العظيم الذي أصبح علىٰ قرابة ثلاث ساعات من القاهرة، والذي يطالبه جنوده بدخول القاهرة وسط صيحات التكبير والحماسة المفرطة، فأرسل إليه كليبر بالجينرال بودو مع ترجمانه الخاص، ولما وصلا إلىٰ الصدر الأعظم غضب عليهما ولعنهما وشتمهما، وأمر بالقبض علىٰ الجينرال بودو، وقال للترجمان: اذهب إلىٰ مولاك الكافر وقل له إن لم يرحل غدًا سأقاتله بهذا الجيش بلا رحمة لأي كافر من الكفار. فلما وصل الترجمان إلىٰ كليبر اشتد غيظه واستعد للحرب وأمر من رحل من جيشه بالرجوع.

قرر كليبر أن يبطش بالعثمانيين الذين كانوا لا يتوقعون هذه المفاجأة رغم المناوشات الكلامية التي حدثت، فبين الفريقين معاهدة واتفاق، تلك المفاجأة أفقدت العثمانيين القدرة علىٰ التوازن وصد الهجوم الذي وقع

خلال الليل، فكانت الغلبة للفرنسيين، ونجح الصدر الأعظم في الهروب.

وقد نجح كثير من قادة الجيش العثماني في الدخول إلىٰ أحياء القاهرة، التي كانت الجموع الثائرة بدورها محتشدة فيها، وقاموا بتحريض هذه الجموع للثورة علىٰ الفرنسيين، وقاموا بتوزيع منشورات علىٰ المصريين تحرض علىٰ قتال الفرنسيين «الكفار أعداء الدين الإسلامي، الذين لا يراعون عهدًا ولا ذمة». وأرسل نصيف باشا برسالة إلىٰ الصدر الأعظم بأنهم قد دخلوا القاهرة وتملكوها، ولم يكن فيها كثير من الفرنسيين، وانتهز المصريون فرصة وجود الجيش العثماني وتعاظم الأمل لديهم في إمكانية الخلاص من الفرنسيين، واستبشروا بالعز والنصر، فقاموا بالثورة الثانية.

اندلعت الثورة الثانية بالقاهرة في ٢٤ شوال ١٢١٤ الموافق ٢٠ مارس ١٨٠٠م، فقد تجمع العلماء ووجهاء البلد «وحرَّضوا الناس علىٰ جهاد الكفار»، وقام الثوار بالانقضاض علىٰ منازل النصارىٰ المتعاونين مع الفرنسيين وفتكوا بهم، ووضعوا المتاريس علىٰ الأطراف، وقتلوا من صادفوا من الفرنسين، «ولم يزل المصريون مصرين علىٰ غرورهم المتين في محاربة الفرنسيين».

وخرجت الجموع وبأيدي الكثير منهم النبابيت والعصىٰ، والقليل معهم السلاح، واحتشد جمع آخر وصاروا يطوفون بالأزقّة والحارات وهم يرددون الهتافات المعادية للفرنسين.

وأحضر الثوار ثلاثة مدافع كان العثمانيون قد جاءوا بها إلىٰ المطرية، وجلبوا عدة مدافع أخرىٰ وجدت مدفونة في بيوت الأمراء، وأحضروا من

حوانيت العطارين الحديد والأحجار التي يزنون بها البضائع، كي يستخدموها كقنابل للمدافع، وقصفوا بها مقر القيادة الفرنسية بالأزبكية.

وأنشأوا مصنعًا للبارود، واتخذوا بيت القاضي وما جاوره من أماكن مقرًا لصناعة وإصلاح المدافع والقذائف، وعمل العجل والعربات والجلل، وأقاموا معسكرًا للأسرىٰ بالجمالية، وبثوا العيون والأرصاد للتجسس علىٰ المحتلين واستكشاف خططهم ونواياهم، ولم يتوانوا عن أخذ كل مَن تعاون مع الفرنسين من الخونة بالشدة والعنف.

وفي بولاق قام التاجر مصطفىٰ البشتيلي ومن معه بتهييج العامة، وانقضوا بعصيهم وأسلحتهم ورماحهم علىٰ معسكر الفرنسين وقتلوا حراسه، وأخذوا جميع ما فيه من خيام ومتاع وغيره، وأقاموا متاريس حول البلد، واستعدوا للحرب والجهاد، وكانت بولاق هي مهد الثورة الثانية.

وتكفل السيد أحمد المحروقي شاه بندر التجار وباقي التجار ومساتير الناس بالنفقات، وأتىٰ أهل الأرياف القريبة بالاحتياجات من السمن والجبن واللبن والغلة والغنم.

وأمر كليبر بتشديد الحصار ومنع المؤن عن المجاهدين، وتعاون معه مراد بك وخان الثورة والثوار. ورغم التفوق الفرنسي في العدد والسلاح، إلا أن الثورة ظلت مشتعلة وقائمة مدة شهر تقريبًا. واستولىٰ الثوار علىٰ جميع الوكالات والمخازن التي علىٰ النيل، وتحولت إلىٰ شبه قلاع احتلها الثوار، وصارت الملاحة في النيل تحت رحمتهم.

وفي ١٤ أبريل ١٨٠٠م هدد كليبر الثوار وأمرهم بالتسليم، ولكن

الثوار لم يعبأوا بتهديده، وفي اليوم التالي بدأ الفرنسيون الهجوم علىٰ حي بولاق، وأخذوا يضربونه بالمدافع، وأضرموا النار في البيوت والمحلات؛ فأبيدت عائلات كثيرة تحت الأنقاض، أو في لهب النار، وامتد ضرب المدفعية إلىٰ باقي أحياء القاهرة، وحدث دمار شديد.

وقام القبطي يعقوب حنا زعيم المليشيا النصرانية المتعاونة مع الاحتلال الفرنسي، باستباحة حي بولاق والأزبكية، فاقتحمهما بجنده الأقباط، وفعلوا من الجرائم ما تقشعر له الأبدان، وهدموا الدور والمساكن علىٰ مَن فيها، وقتلوا الآلاف من أهل القاهرة، واستباحوا نساءهم وأموالهم.

فاضطر بعض قادة الثورة من العلماء أن يطلبوا هدنة، في ظل هذه الوحشية الفرنسية/القبطية، وعدم تكافؤ القوة، ومحاصرة الفرنسيين لأحياء القاهرة، وقلة الأقوات، في حين توارد المؤن والإمدادات علىٰ الفرنسيين من مراد بك، فاشترط الفرنسيون خروج الجنود العثمانيين من القاهرة، وإلقاء السلاح، وكف القتال، وشروطًا أخرىٰ.

فلما عادوا بهذه الشروط للثوار رفضوها، واتهموهم بالردة وضربوا بعضهم، وقام أحد المغاربة بإثارة الناس مرة أخرىٰ، وعندما أرسل كليبر رسولًا للاستفهام عن موافقة الناس علىٰ المصالحة، قامت العامَّة بقتله.

لقد تمكن الفرنسيون من القضاء علىٰ الثورة في النهاية بمزيد من القوة المفرطة بالمدفعية والأسلحة الثقيلة، ثم قام كليبر بفرض غرامات باهظة علىٰ علماء ومشايخ الأزهر وسائر سكان القاهرة باستثناء النصارىٰ[1].

---

(١) للمزيد ينظر: الجبرتي (٢/ ٢٥١-٢٥٢) و(٢/ ٣٢٢ وما بعدها)، ومصر في =

وقد أحضر كليبر بعض مشايخ الأزهر بعد أن أخمد الثورة الثانية، ودار بينهم الحديث التالي باختصار:

كليبر: لما حضرنا إلىٰ بلدكم هذه، نظرنا أن أهل العلم هم أعقل الناس، والناس بهم يقتدون، ولأمرهم يمتثلون... واخترناكم لتدبير الأمور وصلاح الجمهور ... فلما حضر العثمانيون فرحتم لقدومهم، وقمتم لنصرتهم، وثبت عند ذلك نفاقكم لنا.

المشايخ: نحن قمنا مع العثمانيين لأنكم عرفتمونا أننا صرنا في حكم العثمانيين من ثاني شهر رمضان، وأن البلاد والأموال صارت له، خصوصًا وهو سلطاننا القديم وسلطان المسلمين، وما شعرنا إلا بحدوث هذا الحادث بينكم وبينهم علىٰ حين غفلة.

كليبر: ولأي شيء لم تمنعوا الرعية عما فعلوه، من قيامهم ومحاربتهم لنا؟

المشايخ: لا يمكننا ذلك، وقد تقووا علينا بغيرنا، وسمعتم ما فعلوه معنا عندما أشرنا عليهم بالصلح وترك القتال.

كليبر: وإذا كان الأمر كما ذكرتم، ولا يخرج من يدكم تسكين الفتنة ولا غير ذلك؛ فما فائدة رياستكم، وما هو نفعكم إلا الضرر؟ لأنكم إذا

= القرن الثامن عشر (٢/١٣٨)، وذكر تملك الفرنساوية (ص: ٤٩، ٨٩، ٩٣- ١٣١)، ومقالات: (معركة أبي قير البرية، وثورة القاهرة الثانية، وأحداث معركة عين شمس، لمصطفىٰ سعد محمود، وصابرين سليمان، موقع مكتبة التاريخ). و(الحملة الفرنسية، موقع تاريخ مصر). و(أحمد باشا الجزار، موقع المعرفة). و(ثورة القاهرة الثانية ومذبحة بولاق، موقع قصة الإسلام).

حضر خصومنا قمتم معهم وكنتم وإياهم علينا، وإذا ذهبوا رجعتم إلينا معتذرين! فكان جزاؤكم أن نفعل معكم كما فعلنا مع أهل بولاق، من قتلكم عن آخركم، وحرق بلدكم، وسبي حريمكم وأولادكم، ولكن حيث إننا أعطيناكم الأمان فلا ننقض أماننا ولا نقتلكم وإنما نأخذ منكم الأموال[1].

وكان بالطبع أمان كليبر ما هو إلا كذبة من كذباته؛ فقد نال علماء الأزهر أكبر نصيب من العقوبة لدورهم في الثورة الثانية، فتم حبس الشيخ الصاوي، وفتوح الجوهري، وحرقوا بيت الشيخ العناني بعد أن هرب منهم، وأضافوا غرامته علىٰ غرامة الشيخ السادات، وبذلك وصلت الغرامة التي علىٰ الشيخ السادات إلىٰ مائة وخمسين ألف ريال فرانسة، وهو مبلغ عظيم حينها.

ووضع الفرنسيون عشرة عساكر حول منزل الشيخ السادات لمراقبته، ثم قبضوا عليه بعد ذلك وصعدوا به إلىٰ القلعة وحبسوه في مخزن، وكان ينام علىٰ التراب ويتوسّد الحجر، ثم قاموا بضربه وتعذيبه.

وطلب منهم الشيخ السادات أن يتركوه ليذهب إلىٰ داره، حتىٰ يجمع ما في بيته ليدفع لهم الغرامة، فأحضر ما وجده من الدراهم فكانت ستة آلاف ريال فرانسة، ثم قوّموا ما وجدوه من المصاغ والفضيات والفراوي والملابس وغير ذلك بأبخس الثمن، فبلغ ذلك خمسة عشر ألف فرنسا.

والمحافظون عليه من العسكر ملازمونه ولا يتركونه يطلع إلىٰ حريمه

(١) عجائب الآثار، الجبرتي، (٢/٣٤٥-٣٤٦).

ولا إلىٰ غيره، وكان قد وزع حريمه وابنه إلىٰ مكان آخر، وبعد أن فرغ الفرنسيون من الموجودات جاسوا خلال الدار يفتشون ويحفرون الأرض باحثين عن الخبايا، حتىٰ فتحوا الكنيفات فلم يجدوا شيئًا.

ثم أخذوه مرة أخرىٰ، ولم يمكّنوه من الركوب وسار معهم ماشيًا، وصاروا يضربونه خمسة عشر مرة بالعصا في الصباح، ومثلها في الليل، وطلبوا زوجته وابنه فلم يجدوهما، فأحضروا محمد السندوبي تابعه، وعذبوه حتىٰ عاين الموت حتىٰ عرّفهم بمكانهما.

فأحضر الفرنسيون زوجة الشيخ السادات وابنه، وقاموا بسجن ابنه في مكان وحده، وسجنوا زوجة الشيخ السادات معه، فكانوا يضربونه بحضرتها زيادة في إهانة الشيخ، وهي تبكي وتصيح.

وأما الشيخ محمد الجوهري فإنه اختفىٰ فلم يجدوه، فنهبوا داره ودار نسيبه[1].

وقد تم اعتقال الشيخ السادات عدة مرات بعد ذلك، وقد ذكر بونابرت في مذكراته أن ضرب الشيخ محمد السادات بالعصا أثار السخط العام بين علماء الأزهر، وامتد هذا السخط إلىٰ سائر قطاعات الشعب المصري، وما لبث أن احتدمت غضبًا بلاد الشرق أجمعها.

ومات ابن الشيخ السادات وأبوه مسجون، فأنزلوه بحراسة من العساكر حتىٰ شيّع الجنازة، ثم أعادوه مرة أخرىٰ إلىٰ السجن[2].

---

(١) الجبرتي، (٢/ ٣٤٦-٣٤٨).

(٢) الأزهر جامعًا وجامعة، (٢/ ١٤٧).

- **ثامنًا: الشيخ سليمان الحلبي يقتل كليبر:**

عندما بلغ الشاب سليمان العشرين من عمره، أرسله أبوه عام ١٧٩٧م برًّا إلىٰ القاهرة ليتلقىٰ العلوم الإسلامية في الأزهر، فاستقر في رواق الشوام المخصص للسكن الداخلي لطلبة الأزهر من أبناء بلاد الشام، حيث التعلم والمبيت مع أقرانه الشوام، وقد توطدت صلته بالشيخ أحمد الشرقاوي، أحد أساتذته الشيوخ في الأزهر، حتىٰ أنه كان يبيت أحيانًا في منزل هذا الشيخ الذي رفض الاستسلام للغزو الفرنسي، مساهمًا في إشعال فتيل ثورة القاهرة الأولىٰ، وكان سليمان الحلبي بجانب أستاذه الشيخ الشرقاوي عند اقتحام جيش نابليون أرض الجيزة، ثم أرض القاهرة. وقد قتل الشيخ الشرقاوي فيما بعد علىٰ يد كليبر[(١)].

وبعد أيام من المذابح التي ارتكبها الفرنسيون عقب ثورة القاهرة الثانية، وبالتحديد في يوم السبت ٢١ محرم ١٢١٥ الموافق: ١٤ يونيو ١٨٠٠م، كان الجينرال كليبر قائد الحملة الفرنسية يسير مع رئيس المعمار وكبير المهندسين الفرنسيين داخل البستان الذي بداره بالأزبكية، فدخل عليه سليمان الحلبي (٢٤عامًا) وهو يرتدي ملابس قديمة ومرقعة كأنه شحاذ، ومدّ يده ليأخذ الصدقة، فأشار إليه كليبر بالرجوع، وقال له باللهجة المصرية: «مافيش»، وكررها كليبر، فلم يرجع سليمان، فأوهمه أن له حاجة وهو مضطر في قضائها وأخرج من يده ورقة.

فلما دنا سليمان من كليبر مدّ إليه يده اليسار كأنه يريد تقبيل يده، فمدّ

---

(١) مقال: سليمان الحلبي، مصطفىٰ سعد وصابرين سليمان، موقع: مكتبة التاريخ.

إليه كليبر يده، فقبض عليها سليمان وضربه بخنجر كان أعدّه في يده اليمنىٰ أربع ضربات متوالية.

وسقط كليبر إلىٰ الأرض صارخًا، فصاح رفيقه المهندس وضرب الحلبي علىٰ رأسه بعصا مما أدىٰ إلىٰ جرحه، فقام سليمان الحلبي بضربه بالسكين، فجرحه جرحًا بليغًا جعله بين الحياة والموت، ثم قام سليمان بالهرب.

سمع العسكر الذين خارج الباب الصرخات، فدخلوا مسرعين، فوجدوا كليبر مطروحًا وبه بعض الرمق، ولم يجدوا القاتل فانزعجوا، وضربوا طبلهم وخرجوا مسرعين وجروا من كل ناحية يفتشون علىٰ القاتل.

واجتمع رؤساؤهم وأرسلوا العساكر إلىٰ الحصون والقلاع، وظنوا أنها من فعل أهل مصر، فاحتاطوا بالبلد، وعمّروا المدافع، وجهزوا القنابل، وقالوا: لا بد من قتل أهل مصر عن آخرهم!

ووقعت هوجة عظيمة في الناس وشدة انزعاج، وأكثرهم لا يدري حقيقة الحال، ولم يزالوا يفتشون علىٰ ذلك القاتل حتىٰ وجدوه منزويًا في البستان المجاور لبيت كليبر!

فقبضوا عليه فوجدوه شاميًا، وسألوه عن اسمه وعمره وبلده فوجدوه حلبيًا، واسمه سليمان، فسألوه عن محل مأواه فأخبرهم أنه يأوي ويبيت بالجامع الأزهر، فسألوه عن معارفه ورفقائه، وهل أخبر أحدًا بفعله، وهل شاركه أحد في رأيه وأقره علىٰ فعله أو نهاه عن ذلك، وكم له بمصر من الأيام أو الشهور، وعن صنعته وملته، وعذّبوه العذاب الشنيع حتىٰ أخبرهم بحقيقة الحال، فعند ذلك علموا ببراءة أهل مصر من ذلك، وتركوا ما كانوا

عزموا عليه من محاربة أهل البلد.

وتم الفحص الطبي لكليبر وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، فوجدوه مطعونًا أربع طعنات، في وجهه، وفي صدره، وفي ذراعه الأيسر، وفي بطنه.

وعندما شاع خبر مقتل كليبر «صار حزن لا يوصف عند سائر الجيوش الفرنساوية، وبكوا بكاء مريرًا، وعضوا البنان تحسرًا وقهرًا»[1].

ومن التحقيقات التي أجراها الفرنسيون تبيّن أن سليمان الحلبي مرسَل من قِبل العثمانيين لقتل كليبر، وتم اختياره لأنه مكث في مصر ثلاث سنوات قبل ذلك لطلب العلم بالأزهر ويعرفها جيدًا، وأن العثمانيين قد دفعوا له تكاليف السفر.

وتم القبض علىٰ ثلاثة مشايخ تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة والعشرين، والثلاثين، وهم الشيخ عبد الله الغزي، والشيخ محمد الغزي، والشيخ أحمد الوالي الغزي، وكانوا مشايخ بالأزهر الشريف يدرسون القرآن الكريم، وكان قد أخبرهم سليمان الحلبي بأنه حضر من غزة لأجل أن «يغازي في سبيل الله بقتل الكفرة الفرنساوية»، وكان قد استأنس بهم بحكم أنهم شاميّون مثله، فاعتبرهم الفرنسيون شركاء لسليمان في قتل كليبر بعد تعذيبهم؛ لأنهم لم يبلغوهم عن نية سليمان، ولم يمنعوه عن ذلك.

وكان الشيخ عبد القادر الغزي من ضمن المراد القبض عليهم، لكنه نجح في الهرب.

---

(١) ذكر تملك الفرنساوية، (ص١٣٨).

كما تم القبض علىٰ أحد كبار أساتذة سليمان الحلبي، وهو مصطفىٰ أفندي (٨١ عامًا)، لكنهم أفرجوا عنه بعد ذلك لعدم علمه بنية سليمان.

كان سليمان الحلبي من طلبة العلم الشرعي وخاصة القرآن الكريم، وكان قد أدىٰ فريضة الحج رغم صغر سنه (٢٤ عامًا)، وشدّ الرحال للصلاة في المسجد الأقصىٰ، وكان يعتقد أن ما فعله هو جهاد في سبيل الله.

ومكث سليمان الحلبي بعد قدومه إلىٰ مصر بالجامع الأزهر شهرًا يتعبد لله تعالىٰ ويدعوه، ويحضّر لقتل كليبر، ويتتبعه، ويعرف خط سيره، ويجمع المعلومات.

وقد كان سليمان أثناء التحقيقات معه مادحًا لنفسه علىٰ ما فعله، وكان مرتاحًا لما يقوله من أجوبة التحقيقات، وكان ينظر بعين رفيعة ورفاهية.

وحكمت المحكمة الفرنسية علىٰ سليمان الحلبي والمشايخ الثلاثة بالتعذيب ثم الإعدام بطرق مختلفة. وحكموا غيابيًا علىٰ الشيخ الهارب عبد القادر الغزي، وقالوا إن كل أملاكه حلال للفرنسيين.

وجاء يوم الإعدام، واحتشد الناس، وقام الفرنسيون بقطع رأس الشيخ عبد الله الغزي، ورأس الشيخ محمد الغزي، ورأس الشيخ أحمد الوالي الغزي، وأمروا بأن توضع رؤوسهم علىٰ نبابيت ليطاف بها في الشوارع، ورفعوهم علىٰ مزاريق (جمع مزراق وهو الرمح القصير)، وكان كل ذلك أمام عين سليمان الحلبي.

وبعد ما فعلوا ذلك بالمشايخ المذكورين أمام سليمان الحلبي لتعذيبه نفسيًا، قاموا بتعذيب الحلبي ماديًا بحرق يده اليمنىٰ بالنار وهو حي، ثم قاموا بوضع الخازوق في فتحة شرجه ليخرج من فمه أو كتفه الأيمن، ووضعوا الثلاثة مزاريق حوله وعليها جثث المشايخ الآخرين، ثم أوقدوا نارًا شديدة وأحرقوا بها أجساد أولئك الثلاثة، ثم تركوا الحلبي علىٰ الخازوق يعاني من الآلام حتىٰ مات، وأمروا بترك جثته علىٰ الخازوق حتىٰ تأكلها الطيور[1].

يقول لوتسكي: «وقد قابل سليمان الموت ببسالة، إذ وضع يده بجرأة في النار الملتهبة، ولم ينبس ببنت شفة حينما كانت تحترق، كما كان باسلًا طيلة الساعات الأربع والنصف التي قضىٰ من بعدها نحبه وهو مخوزق».

وقال هنري لورنس: «وتصرف الحلبي بشجاعة مرددًا الشهادتين وآيات من القرآن»[2].

وقد يقول قائل إن سليمان الحلبي لم يكن مصريًا، ولكننا نجيب بأن وجدان الناس في ذلك الوقت لم يكن وجدانًا وطنيًا، بل دينيًا، ولم يكونوا يعرفون حدود الوطن، بل كانوا يعرفون إحساس الإيمان والعقيدة[3].

وكان قتل كليبر من أكبر أسباب رحيل الاحتلال الفرنسي عن مصر

---

(١) الجبرتي، (٢/ ٣٥٨-٣٨٩)، ذكر تملك الفرنساوية، (١٣٧-١٤٠).

(٢) مقال: سليمان الحلبي، مصطفىٰ سعد وصابرين سليمان، موقع: مكتبة التاريخ.

(٣) مصر في القرن الثامن عشر، محمود الشرقاوي، (٢/ ٩٨).

بعد ذلك بشهور، فقد كان قائدًا عظيمًا كما يصّوره المعلم نقولا الترك، فقد وصفه بأنه بطل قهار، ذو هيبة وصولة، وبأنه مقدام وأسد ضرغام، وأن له صورة ترعش الأكباد وترعب الآسادا!(١).

وقد فرح الصدر الأعظم بقتل كليبر فرحًا شديدًا ما عليه من مزيد(٢).

وفي هذه الحادثة يتجلىٰ دور الأزهر، وتظهر روح الجهاد الديني، وكذلك الشعور بأن المسلمين كالجسد الواحد، دون أن تفرقهم الأوطان بالمعنىٰ المتعصب القومي.

• تاسعًا: ابتهاج المصريين بقدوم العثمانيين:

خلف الجينرال مينو الجينرال كليبر بعد مقتله، وادعىٰ أنه مسلم وسمىٰ نفسه عبد الله، وتزوج من مسلمة، وأمر بإغلاق الجامع الأزهر، وادعىٰ أنه ليس مكانًا للدرس والتعليم، بل هو محل لعقد المشورة وإيقاظ الفتن، فأمر بطرد المجاورين بالأزهر، وقفل أبوابه أجمعين(٣).

وما هي إلا عدة أشهر حتىٰ أتىٰ الجيش العثماني إلىٰ مصر مرة أخرىٰ لإخراج الفرنسيين، بالتحالف مع إنجلترا التي كانت تريد كما سبق إضعاف فرنسا وإخراجها من مصر لتأمين طريقها إلىٰ مستعمراتها بالهند.

فجاء جيش عثماني عن طريق الشرق، بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا، ونزلت القوات الإنجليزية شاطئ أبي قير في مارس عام

---

(١) ذكر تملك الفرنساوية، (ص٩٩، ص١٣٦).

(٢) ذكر تملك الفرنساوية، (ص١٤٥).

(٣) ذكر تملك جمهور الفرنساوية (ص١٤١).

١٨٠١م، وجاء أسطول عثماني بقيادة حسن قبطان، وغير ذلك من القوات والإمدادات، ووقعت معارك انتهت بهزيمة الفرنسيين وطلبهم الأمان، وغادر الفرنسيون مصر تدريجيًا، حتىٰ خرجوا في شهر صفر ١٢١٦، الموافق: يوليو ١٨٠١م[١].

وقد كان الاتفاق الجديد أيضًا بين الدولة العثمانية والفرنسيين، علىٰ أن يخرج الفرنسيون علىٰ نفقة الدولة العثمانية والإنجليز، فكان السيد أحمد المحروقي -كبير التجار- هو المتعهد بجمع نفقات ترحيل الفرنسيين في مصر، وتمكّن من جمع النفقات في أيام قليلة لفرح الناس برحيل الفرنسيين، فكان كل مَن توجه عليه مقدار من ذلك اجتهد في تحصيله، وأخرجه عن طيب قلب، وانشراح خاطر، وبادر بالدفع من غير تأخير؛ ويقول:

«سنه مباركة ويوم سعيد بذهاب الكلاب الكفرة».

كل ذلك بمشاهدة الفرنسيس ومسمعهم، وهم يحقدون ذلك عليهم[٢].

ثم جاء يوم انسحاب الفرنسيين من القلاع والحصون والمتاريس، وسمع الناس بقدوم الجنود العثمانيين، فصاروا يتلقونهم ويسلمون عليهم، ويباركون لقدومهم، والنساء يلقلقن بألسنتهن من الطيقان وفي الأسواق، وقام للناس جَلَبة وصياح، وتجمع الصغار والأطفال كعادتهم، ورفعوا

(١) ذكر تملك الفرنساوية (١٤٧-١٤٨، ص١٥٢).

(٢) عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٢/ ٣١٨).

أصواتهم بقولهم: نصر الله السلطان! ونحو ذلك[1].

ثم أذيع على الناس نبأ حضور الصدر الأعظم، رئيس الوزراء في الدولة العثمانية، يوسف باشا ضيا، فاجتمع الناس من جميع الطوائف وسائر الأجناس، وهرع الناس ليشاهدوه، وخرجت البنت من خدرها، واستأجر البعض البيوت المطلة على الشارع الذي سيمرّ فيه الصدر الأعظم بأغلى الأثمان، وجلس الناس على السقائف والحوانيت صفوفًا.

وحضر الموكب في صورة مهيبة، وأمامه تشكيلات عسكرية متنوعة، وأمراء، وولاة، وقضاة، وعلماء ومشايخ، وارتدى الصدر الأعظم تاجًا مرصعًا بالماس والأحجار الكريمة.

وكان خلفه شخصان عن اليمين والشمال، ينثرون على المتفرجين من النساء والرجال دراهم الفضة البيضاء المسكوكة في إسطنبول.

وخلفه أيضًا العدة الوافرة من أكابر أتباعه والعساكر، وموكب الخازندار، والمدافع التي ضربت القنابل ابتهاجًا.

يقول الجبرتي:

«فكان ذلك اليوم يومًا مشهودًا، وموسمًا وبهجة وعيدًا، عمّت المسلمين فيه المسرات، ونزلت في قلوب الكافرين الحسرات، ودقّت البشائر، وقُرّت النواظر، وأمروا بوقود المنارات، سبع ليال متواليات، فلله الحمد والمنة على هذه النعمة، ونرجو من فضله أن يصلح فساد القلوب، ويوفق أولي الأمر للخير والعدل المطلوب، ويلهمهم سلوك

---

(١) عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٢/ ٤٧٧).

سواء السبيل القويم، ويهديهم إلىٰ الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين»[1].

وأمر الصدر الأعظم العثماني العساكر باحترام الرعية، وتأمينهم، ورفع الظلم والعدوان عنهم.

وعرض بعض الناس علىٰ الصدر الأعظم أن يقتلوا النصارىٰ لدور كثير منهم في مساندة الفرنسيين، فلم يرضَ الصدر الأعظم بذلك، وقال عفا الله عما سلف، «وكان يوسفًا ثانيًا بالأمانة إلىٰ مصر الكنانة، وابتهجت مصر بزمانه من شيمه وعزيز أمانه، وكثر البيع والشرا، وعمرت المدن والقرىٰ، وربح التجار، وتواردوا من سائر الأقطار»[2].

وابتهج المسلمون ورُفعت أعلام السلطنة العثمانية، وحمدوا رب الأنام، وقالوا: «الحمد لله علىٰ تأييد الدين، وهذا نصر من الله وفتح مبين»[3].

• عاشرًا: إسلامية لا قومية!

يحاول فريق من العلمانيين والقوميين أن يضفوا علىٰ هذا الجهاد الإسلامي ضد الفرنسيين الطابع القومي، أو الطابع الوطني، ومن هنا جاءت تسميتهم لما حدث بـ«الثورة» أو «الكفاح الوطني أو القومي»، ولم يشيروا من قريب أو بعيد إلىٰ دور الجهاد الإسلامي للدفاع عن بلد مسلم

---

(١) عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٢/ ٤٨٠-٤٨١).

(٢) ذكر تملك الفرنساوية، (ص١٦٢-١٦٣).

(٣) ذكر تملك الفرنساوية، (ص١٦٦).

تابع لدولة الخلافة بعقيدة إسلامية صرفة؛ وإنما سميناها ثورة القاهرة الأولىٰ والثانية لشهرتها بذلك.

وينسىٰ هؤلاء أن المجتمع المصري في القرن الثامن عشر كان مجتمعًا دينيًّا، تغلب علىٰ أفراده ثقافة دينية، وتسيطر عليه آراء دينية، وتوجهه دوافع دينية، ويتحسسون الأسانيد في عبارات ينتحلونها من تاريخ الغرب في القرنين التاسع عشر والعشرين، ولا يقيمون وزنًا للفروق الصارخة بين المجتمع الإسلامي في مصر في القرن الثامن عشر والمجتمعات الأوربية آن ذاك.

كانت الهتافات التي رددها الثوار هتافات دينية بحتة، لا تمت بأي صلة إلىٰ الشعارات أو المفاهيم القومية والوطنية، ويعطي الجبرتي صورة نابضة بالحياة عن بداية ثورة القاهرة الأولىٰ مثلًا، فيذكر الجهاد والهتافات الإسلامية المحضة؛ فيقول: وأصبحوا يوم الأحد متحزبين، وعلىٰ الجهاد عازمين، وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح . . . ولهم صياح عظيم وهول جسيم، ويقولون بصياح في الكلام: نصر الله دين الإسلام»[1].

وهناك معاصر آخر لأحداث الثورة وهو المعلم نقولا ترك، يقول في مذكراته عن بداية الثورة الأولىٰ: وأرسلوا (أي المجتمعون في الأزهر) أحد الفقهاء في شوارع مصر، ينبه المسلمين بالمبادرة إلىٰ الجامع الأزهر حيث اجتمع العسكر، وبدأ ذلك الشيخ المذكور يدور وينادي بالجمهور:

---

(١) عجائب الآثار، (٢/ ٢١٨).

كل من كان موحدًا يأتي لجامع الأزهر؛ لأن اليوم المغازاة بالكفار، ونزيل عنا هذا العار، ونأخذ منهم الثار، فبادر المسلمون وأُقفلت الحوانيت والوكائل لما سمع صوت القائل[1].

فهي إذن دعوة لكل «موحد»، إلىٰ القيام بـ«غزوة»، ضد المحتلين «الكفار»، تنطلق من أهم مسجد في مصر وهو الجامع الأزهر.

إن الثورات التي خاضها أهل القاهرة المسلمون كانت جهادًا دينيًا، استهدفت الانتصار لدين الإسلام، ولم يُطلق فيها الثوار الهتافات التي عرفتها مصر بعد ذلك، بداية من القرن العشرين بوجه خاص.

ولم يهتف الثوار بحياة الشيخ السادات زعيم ثورة القاهرة الأولىٰ مثلًا، أو عمر مكرم أو سليمان الحلبي، أو باسم أي زعيم آخر؛ لأن القضية ليست شخصية أو متعلقة بشخص أو حزب ما، ولأن أي زعيم مصري مهما بلغت مكانته ومهابته ونفوذه في نفوس الجماهير، كان يتضاءل مركزه إذا قورن بسلطان الدولة العثمانية، علىٰ أساس أنه سلطان المسلمين وخليفتهم.

ولدينا دليل مادي علىٰ أن العاطفة الدينية كانت تسيطر علىٰ تصرفات المصريين في ذلك الوقت، وأنها ازدادت بروزًا ووضوحًا في توجيه الأحداث في مصر منذ أن دخل الفرنسيون البلاد.

كان عدد من المماليك قد وقعوا أسرىٰ في أيدي الفرنسيين في أثناء

---

(١) ذكر تملك الفرنساوية (ص٥٩). وقد قتل الفرنسيون هذا الفقيه بعد ذلك كما يقول نقولا الترك في (ص٦١).

المعارك التي خاضوها ببسالة ضد الفرنسيين، ولكن سرعان ما تناسىٰ الشعب المصري المظالم التي انهالت عليه إبّان حكم المماليك الجائر، وبخاصة في عهد الحكم الثنائي الذي تولاه إبراهيم بك ومراد بك.

فما إن انتصر الفرنسيون بسلاح مدفعيتهم الرهيب علىٰ فرسان المماليك وأذلوهم، حتىٰ أصبح هؤلاء المماليك موضع الشفقة والرثاء من المصريين، وتبخرت الكراهية التي كان يشعر بها الشعب نحوهم، ونظر لهم علىٰ أنهم إخوة له في العقيدة الدينية.

وتجلىٰ هذا الشعور في نفوس مختلف طبقات الشعب من كبار المشايخ علماء الأزهر إلىٰ رجل الشارع الفقير، وتدخل علماء الأزهر أعضاء الديوان لدىٰ بونابرت كي يطلق سراح أسرىٰ المماليك، ونجحت الوساطة ولاذ المماليك بالجامع الأزهر؛ حيث لقوا عطف الفقراء قبل الأثرياء. وكانت الوشيجة الدينية هي العامل الأول في هذا التعاطف.

يقول الجبرتي: تشفع أرباب الديوان في أسرىٰ المماليك فقبلوا شفاعتهم وأطلقوهم، فدخل الكثير منهم إلىٰ الجامع الأزهر وهم في أسوأ حال، وعليهم الثياب الزرق المقطعة؛ فمكثوا به يأكلون من صدقات الفقراء المجاورين له ويتكففون المارين، وفي ذلك عبرة للمعتبرين[(١)].

إن المصريين كانوا علىٰ عهد الحملة الفرنسية متعلقون بحكم المماليك رغم المظالم التي وقع فيها بعضهم، والذين لم يكونوا يقلّون في الأجنبية عن الفرنسيين، سوىٰ أن المماليك كانوا مسلمين وإن كان

---

(١) عجائب الآثار، (٢/ ١٩٦).

إسلامهم ضعيفًا، وهؤلاء غير مسلمين[1].

إضافة إلىٰ ولاء المصريين للدولة العثمانية، والذي ينسف التحليل القومي لتاريخ الحملة الفرنسية نسفًا، وهو ما اتضح جليًّا فيما سبق.

وقد وقع حادث قبيل اندلاع ثورة القاهرة الأولىٰ يدل علىٰ مدىٰ تعلق الشعب المصري بالعثمانيين، وأنه كان ينظر إليهم علىٰ أنهم حماة الإسلام المدافعون عن دياره؛ كان أحد العسكريين العثمانيين معتقلًا في الإسكندرية ثم أطلق الفرنسيون سراحه، وجاء إلىٰ القاهرة وذهب إلىٰ منطقة الأزهر، ولم تكد تقع أعين الجماهير عليه حتىٰ تزاحموا علىٰ رؤيته وفرحوا برؤيته؛ وكأن دهورًا طويلة قد مضت دون أن يروا الجنود العثمانيين أو عساكر سلطان المسلمين[2].

فكانت إذن طبيعة المجتمع وجميع أشكال مقاومة الفرنسيين هي إسلامية بحتة، لا تشوبها أي شائبة قومية أو وطنية.

ومما يؤكد ذلك ويزيده بيانًا، مشاركة الشوام والمغاربة الموجودين بمصر في الجهاد ضد الفرنسيين كما مر معنا، وكذلك حركة الشيخ الكيلاني التي سبق ذكرها أيضًا مع ما انضم إليه من مسلمي الجزيرة العربية وغيرهم من الموجودين بالبيت الحرام، وكذلك العملية البطولية التي قام بها الشيخ الشامي سليمان الحلبي تقبله الله في الشهداء.

---

(١) فتح مصر الحديث، أحمد حافظ عوض، (ص٢٠١).

(٢) عجائب الآثار (٢/ ٢٠٦)، الأزهر جامعًا وجامعة، (٢/ ١٢٥-١٣٠).

• **حادي عشر: خيانة الأقباط وموالاتهم للفرنسيين:**

كان الأقباط يحظون بمعاملة جيدة في مصر، وبعضهم قد بلغ المناصب العليا في البلاد، واشتهر أمره وذاع صيته؛ كالمعلم إبراهيم الجوهري رئيس الكتبة الأقباط، الذي أدرك من العظمة ونفاذ الكلمة وعظم الصيت والشهرة ما لم يسبق لمثله من أبناء جنسه(١).

وخلفه في هذا المنصب الكبير أخوه جرجس الجوهري، وكان «بيده حل الأمور وربطها في جميع الأقاليم المصرية، نافذ الكلمة وافر الحرمة»(٢).

وعمرت الكنائس وديور النصارىٰ، وأُوقف عليها الأوقاف الجلية والأطيان، ورُتب لها المرتبات العظيمة والأرزاق الدارّة والغلال(٣).

وكان الحكام المسلمون يرسلون لكبار النصارىٰ ليحضروا المناسبات الكبيرة(٤).

وبلغت المعاملة الحسنة من المسلمين للنصارىٰ مبلغًا جعل أحد كبرائهم يخالف أحد كبار النصارىٰ عندما رفض النظام الإسلامي في قسمة المواريث، وقال: «نحن والقبط يقسم لنا مواريثنا المسلمون»(٥).

---

(١) الجبرتي (٢/ ١٧٢).
(٢) الجبرتي (٣/ ٣١٧).
(٣) الجبرتي (٢/ ١٧٣).
(٤) الجبرتي (٢/ ٣١٧).
(٥) الجبرتي (٢/ ٢١٧).

وسبق أن ذكرنا أن المصريين عندما سمعوا باحتلال الفرنسيين للأسكندرية، هاج أكثر العلماء والأعيان، وقالوا: لابد أن نقتل بالسيف جميع النصارىٰ قبل أن نخرج إلىٰ حرب الكفار!

فقال الوزير العثماني وشيخ البلد إبراهيم بك: غير ممكن أن نسلم بهذا الرأي؛ لأن هؤلاء رعية مولانا السلطان، صاحب النصر والشان.

ولكن غالب الأقباط والذين كانوا بمصر من أتباع الطوائف المسيحية الأخرىٰ لم يحفظوا هذا الجميل للمسلمين؛ بل قابلوه بالجحود والمعاملة بالضد؛ فقد كان قدوم الاحتلال الفرنسي كاشفًا لحقيقتهم، «واغتنموا الفرصة في المسلمين، وأظهروا ما هو بقلوبهم كمين، وضربوا فيهم المضارب، وكأنهم شاركوا الإفرنج في النوائب»[1].

و«تطاولت النصارىٰ من القبط والنصارىٰ الشوام علىٰ المسلمين بالسب والضرب، ونالوا منهم أغراضهم، وأظهروا حقدهم، ولم يبقوا للصلح مكانًا، «وصرّحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين!»[2].

لقد فرح النصارىٰ بمقدم الفرنسيين، وتعاونوا معهم بصفتهم إخوانهم في الدين، وترفّعوا علىٰ المسلمين، وركبوا الخيول، وتقلدوا بالسيوف بسبب خدمتهم للفرنسيين، ومشيوا بخيلاء وتجاهروا بفاحش القول، واستذلوا المسلمين[3].

---

(١) الجبرتي (٢/ ٢٢١).

(٢) الجبرتي (٢/ ٣٥٠).

(٣) الجبرتي (٢/ ٢٥٠).

وأمر الفرنسيون بجمع البغال ومنعوا عامة المسلمين من ركوبها، في حين سمحوا للنصارىٰ بالركوب[1].

وكان الجنود الفرنسيون يتحصنون أحيانًا داخل بيوت الأقباط المجاورين لهم[2].

ولما أحاط الجيش الفرنسي بالمدينة وبولاق من الخارج، ومنعوا الداخل من الدخول والخارج من الخروج، كان بعض القبطة ونصارىٰ الشوام وغيرهم يهربون إليهم ويتسلقون من الأسوار والحيطان بحريمهم وأولادهم[3].

وطلب الفرنسيون عسكرًا من القبط، فجمعوا منهم طائفة وزيّوهم بزيهم، وقيّدوا بهم مَن يعلمهم كيفية الحرب ويدربهم علىٰ ذلك، وأرسلوا إلىٰ الصعيد فجمعوا من شبانهم نحو الألفين، وأحضروهم إلىٰ مصر، وأضافوهم إلىٰ القوات الفرنسية[4].

وجعل الفرنسيون المعلم يعقوب القبطي قائدًا عسكريًّا لميليشيات الأقباط، وقد قام يعقوب الخائن بجمع شبان القبط، وحلق لحاهم، وزياهم بزي مشابه لعسكر الفرنساوية، مميزين عنهم بقبعة يلبسونها علىٰ رؤوسهم، مشابهة لشكل (البرنيطة)، وعليها قطعة فروة سوداء من جلد الغنم في غاية البشاعة، مع ما يضاف إليها من قبح صورهم وسواد

---

(١) الجبرتي (٢/ ٣٤٩).

(٢) الجبرتي (٢/ ٣٢٨).

(٣) الجبرتي (٢/ ٣٣٠).

(٤) الجبرتي (٢/ ٣٥٧).

أجسامهم وزفارة أبدانهم، وجمعهم من أقصىٰ الصعيد، وهدم الأماكن المجاورة لحارة النصارىٰ التي هو ساكن بها خلف الجامع الأحمر، وبنىٰ له قلعة، وسوّرها بسور عظيم وأبراج وباب كبير، ووضع علىٰ الأسوار المدافع، وعلىٰ الأبواب الحرس المزودين بالبنادق[1].

ووكّل الفرنسيون السفاح يعقوب أيضًا بالفردة العامة وجميع الأموال[2].

وسبق أن ذكرنا أنه ساعد الفرنسيين وقتل كثيرًا من المسلمين بمليشياته القبطية خلال ثورة القاهرة الثانية.

وعندما غادر الفرنسيون مصر، رحل معهم هذا الخائن، ومعه كثير من الأقباط الذين خافوا علىٰ أنفسهم انتقام المسلمين بعد أن عادت مصر إلىٰ أحضان الدولة العثمانية.

ومات يعقوب ودُفن في مارسيليا بفرنسا، وقبره معروف هناك حتىٰ اليوم.

ومن عجائب ما يذكره بعض المؤرخين العلمانيين والقوميين أن يعقوب القبطي هو أبو الوطنية المصرية في العصر الحديث! وأنه صاحب أول مشروع لاستقلال مصر! وأنه كان يفعل ما يفعله مع الفرنسيين كي يفيد من خبرة الفرنسيين العسكرية وحضارتهم؛ ليحصل علىٰ استقلال مصر عن الدولة العثمانية ويقودها نحو التمدن!

---

(١) الجبرتي (٢/ ٤٣٧).

(٢) الجبرتي (٢/٣٤٩).

وهناك شارع بمصر باسم يعقوب القبطي بحي مصر القديمة!

ومثل هذا الخائن كان أيضًا «برطلمين»، وكانت العامة تسميه «فرط الرمان»[1].

وكان يساعد الفرنسيين في البحث عمن يحملون السلاح من المسلمين، ويتعسف في جمع الضرائب ويظلم الناس[2].

وحدث أن جمع بعض الفقهاء الأطفال، ومشوا بهم فرقًا وطوائف، وهم يجهرون ويقولون كلامًا مقفىٰ بأعلىٰ أصواتهم، بلعن النصارىٰ وأعوانهم رؤسائهم، ويقولون: الله ينصر السلطان ويهلك فرط الرمان[3].

ومن هذه الخيانات من جانب النصارىٰ نعلم لماذا والفرنسيون في طريقهم إلىٰ القاهرة قام فريق من الناس -كما ذكرنا سابقًا- بالقبض علىٰ بعض التجار الإفرنج الموجودين بمصر، وتفتيش محلاتهم، وكذلك بيوت النصارىٰ الشوام، والأقباط، والأروام، والكنائس، والأديرة، بحثًا عن الأسلحة، فقد كان المسلمون يشعرون بخيانتهم.

ونعلم أيضًا لماذا قال الشيخ حسن طوبار وهو ذاهب ليقاتل الفرنسيين كما مر معنا: اليوم يوم المغازاة من هؤلاء الكفار ومن يتبعهم من النصارىٰ! اليوم ننصر الدين ونقتل هؤلاء الملاعين!

لقد أدىٰ تعاون النصارىٰ الفج مع الفرنسيين واستعلاؤهم علىٰ

---

(١) الجبرتي (٢/ ١٩٥).

(٢) الجبرتي (٢/ ٢٢١-٢٢٣).

(٣) الجبرتي، (٢/ ٣١٨).

المسلمين إلىٰ قيام بعض الحوادث، قامت فيها جماعات من عامة المسلمين بقتل مَن يصادفونه مِن نصارىٰ القبط والشوام وغيرهم، فذهبت مثلًا طائفة من المسلمين إلىٰ حارات النصارىٰ وبيوتهم التي بناحية بين الصورين وباب الشعرية وجهة الموسكي، فصاروا يقتحمون ديارهم، ويقتلون مَن يصادفونه من الرجال والنساء والصبيان، وينهبون، ويأسرون![1].

ولا شك أنه كان هناك نصارىٰ لم يخونوا المسلمين ويتعاونوا مع الفرنسيين، ولكننا سلطنا الضوء علىٰ الخونة منهم لأن المؤرخين العلمانيين لا يذكرون دورهم الخبيث الذي لن ينساه لهم التاريخ، وإن ذكروا شيئًا من ذلك ذكروه علىٰ استحياء وفي مواضع قليلة، بل نادرة.

وسبق معنا أن بعض المسلمين قد عرض علىٰ الصدر الأعظم عندما استرد مصر أن يقتل النصارىٰ لخيانتهم، فلم يرضَ الصدر الأعظم بذلك، وقال عفا الله عما سلف.

---

(١) الجبرتي، (٢/ ٣١٨).

الفصل الثالث

حقيقة أسطورة محمد علي!

• تمهيد

إن الاحتلال الفرنسي قد شكّل مرحلة تحول خطيرة في تاريخ مصر الحديث، يقول الجبرتي عن السنة التي أتىٰ فيها الاحتلال الفرنسي:

«وهي أول سني الملاحم العظيمة، والحوادث الجسيمة، والوقائع النازلة، والنوازل الهائلة، وتضاعُف الشرور، وترادُف الأمور، وتوالي المحن، واختلال الزمن، وانعكاس المطبوع، وانقلاب الموضوع، وتتابع الأهوال، واختلاف الأحوال، وفساد التدبير، وحصول التدمير، وعموم الخراب، وتواتر الأسباب، وما كان ربك مهلك القرىٰ بظلم وأهلها مصلحون»[1].

إن كل ما حدث في مصر من الحوادث والمشاكل، خلفها وضع

(١) عجائب الآثار، (٢/ ١٧٩).

فرنسا قدمها في مصر؛ فإنه من ذلك الحين أوجست إنجلترا خيفة من تعاظم نفوذ أية دولة أوروبية في وادي النيل، أو تقوية أي سلطة محلية، مما قد يكون عائقًا في تنفيذ سياستها القاضية بأن يكون طريقها إلىٰ الهند في يدها، فكان لها القدح المعلىٰ في كل هاتيك الحوادث والمشاكل، إلىٰ أن استقر قدمها في مصر، عقب الثورة العرابية[1].

فما إن رحل الاحتلال الفرنسي حتىٰ سادت الفوضىٰ السياسية في مصر، وزادت التحديات أمام الدولة العثمانية؛ فاستمر المماليك في تنزاعهم علىٰ السلطة من ناحية، وتنازعهم مع الوالي العثماني من ناحية أخرىٰ، وتفاقم الضعف العثماني؛ إذ كانت الدولة العثمانية في مرحلة الانحدار؛ فم تفلح محاولاتها لاستقرار الحكم في مصر، ومكث الإنجليز في مصر بعد رحيل الفرنسيين، إلىٰ أن رحلوا في مارس عام ١٨٠٣م، وقد وقف الإنجليز حجر عثرة أمام العثمانيين ومحاولاتهم القضاء علىٰ المماليك المتحالفين معهم.

وظهر علىٰ الساحة السياسية متغير جديد وقوي تمثل في شخصية محمد علي، الذي استطاع بدهاء أن يحكم مصر ثلاثة وأربعين عامًا، فضلًا عن حكم أولاده من بعده حتىٰ عام ١٩٥٢م، وكان بذلك محمد علي أول من يحكم مصر هذه الفترة الكبيرة منذ الفتح العثماني؛ فقد كانت العادة غالبًا ألا يمكث الوالي العثماني في حكم مصر أكثر من ثلاثة أعوام، حتىٰ لا يطمع فيها.

---

(١) فتح مصر الحديث، (ص٩٣).

وقد ركّز المؤرخون لهذه الفترة من القوميين والعلمانيين علىٰ محاسن محمد علي فقط، وبالغوا في الثناء عليه، ووسموه بأنه مؤسس مصر الحديثة! ووقعوا بهذا في التناقض الجسيم؛ فمحمد علي غير مصري أصلًا، فمع الفرض بأن ما ينسبونه إليه صحيح فهذا ينسف فكرة القومية والوطنية بمعناها المتعصب لديهم! إذ إن مؤسس مصر الحديثة رجل غير مصري أساسًا!

إن هؤلاء المؤرخين والكتاب قد تغافلوا عما فعله محمد علي بمصر في عهده، وعن أعماله السيئة التي بقيت آثارها إلىٰ وقتنا هذا، ولا شك أنه قام ببعض الإصلاحات، ولكن ينبغي وضعها في سياقها الكامل، كي نتوصل إلىٰ الحكم الصحيح علىٰ هذه الشخصية، وعلىٰ تلك الحقبة.

• أولًا: محمد علي قبل مجيئه مصر

وُلد محمد علي عام ١٧٦٩م في مدينة قَوَلة في مقدونيا بشمال اليونان لأسرة ألبانية، وقد مات والداه وهو صغير السن، ولم تكن له نشأة دينية تُذكر، لأن والده أهمل تعليمه ولم يهذب ميوله[١]، وقد صرّح هو بنفسه أن قراره لا ينبع من عاطفة دينية؛ فقال وهو يفاوض الفرنسيين حول الجزائر: «ثقوا أن قراري لا ينبع من عاطفة دينية، فأنتم تعرفونني وتعلمون أني متحرر من هذه الاعتبارات التي يتقيد بها قومي»[٢].

ولم يتعلم محمد علي القراءة والكتابة إلا بعد أن تولىٰ حكم مصر

(١) محمد علي سيرته وأعماله وآثاره، إلياس الأيوبي، (ص٩).

(٢) قراءة جديدة في التاريخ العثماني، د. زكريا سليمان بيومي، (ص١٧٠).

بتسع سنوات، وكان سنه وقتئذ خمسة وأربعين عامًا، وذلك عام ١٨١٤م[١].

وتعرّف محمد علي وهو صغير إلىٰ أحد التجار الفرنسيين يدعىٰ (مسيو ليون) فأحبه كثيرًا، فكان لحب هذا الفرنساوي الأبوي أثر عميق في قلب محمد علي، جعله منذ ذلك الحين ميالًا إلىٰ الفرنساويين أكثر منه إلىٰ كل جنسية غربية أخرىٰ[٢]، وربما كان لهذا شيء من التأثير أيضًا في ميوله نحو فرنسا سياسيًا بعد ذلك.

ولما بلغ أشده التحق بالجهادية، وعمل بالاتجار في الدخان إلىٰ عام ١٨٠١م.

وقُبيل إحدىٰ الحملات العسكرية العثمانية التي جاءت لإخراج الفرنسيين من مصر، استدعىٰ إسماعيل أغا محمد علي وكلفه بالانضمام إلىٰ ولده علي أغا، والسير معه لإخراج الكفار من مصر[٣]، فكان محمد علي وكيلًا لذلك القائد.

وقد رفض محمد علي في البداية أن يذهب للجهاد في مصر، وقارن بين هناء المعيشة الذي يُطلب إليه تركه، والمشقات والأخطار التي يضطره القبول أن يتعرض لها، فعز عليه هناؤه فرفض بتاتًا، فخرج من لدىٰ حاكم قولة وهو مصمم التصميم كله علىٰ نبذ الطاعة وعدم مفارقة وطنه، وقال

(١) مصر في القرن التاسع عشر، صالح جودت، (ص١٣).
(٢) محمد علي سيرته وأعماله وآثاره، إلياس الأيوبي، (ص١١-١٢)
(٣) محمد علي سيرته وأعماله وآثاره، (ص١٨).

لأحد معبّري الرؤىٰ الذي كان قد فسّر له رؤيا بأنه سيحكم وادي النيل: «إنهم يريدون إرسالي إلىٰ مصر لمقاتلة الكفار». فقال له: «وبما أجبت؟»، فقال محمد علي: «بالرفض طبعًا، فالوطن خير وأبقىٰ، والمرء يجد فيه إخوانًا ورفاقًا يصافحهم ويصافحونه، والحياة تنقضي فيه هنيئة». فلم يزل به هذا الشخص حتىٰ أقنعه بأن هذا طريق العُلا، فوافق محمد علي[1].

وبعد ما جاءت هذه الفرقة إلىٰ مصر، اضطر قائدها علي أغا إلىٰ المغادرة، فخلفه محمد علي في قيادة الفرقة ورُقي إلىٰ رتبة بكباشي.

بقي محمد علي في مصر بعد رحيل الفرنسيين وفطن إلىٰ أغراضهم فعوّل علىٰ تحقيقها وتكوين دولة كبرىٰ مستقلة[2]، وبالطبع يكون هو الحاكم فيها.

• ثانيًا: الطريق إلى حكم مصر

عمل محمد علي منذ بداية وجوده في مصر علىٰ التقرب إلىٰ أصحاب السلطة، وأدرك أن التقدم السريع لا يُدرك إلا بالتقرب من الرؤوساء، فأخذ يبحث عن سند ينفعه لدىٰ ذوي الأمر، فوجده في شخص يقال له حسن أغا، أحد ضباط القبطان الباشا الأخصّاء، فتوسط له حسن أغا

---

(١) محمد علي سيرته وأعماله وآثاره، (ص١٩). وينقل صالح جودت في كتابه «مصر في القرن التاسع عشر، ص١١» عن بعض أتباع محمد علي أنه كان يقول: «ألهمت أني سأوتىٰ ملك مصر لما جئت إليها؛ فصارت كل أعمالي محركة بهذا العامل، رامية إلىٰ هذا الغرض، حتىٰ حقق الله آمالي».

(٢) تاريخ مصر الحديث من محمد علي إلىٰ اليوم، د. محمد صبري، (ص٣١).

فألحقه القبطان باشا بخدمة خسرو باشا، وأفهم خسرو باشا أن محمد علي رجل يُعتبر اكتسابه مغنمًا، فقرّبه خسرو منه، وأعطاه بعض الهدايا، ورقّاه إلىٰ رتبة عسكرية تضاهي رتبة اللواء الآن[1].

وكانت الدولة العثمانية قد عينت محمد خسرو باشا واليًا علىٰ مصر بعد خروج الفرنسيين، غير أن بعض المماليك أثاروا الاضطرابات، فطلب خسرو من يوسف بك ومحمد علي التوجه للقضاء علىٰ هذه الاضطرابات، إلا أن محمد علي كان قد بدأ التفكير في التخلص من القوىٰ السياسية الموجودة ليتهيأ له كرسي الحكم، فماطل محمد علي في الذهاب، مما أدىٰ إلىٰ هزيمة يوسف بك هزيمة كبيرة وقُتل الكثير من الجنود بسبب اعتماد يوسف بك في خطته علىٰ وجود قوات محمد علي[2].

وقد غضب خسرو باشا من محمد علي غضبًا شديدًا ولكنه رأىٰ أن يؤجل محاسبته إلىٰ ما بعد القضاء علىٰ المماليك، فطلب منه ومن طاهر باشا الذهاب للقضاء علىٰ محاولات المماليك الانفصال بالصعيد.

ولكن محمد علي رأىٰ أنه قد حان الوقت للتخلص من الوالي العثماني خسرو باشا، فحرّك عليه في الخفاء الجنود، فطالبوا بدفع رواتبهم المتأخرة قبل التوجه لمحاربة المماليك، فلما عجز خسرو عن دفع الرواتب تمرّد الجنود وهاجموا القلعة بمساعدة طاهر باشا، حتىٰ اضطر خسرو إلىٰ الفرار إلىٰ دمياط.

---

(١) محمد علي سيرته وأعماله وآثاره، إلياس الأيوبي، (ص٢٠-٢١).

(٢) محمد علي سيرته وأعماله وآثاره، (ص٢٣).

وبذلك الحادث صار معلومًا أن هناك محركًا غير منظور يدير من وراء الستار حركات الجنود والطامعين بالولاية بحذاقة لاعب الشطرنج، وكان ذلك المحرك محمد علي، لكنه رغمًا من طموحه الشديد إلىٰ منصب الولاية لم يتعجل الأمر؛ بل اتبع خطة تضمن له الوصول إلىٰ الولاية بعد أن تقضي علىٰ سائر المرشحين لها والطامعين فيها.

خلف طاهر باشا خسرو باشا إلىٰ حين صدور الأوامر العثمانية، ولكنه لم يستمر طويلًا؛ فقد استعمل محمد علي جنود الإنكشارية من وراء ستار لإزاحة طاهر من سبيله، فلم يكونوا قد ثاروا بعد مثل الألبانيين للمطالبة بمرتباتهم، فماطل طاهر باشا في دفع المرتبات وقال لهم إنه غير مسئول عن المرتبات إلا من يوم توليه، فأدىٰ ذلك إلىٰ مقتله علىٰ يد الإنكشارية، مما أدىٰ إلىٰ نشوب قتال سالت فيه الكثير من الدماء بينهم وبين الألبانيين الذين غضبوا لمقتل قائدهم.

وتم تعيين أحمد باشا واليًا خلفًا لطاهر باشا، ولكن محمد علي تحالف مع المماليك لإقصاء أحمد باشا عن الحكم، حتىٰ أنه لم يمض إلا يومًا واحدًا في الحكم، واحتل الألبانيون القاهرة.

ولم يبقَ في مصر من الذين يخشىٰ محمد علي وصولهم للحكم سوىٰ خسرو باشا، فهاجم محمد علي وعثمان بك البرديسي وجنودهما دمياط، وأحضرا الوالي العثماني خسرو باشا إلىٰ القاهرة.

وصلت الدولة العثمانية الأخبار فوجهت علي باشا الجزائري واليًا، ولكن سرعان ما تم القضاء عليه أيضًا بواسطة المماليك المتحالفين مع

محمد علي، كل هذا ومحمد علي بعيد وراء الستار حتىٰ لا تنقص شعبيته بعد قتله للوالي العثماني.

وفي أوائل سنة ١٨٠٤م عاد صديق إنجلترا المملوكي محمد بك الألفي من إنجلترا، حاملًا الكثير من التحف والأموال ليتمكن بها من حكم مصر، فاستشار عثمان بك البرديسي محمد علي، فأشار عليه محمد علي بوجوب القضاء علىٰ الألفي قبل أن يتمكن من القضاء عليك بمساعدة الإنجليز، وكان محمد علي يخشىٰ التحالف بينهما بمساعدة إنجلترا، مما يؤدي إلىٰ تمكنهما من الحكم وإقصائه هو، فتعاهد البرديسي مع محمد علي علىٰ العمل سويًا لتنفيذ ما صمما عليه.

وسار الألفي وسط موكبه في النيل، فاعترضه في منوف رجال محمد علي وعثمان بك، ونهبوا الأموال والتحف التي جاء بها، أما الألفي فبادر إلىٰ النزول إلىٰ البر ونجا بنفسه.

وهكذا نجح محمد علي في تنحية الولاة العثمانيين، والقضاء علىٰ قوة كبيرة من المماليك ممثلة في الألفي، ويأتي الدور علىٰ حليفه عثمان بك البرديسي!

لقد عمل محمد علي علىٰ توسيع شعبيته، فكان إذا تأخر دفع مرتبات الجند، أو فرضت الضرائب علىٰ الأهالي واستثقلوا وطأتها.. يشارك الجند والشعب في التوجع لما أصابهم، ويظهر الاهتمام بتحصيل حقوقهم وتخفيف كروبهم، فأصبح صديق الجند والشعب.

وقد كان يفعل هذا لأنه علىٰ أساس شعبيته لدىٰ الجند والشعب يتوقف تثبيت قدمه في حكم البلاد بعد ذلك.

واتفق أن مرتبات الجنود كانت متأخرة، فثار الألبانيون علىٰ عثمان بك البرديسي وطالبوه بدفعها، وكان محمد علي يعاونهم سرًّا، ففرض البرديسي علىٰ أهل القاهرة ضرائب فادحة ليتمكن من دفع مرتبات الجنود، فأغضب ذلك الأهالي، ونزعوا الىٰ الثورة، فتدخل محمد علي في الأمر، وأظهر عطفًا شديدًا علىٰ الأهالي، ووعدهم بالمساعدة لرفع هذه المظلمة عنهم، فرجعوا إلىٰ بيوتهم وهم يدعون له، وبذلك وُجدت الحاضنة الشعبية للقضاء علىٰ البرديسي والانفراد بالحكم.

فتحالف محمد علي مع بعض المماليك الساخطين علىٰ البرديسي، وتوجهت قوة مؤلفة من الألبانيين والمماليك، ونجحت في القضاء علىٰ البرديسي وإبراهيم بك في وقت واحد.

وعندئذ أصبح محمد علىٰ صاحب الحل والعقد في القاهرة؛ لأن زمام الجند والشعب كان في يده، غير أنه لم يتسرع في طلب الولاية لنفسه أيضًا!

ولعله حاول هذه المرة إثبات إخلاصه للدولة العثمانية حتىٰ لا تناوئه متىٰ آن أوان ترشحه للولاية، فقام بإخراج خسرو باشا من محبسه متظاهرًا بأنه يريد إعادته للحكم بصفته الوالي العثماني الشرعي! وفي تمثيلية مُعدة سابقًا بالاتفاق مع محمد علي اعترض الألبانيون علىٰ تولية خسرو وأخذوه وأرسلوه إلىٰ رشيد.

وبهذا نجح محمد علي في إثبات صدقه في الولاء للدولة العثمانية وعدم الخروج عليها، مما زاد من شعبيته لدىٰ العلماء والأعيان وعامة المسلمين أكثر!

فاجتمع العلماء والزعماء ومحمد علي لتعيين والٍ علىٰ البلد، وتوصلوا في النهاية إلىٰ الاتفاق علىٰ تعيين خورشيد باشا واليًا، ووافق الباب العالي علىٰ ذلك في سنة ١٨٠٤م.

ووقف محمد علي لخورشيد باشا بالمرصاد، يفيد من كل غلطة يرتكبها، لينفر منه النفوس، ويثير عليه الضغائن.

ولقي خورشيد ما لقي أسلافه من الصعوبات في الحصول علىٰ الأموال، وفي دفع مرتبات الجنود، ففرض الأموال الطائلة، وكان يشعر بعدم إخلاص محمد علي، وبشدة وطأته، وظن أنه يتخلص منه بإشغاله بمحاربة المماليك، غير أن انتصارات محمد علي في تلك المحاربة، وشدة عطفه علىٰ الأهلين والجند، زاده رفعة في عيون الجميع، ووطد مكانته في البلد خصوصًا لدىٰ العلماء والأعيان.

فرأىٰ الوالي أنه لا بد له من قوة فاستعان بثلاثة آلاف مقاتل من طائفة الدالاتية، غير أنهم أساءوا معاملة الناس، فزاد سخط الأهالي علىٰ خورشيد باشا، وأخذ محمد علي يدس الدسائس علىٰ الوالي ويستميل عنه حتىٰ رجاله الدلاتية، وثار الألبانيون علىٰ خورشيد مطالبين بدفع مرتباتهم، فوقف الدالاتية علىٰ الحياد، فوجد خورشيد باشا نفسه في موقف حرج.

وفي أثناء ذلك ورد مرسوم بتولية محمد علي باشا علىٰ جدة درءًا لخطره، فأظهر محمد علي الطاعة وتأهّب للرحيل، غير أن الجند والشعب الساخط علىٰ الوالي رجوا منه أن يبقىٰ في مصر؛ لظنهم أنهم لن يجدوا حاكمًا أرأف منه.

وتحالف محمد علي مع المشايخ والعلماء وكانوا قد سئموا هذه

الفوضىٰ، وكان محمد علي يتحبب إلىٰ العلماء ويتملقهم، ويشترك معهم في تأدية فرائض الدين.

فأخذ المشايخ علىٰ محمد علي المواثيق والأيمان علىٰ سيره بالعدل وإقامة الأحكام والشرائع والإقلاع عن المظالم، وألا يفعل أمرًا إلا بمشورة العلماء، وأنه متىٰ خالف الشروط عزلوه وأخرجوه، وهم قادرون علىٰ ذلك كما يفعلون الآن.

فأظهر محمد علي التواضع وتمنّع من قبول السلطة، وقال: أنا لا أصلح لذلك ولست من الوزراء ولا من الأمراء ولا من أكابر الدولة. فقالوا له قد اخترناك لذلك برأي الجميع والكافة، والعبرة برضىٰ أهل البلاد، وفي الحال أحضروا فروة ألبسوها له، وباركوا له وهنأوه، وجهروا بخلع خورشيد أحمد باشا من الولاية، وإقامة محمد علي في النيابة عنه حتىٰ يأتي له تقرير بالولاية من إسطنبول.

وألحّ المشايخ علىٰ الباب العالي بتولية محمد علي، فصدر فرمان بذلك في يوليو سنة ١٨٠٥م.

ثم طلب الإنجليز من الباب العالي تولية صديقهم المملوكي محمد بك الألفي، فوجد الباب العالي أن العلماء والشعب والجند يؤيدان محمد علي، ورأىٰ الشقاق سائدًا بين المماليك، كما أنه اطلع علىٰ غرض إنجلترا من عزل محمد علي وتولية الألفي، وبناء علىٰ ذلك وعلىٰ ما عرضه المصريون علىٰ الباب العالي صدر مرسوم جديد بتثبيت محمد علي في منصبه، فوصل هذا المرسوم إلىٰ مصر في ٧ نوفمبر سنة ١٨٠٦م.

وقد أرسلت فرنسا ممثلًا لها في مصر، فكتب إلىٰ حكومته أنه يعتقد

أن محمد علي هو أقدر الزعماء الحاليين في مصر علىٰ التغلب علىٰ الفوضىٰ الضاربة أطنابها في البلاد. ولما بلغ هذا الرأي الكولونيل (سبستياني) سفير فرنسا في إسطنبول.. كان من العوامل التي ساعدت علىٰ توطئة الأمر لولاية محمد علي في مصر[(١)].

وقد وصف الجبرتي ما حدث من وقائع، بداية من عزل خسرو باشا ونهاية بعزل خورشيد باشا بأنه «بتدبير محمد علي ونفاقه وحيله»[(٢)].

ولعل هذا يرجع إلىٰ أخلاقه؛ فقد وصفه الجبرتي بأنه: «من طبعه داء الحسد، والشره، والطمع، والتطلع لما في أيدي الناس وأرزاقهم»[(٣)].

• ثالثًا: ثورة إسلامية مسروقة!

ذكرنا باختصار دور المشايخ والعلماء في تولية محمد علي وعزل خورشيد باشا، وقد آن أوان تسليط بعض الضوء علىٰ ذلك.

لقد وثق المشايخ بمحمد علي، وهم لا يعلمون دوره الخفي في الإيقاع بين القوىٰ المختلفة والغدر بأقرب الأقربين له، ولِما أبداه من التدين وحب العلماء والتردد علىٰ بيوت بعضهم بكثرة، والانحياز لمطالب الشعب العادلة التي يحث عليها الإسلام بمنعه للظلم وأمره بالعدل،

---

(١) ينظر: تاريخ الجبرتي (٣/ ٦٢-٦٣، ١٥٨)، محمد علي سيرته وأعماله وآثاره (٢٠-٦٣)، تاريخ مصر الحديث من محمد علي إلىٰ اليوم، د. محمد صبري، (ص٣١-٣٤)، مقال: محمد علي باشا، موقع المعرفة.

(٢) تاريخ الجبرتي، (٣/ ١٥٦).

(٣) الجبرتي، (٣/ ٣٤٣).

ولعزوفه عن إرادة السلطة كما يأمر الدين! وقد كانوا لا يدرون شيئًا عن أمنيته ورؤيته القديمة بحكم مصر.

كما أنهم قد أخذوا عليه العهد بالحكم بأحكام الشريعة، ووافق علىٰ ذلك؛ فكانت أشبه بثورة إسلامية قادها العلماء والمشايخ، فأسقطت الحاكم وولّت غيره وفق ميثاق وشروط؛ لكنها للأسف كباقي ثورات المصريين التي سُرقت.

فبعد أن كثرت المظالم من ناحية، وحققت دسائس محمد علي بين القوىٰ المختلفة هدفها من ناحية أخرىٰ، زاد في نظر الجماهير والعلماء مدىٰ ظلم وتخبط الوالي خورشيد باشا.

وكالعادة في السابق كان المشايخ هم قادة الحراك الثوري؛ فركب المشايخ إلىٰ بيت القاضي واجتمع به الكثير من المتعممين والعامة والأطفال، حتىٰ امتلأ بيت القاضي بالناس، وصرخوا بقولهم:

شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم!

وفي قولهم هذا تأكيد فوق تأكيد علىٰ ثقافة الشعب الإسلامية حينها كما سبقت الإشارة إليه.

واتفقوا علىٰ كتابة قائمة بمطالب الشعب وإرسالها لخورشيد باشا، وفي ثاني يوم أرسل خورشيد باشا مراسلة إلىٰ القاضي الشرعي يرفق فيها الجواب، ويظهر الامتثال، ويطلب حضوره إليه من الغد مع العلماء ليشاروهم.

فلما وصلت القاضي الرسالة حضر بها إلىٰ السيد عمر مكرم،

واستشاره في الذهاب، ثم اتفقوا علىٰ عدم التوجه إليه، وغلب علىٰ ظنهم أنها خديعة، وأن في عزم خورشيد باشا شيئًا آخر؛ لأنه حضر بعد ذلك مَن أخبرهم أنه كان أعدّ أشخاصًا لاغتيالهم في الطريق!

وفي اليوم التالي اجتمع العلماء وغيرهم في بيت القاضي، وركب الجميع وذهبوا إلىٰ محمد علي، وقالوا له:

«إننا لا نريد هذا الباشا حاكمًا علينا، ولابد من عزله من الولاية».

فقال محمد علي:

«ومَن تريدونه يكون واليًا»؟

فقال له المشايخ: «لا نرضىٰ إلا بك، وتكون واليًا علينا بشروطنا! لِما نتوسمه فيك من العدالة والخير».

وأخذ المشايخ علىٰ محمد علي المواثيق والأيمان علىٰ:

١- السير بالعدل.

٢- وإقامة الأحكام والشرائع.

٣- والإقلاع عن المظالم.

٤- وألا يفعل أمرًا إلا بمشورة العلماء.

وأخبروه أنه متىٰ خالف الشروط عزلوه وأخرجوه، وهم قادرون علىٰ ذلك كما يفعلون الآن.

فأظهر محمد علي التمنع من قبول السلطة، وقال:

«أنا لا أصلح لذلك، ولست من الوزراء ولا من الأمراء، ولا من أكابر الدولة».

فقالوا له:

«قد اخترناك لذلك برأي الجميع والكافة، والعبرة برضىٰ أهل البلاد».

وفي الحال أحضروا فروة وألبسها له السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والشيخ عبدالله الشرقاوي شيخ الأزهر، وباركوا له وهنأوه، وجهروا بخلع خورشيد أحمد باشا من الولاية، ونادوا بتولية محمد علي بصورة مؤقتة، حتىٰ يأتي له تقرير بالولاية من إسطنبول، وأرسلوا إلىٰ أحمد باشا الخبر بذلك.

واجه خورشيد باشا ما حدث بالرفض، فركب المشايخ ومعهم الجم الغفير من العامة وبأيديهم الأسلحة والعصي، وذهبوا إلىٰ بركة الأزبكية حتىٰ ملأوها.

ثم إن محمد علي والمشايخ كتبوا مراسلة إلىٰ بعض مساعدي خورشيد باشا، يذكرون لهم فيها ما اجتمع عليه رأي الجمهور من عزل الباشا، وأنه لا ينبغي مخالفتهم وعنادهم؛ لما يترتب علىٰ ذلك من الفساد العظيم وخراب الإقليم.

فردوا عليهم بجواب يطالبونهم بما استندوا إليه من الشرع الإسلامي في فعلهم هذا وخلعهم لخورشيد!

فاجتمع المشايخ ببيت القاضي، وكتبوا فتوىٰ بشرعية ذلك ووقّع عليها المفتون من العلماء، وأرسلوها إليهم.

فلم يقبلوا الفتوىٰ، واستمروا في عنادهم، وعدم نزولهم من القلعة،

وقال خورشيد باشا: «لا أنزل حتىٰ يأتيني أمر من السلطان الذي ولاني».

واجتهد السيد عمر مكرم، وحرّض الناس علىٰ الاجتماع والاستعداد، وركب هو والمشايخ إلىٰ بيت محمد علي باشا ومعهم الكثير من المشايخ والعامة والوجاقلية (جماعة من الجند)، والكل بالأسلحة والعصي والنبابيت، ولازموا السهر بالليل في الشوارع والحارات، ويسرحون أحزابًا وطوائف ومعهم المشاعل، ويطوفون بالجهات والنواحي وجهات السور.

ثم اتفقوا علىٰ محاصرة القلعة؛ فأرسل محمد علي باشا عساكره في جهات الرميلة، والحطابة، والطرق النافذة مثل باب القرافة والحصرية وطريق الصليبة وناحية بيت آقبردي، وجلسوا بالمحمودية، والسلطان حسن، وعملوا متاريس في تلك الجهات، ومنعوا من يطلع ومن ينزل من القلعة.

واستمر هذا الحال لفترة، ثم نزل من القلعة عدد كبير من العسكر، وفتحوا باب القلعة بالرميلة، وأرادوا الهجوم علىٰ المتاريس التي صنعها الثائرون، فتابعوا عليهم بالرمي، فلم يزالوا يترامون إلىٰ ما بعد العشاء ثم رجعوا. وعندما سمع الناس صوت الرمي ذهبوا أرسالًا إلىٰ جهات المتاريس ثم عادوا بعد رجوع العسكر إلىٰ القلعة.

ثم أشيع نزول خورشيد الباشا من الغد، وبات الناس علىٰ ذلك وهم علىٰ ما هم عليه من التجمع والسروح والحيرة.

وفي يوم ٢٦ صفر ١٢٢٠ الموافق ٢٦ مايو ١٨٠٥، ذهب عمر مكرم إلىٰ حسن بك أخي طاهر باشا، وكان بالقلعة مع خورشيد باشا ولكنه نزل

منها، فوقع بينهما مناقشة في الكلام طويلة، ومن جملة ما قال حسن بك:

كيف تعزلون من ولّاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالىٰ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]؟!

فقال له الشيخ عمر مكرم:

أولو الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل، أما هذا فرجل ظالم! وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة، حتىٰ الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور فإنهم يعزلونه ويخلعونه!

فقال له حسن بك:

وكيف تحاصروننا وتمنعون عنا الماء والأكل وتقاتلوننا؟ نحن كفرة حتىٰ تفعلوا معنا ذلك؟!

فأجاب مكرم:

نعم، قد أفتىٰ العلماء والقاضي بجواز قتالكم ومحاربتكم؛ لأنكم عصاة!

فقال حسن بك:

إن القاضي هذا كافر!

فقال عمر مكرم:

إذا كان قاضيكم كافرًا، فكيف بكم؟ وحاشاه الله من ذلك، إنه رجل شرعي لا يميل عن الحق!

وانفصل المجلس علىٰ ذلك.

وخاطبه الشيخ السادات في مثل ذلك فلم يتحول عن الخلاف والعناد.

هذا والأمر مستمر من اجتماع الناس وسهرهم وطوافهم بالليل واتخاذهم الأسلحة والنبابيت، حتىٰ أن الفقير من العامة كان يبيع ملبوسه أو يستدين ويشتري به سلاحًا، وحضرت عربان كثيرة من نواحي الشرق وغيره.

وتعدىٰ بعض الجنود علىٰ بعض الناس خلال الثورة في حوداث متفرقة، فنادىٰ منادٍ في الناس:

«حسبما رسم السيد عمر مكرم والعلماء لجميع الرعايا، بأن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم، ويحترسوا في أماكنهم وأخطاطهم، وإذا تعرض لهم عسكري بأذية قابلوه بمثلها، وإلا فلا يتعرضوا له».

ثم نشبت مواجهات مسلحة بين الجنود المتترسين بالقلعة وبين الثوار، وقصف جنود القلعة البلد بالمدافع وغيرها من الأسلحة، وكذلك قصفوا بيت محمد علي، وجهة الأزهر، واستمر ذلك لعدة أيام.

ولما لم يتوقف القصف أحضر الثوار مدفعًا كبيرًا ونصبوه تجاه القلعة وضربوها بالقنابل، وجنود القلعة يردون بدورهم بالمدافع وغيرها من الأسلحة. وظل القصف المتبادل أيامًا كثيرة متواصلة.

وأرسلت الدولة العثمانية رسولًا ففرح الناس فرحًا شديدًا، وخرجوا بالأسلحة والطبول، ووقفوا بالشوارع والسقائف لمشاهدة الرسول العثماني، وكذلك النساء والصبيان قد خرجوا، وازدحم الناس ازدحامًا كبيرًا، وضربوا بالبنادق والمدافع ابتهاجًا بقدوم هذا العثماني.

وقرأ هذا الرسول الفرمان العثماني بتولية محمد علي واليًا لمصر،

ابتداء من ٢٠ ربيع الأول ١٢٢٠ [الموافق ١٩ يوليو ١٨٠٥م]، حيث رضي العلماء والرعية، وأن خورشيد باشا معزول عن مصر، وعليه أن يتوجه إلىٰ الإسكندرية بالإعزاز والإكرام، حتىٰ يأتيه الأمر بالتوجه إلىٰ بعض الولايات.

واستمر خورشيد في معارضته! إلىٰ أن جاءه رسل آخرون من الدولة العثمانية، وبعد أخذ وردّ وافق أخيرًا ونزل من القلعة يوم ١٠ جمادىٰ الأولىٰ ١٢٢٠ الموافق ٨ أغسطس ١٨٠٥م، وبذلك أصبح محمد علي باشا هو حاكم مصر[١].

لم يقتصر دور العلماء علىٰ ذلك، بل ساندوه بعد ذلك لتثبيت حُكمه؛ فقد ورد بعد عام تقريبًا فرمان من الدولة العثمانية بانتهاء ولاية محمد علي وتوليته ولاية سلانيك، وتولية والٍ جديد اسمه موسىٰ باشا علىٰ مصر، فأرسل المشايخ الرسالة تلو الرسالة للدولة العثمانية لمد ولاية محمد علي، ولم يكن استفحش ظلمه بعد[٢].

ثم جاء وقت التخلص من المشايخ والعلماء؛ فهم القوة الضاربة لدىٰ الناس، وهم الصادعون بالحق والذين بأيديهم تبيين المنكرات التي يرتكبها محمد علي، وبإمكانهم أن يعزلوه كما ولوه كما صرحوا له من قبل، وقد ظهرت قوتهم خلال مواجهة حملة فريزر، التي لم يكن لمحمد علي أي دور فيها بالمقابل كما سيأتي، مما جعله يزداد حقدًا عليهم.

---

(١) للمزيد حول تفاصيل هذه الوقائع، يُنظر: تاريخ الجبرتي (٣/ ٦٢-٨٢، ١٥٨).

(٢) يُنظر: تاريخ الجبرتي (٣/ ١٢٣-١٣٣).

وقد سلك محمد علي لإقصاء المشايخ أكثر من سبيل؛ فتارة يعتقل، وتارة يهدد، وتارة يوقع بينهم بخبث ومكر، وتارة ينفي ويطرد!

وقد بدأ الأمر بالشيخ عبد الله الشرقاوي الذي كان شيخًا للأزهر؛ فقد أرسل محمد علي إليه يأمره بلزوم داره، وأن لا يخرج منها ولا حتىٰ إلىٰ صلاة الجمعة![1].

وزعم أنه فعل هذا لوقوع خلافات بين الشيخ الشرقاوي وبين إخوانه من أهل العلم!

ثم قبض رجال محمد علي علىٰ أحد العلماء وحبسوه، فأرسل المشايخ يترجون محمد علي في إطلاقة، فلم يفعل، وأرسله إلىٰ القلعة[2].

وفي يوم السبت ١٥ جمادىٰ الأولىٰ ١٢٢٤ الموافق ٢٨ يونيو ١٨٠٩م، حضر المشايخ بالأزهر علىٰ عادتهم لقراءة الدروس، فحضر الكثير من النساء، والعامة، وأهل هذا العالِم المسجون، وهم يصرخون ويستغيثون، وأبطلوا الدروس، واجتمع المشايخ بالقبلة، وأرسلوا إلىٰ السيد عمر مكرم فحضر إليهم وجلس معهم، ثم قاموا وذهبوا إلىٰ بيوتهم.

ثم اجتمعوا في ثاني يوم، وكتبوا خطابًا إلىٰ محمد علي باشا يذكرون فيه ما وقع فيه من المحدثات من المظالم والبدع، وذكروا كذلك أخذ أحد العلماء وحبسه بلا ذنب، وتعاهدوا وتعاقدوا علىٰ الاتحاد وترك المنافرة.

---

(١) الجبرتي، (٣/ ١٣٤).

(٢) الجبرتي، (٣/ ٢٦٤-٢٦٥).

وعند ذلك حضر ديوان أفندي وقال للمشايخ: الباشا يسلم عليكم ويسأل عن مطلوباتكم.

فعرّفوه، فقال: ينبغي ذهابكم إليه وتخاطبونه مشافهة بما تريدون، وهو لا يخالف أوامركم، ولا يرد شفاعتكم، وإنما القصد أن تلاطفوه في الخطاب؛ لأنه شاب مغرور جاهل، وظالم غشوم، ولا تقبل نفسه التحكُّم، وربما حمله غروره علىٰ حصول ضرر بكم، وعدم إنفاذ الغرض.

فقالوا بلسان واحد: لا نذهب أبدًا ما دام يفعل هذه الفعال، فإن رجع عنها وامتنع عن إحداث البدع والمظالم عن خلق الله رجعنا إليه وترددنا عليه كما كنا في السابق؛ فإننا بايعناه علىٰ العدل لا علىٰ الظلم والجور!

فقال لهم ديوان أفندي: وأنا قصدي أن تخاطبوه مشافهة، ويحصل إنفاذ الغرض.

فقالوا: لا نجتمع عليه أبدًا، ولا نثير فتنة، بل نلزم بيوتنا ونقتصر علىٰ حالنا، ونصبر علىٰ تقدير الله بنا وبغيرنا.

وأخذ ديوان أفندي الخطاب، ووعدهم بردّ الجواب، ثم بعد رجوعه أطلقوا العالِم الذي كان محبوسًا.

ثم طلب بعض المشايخ من الشيخ عمر مكرم الذهاب إلىٰ محمد علي؛ فقال لهم:

وأما الذهاب إليه فلا أذهب إليه أبدًا، وإن كنتم تنقضون الأيْمان والعهد الذي وقع بيننا فالرأي لكم!

يقول الجبرتي: ثم انفض المجلس وأخذ محمد علي باشا يدبّر في

تفريق جمعهم، وخذلان السيد عمر مكرم؛ لمعارضته له في غالب الأمور، ومحمد علي يخشىٰ صولته، ويعلم أن الرعية والعامة تحت أمره، إن شاء جمعهم، وإن شاء فرّقهم، وهو الذي قام بنصره وساعده وأعانه، وجمع الخاصة والعامة حتىٰ ملّكه الإقليم، ويرىٰ أنه إن شاء فعل بنقيض ذلك.

وبدأ محمد علي في الإيقاع بين المشايخ، وذهب إليه جمع من المشايخ فقال لهم: أنا لا أردُّ شفاعتكم، ولا أقطع رجاءكم، والواجب عليكم إذا رأيتم مني انحرافًا أن تنصحوني وترشدوني!

ثم أخذ يلوم علىٰ السيد عمر في تخلفه وتعنته ويثني علىٰ البواقي، ووافق ذلك ما في نفوسهم من الحقد للسيد عمر، كما يقول الجبرتي.

وحضروا عند السيد عمر وهو ممتلئ بالغيظ مما حصل من الشذوذ ونقض العهد، فأخبروه بأن الباشا لم يحصل منه خلاف، وأنه قال لهم: أنا لا أردُّ شفاعتكم ولكن نفسي لا تقبل التحكُّم، والواجب عليكم إذا رأيتموني فعلت شيئًا مخالفًا أن تنصحوني وتشفعوا، فأنا لا أردّكم ولا امتنع من قبول نصحكم، وأما ما تفعلونه من التشنيع والاجتماع بالأزهر فهذا لا يناسب منكم، وكأنكم تخوّفوني بهذا الاجتماع وتهييج الشرور وقيام الرعية، كما كنتم تفعلون في زمان المماليك، فأنا لا أفزع من ذلك! وإن حصل من الرعية أمر ما فليس لهم عندي إلا السيف!!

وواصل الشيخ عمر مكرم صموده وثباته علىٰ عدم مقابلة محمد علي، فأقسم لمن طلبوا منه أن يقابله مرة أخرىٰ إنه لا يطلع إليه، ولا يجتمع به ولا يرىٰ له وجهًا، إلا إذا أبطل هذه الأحدوثات، وقال عمر مكرم:

«إن جميع الناس يتهمونني معه، ويزعمون أنه لا يتجارأ علىٰ شيء

يفعله إلا باتفاقي معه، ويكفي ما مضىٰ، ومهما تقادم يتزايد الظلم والجور».

وحاول محمد علي أن يستميل عمر مكرم بإرسال الأموال إليه فلم يقبلها.

وقال عمر مكرم: إن كان ولا بد فأجتمع معه في بيت السادات، وأما طلوعي إليه فلا يكون!

فلما قيل لمحمد ذلك ازداد حنقه وقال: إنه بلغ به أن يزدريني ويرذلني ويأمرني بالنزول من محل حُكمي إلىٰ بيوت الناس!

ثم ذهب محمد علي إلىٰ بيت ولده إبراهيم، وطلب القاضي والمشايخ، وأرسل إلىٰ السيد عمر رسولًا من طرفه، ورسولًا من طرف القاضي، يطلبه للحضور ليتحاقق ويتشارع معه، فرجعا وأخبراه بأن السيد عمر مكرم قد شرب دواء ولا يمكنه الحضور في هذا اليوم!

فعند ذلك اغتاظ محمد علي جدًا، وأمر بكتابة فرمان بنفي الشيخ عمر مكرم إلىٰ دمياط.

فلما ورد الخبر علىٰ السيد عمر بذلك قال:

«أما منصب نقابة الأشراف فإني راغب عنه وزاهد فيه، وليس فيه إلا التعب، وأما النفي فهو غاية مطلوبي وأرتاح من هذه الورطة، ولكن أريد أن يكون في بلدة لم تكن تحت حُكمه».

فعرّفوا محمد علي بمطلوب عمر مكرم فلم يرضَ إلا بذهابه إلىٰ دمياط.

ثم اجتمع المودعون للسيد عمر مكرم، وشيّعه الكثير من المتعممين وغيرهم، وهم يتباكون حوله حزنًا علىٰ فراقه، وكذلك اغتم الناس لسفره وخروجه؛ لأنه كان ركنًا وملجأ ومقصدًا للناس، ولتعصبه في نصرة الحق كما يقول الجبرتي.

ثم قام بعض المشايخ الذين ملأت الدنيا قلوبهم بكتابة تقرير ظالم لعمر مكرم، فيه من الأكاذيب الشيء الكثير في حقه، ثم ذهبوا لأخذ تواقيع باقي المشايخ، فامتنع الصادقون منهم كالشيخ أحمد الطحطاوي، وقالوا: هذا كلام لا أصل له!

ثم عملت هذه الشرذمة من مشايخ الدنيا علىٰ عزل السيد أحمد الطحطاوي بسبب موقفه النبيل، وقد نجحوا في ذلك.

أما الشيخ عمر مكرم فلم تقُم بعد خروجه من مصر للناس راية، ولم يزالوا بعده في انحطاط وانخفاض[1].

وبذلك قضىٰ محمد علي علىٰ العلماء الذين كانت لهم شعبية وقيادة لجموع الناس، وجمع حوله في الغالب مَن ينافقونه ويتملقونه، ولم يَعُدْ هناك مَن يفزع الناس إليه ليأخذوا حقوقهم كما كانوا يفعلون.

واختفىٰ دور المشايخ السياسي تقريبًا من الحياة العامة منذ ذلك الحين، وساعد علىٰ ذلك أن محمد علي عمد إلىٰ إنشاء نظام جديد للتعليم يقوم علىٰ النمط الأوربي، حقيقة أنه لم يتعرض للأزهر، ولكنه خلق إلىٰ جانب الأزهر نظامًا تعليميًا علمانيًا كاملًا، يقوم علىٰ المدارس التجهيزية،

---

(١) انظر ما سبق مفصلًا في: الجبرتي، (٣/ ٢٦٥-٢٧٥).

والتعليم المدني، ونظام البعثات إلىٰ أوربا، وعلىٰ حركة واسعة النطاق من النقل والترجمة من علوم الغرب، ولقد ترتب علىٰ هذا النظام التعليمي الجديد ظهور فئة جديدة من المثقفين المتأثرين بالثقافة الغربية ولا سيما الفرنسية[1].

ولنأخذ شهادة (وليام إدوارد لين) وهو من كبار المستشرقين الإنجليز، تعلم العربية في بلاده وأتقنها في مصر، حيث قضىٰ فيها نحو أربعة عشر عامًا، في ثلاث رحلات إليها، وعاشر أهلها وتزيّا بزيهم، وكان يُدعىٰ في القاهرة: منصور أفندي، وقد جاء (لين) إلىٰ مصر أول مرة عام ١٨٢٥ ميلادية الموافق ١٢٤٠ هجرية، وأمضىٰ بها قرابة ثلاث سنوات، ثم عاد إلىٰ إنجلترا، ثم جاء إلىٰ مصر مجددًا عام ١٨٣٣م الموافق ١٢٤٨هـ، ومكث فيها قرابة عامين، وكتبه ما رآه في مصر في عهد محمد علي باشا خلال هذين الفترتين، في كتابه الذي أسماه (المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم)، وتم نشر الكتاب عام ١٨٣٦م لأول مرة، ثم عاد إلىٰ مصر مرة ثالثة عام ١٨٤٢م ومكث فيها سبعة أعوام[2].

يقول (لين) راصدًا الفرق بين قوة الأزهر في القرن الثامن عشر والتاسع عشر خلال فترة محمد علي:

«كان التعليم في القاهرة قد جاوز المدىٰ من الرعاية والانتعاش قبل

---

(١) تطور المجتمع المصري من الإقطاع إلىٰ ثورة ٢٣ يوليو، د. احمد انيس، (ص٧٧-٧٨).

(٢) المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم، إدوارد وليم لين، (ص١)، والأعلام، لخير الدين الزركلي، (١/ ٢٨٤).

الغزو الفرنسي (أواخر القرن السابع عشر عام ١٧٩٨م) أكثر منه في السنين الأخيرة، وقد عانىٰ التعليم كثيرًا مما أحدثه هذا الغزو من الرعب والهرج، لا من جراء المقاومة التي واجهها الفرنسيون في غزوهم لمصر، ولكن لما أثاروه من فزع ورعب طارئ واضطراب.

وكان يكفي قبل ذلك العصر أن يقوم الشيخ المتخرج من الأزهر بالتدريس لولدين من أولاد الفلاحين المتوسطي الثروة ليعيش في بحبوحة؛ إذ كانا يقومان علىٰ خدمته ونظافة منزله وتجهيز غذائه، فكانا وإن شاركاه في الطعام يُعتبران خادمين له في كل آن، فيتبعانه أينما حلَّ أو ارتحل، فإذا دخل المسجد أخذا نعليه، وكثيرًا ما كانا يُقبّلان حذاءه بعد خلعه! ويعاملانه في كل حين معاملة الأمراء، وكان جديرًا بالإكبار والتوقير في ثوبه الفضفاض الكاسي وعمامته الكاسية.

وعندما يمضي في الطريق ماشيًا أو ممتطيًا حمارًا أو بغلًا فإن الناس يسرعون إليه ملتمسين البركة والدعاء، مؤمنين بقربه من الله، فإذا مرَّ بقريب أو إفرنجي راكب وجب عليه أن يترجل لتحيته، وإذا مضىٰ إلىٰ الجزار ليبتاع اللحم -إذ يرىٰ أن يبتاعه بنفسه فلا يوكل به غيره- فإن الجزار يأبىٰ أن يتناول الثمن، ويقبّل يده معتبرًا طلب الشيخ شرفًا وبركة، وإنها لنعمة كبرىٰ أن يمنحه ما يشاء.

أما الآن فقد انحط شأن هؤلاء الشيوخ، حتىٰ يصعب عليهم الحصول علىٰ معاشهم، إن لم تكن مواهبهم منقطعة النظير»[١].

---

(١) المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم، إدوارد وليم لين، (ص١٨٧-١٨٨).
الأزهر في ألف عام، يارد دودج، (ص١٠٧-١٠٨).

ثم كان آخر من قضىٰ عليهم محمد علي هم المماليك عام ١٨١١م، في مذبحة بشعة، دون أي محاكمة، وبكل غدر ولا إنسانية، بعد أن أعطىٰ لهم -كما سيأتي- المواثيق بالأمان والاطمئنان وببداية حياة جديدة بينه وبينهم يعمها السلام.

• رابعًا: جهاد المشايخ لحملة فريزر وتخلُّف محمد علي:

كانت إنجلترا ترىٰ أن انتصار محمد علي هو انتصار للنفوذ الفرنسي، فعملت علىٰ إحباط ذلك، وتحالفت مع بقية المماليك ليجدوا مَن يعتمدون عليه وقت الحاجة، ولكن المماليك كانوا قد ضعفوا، فلم يعد أمامها إلا الحل العسكري لإيجاد نفوذ لها في مصر أمام نفوذ محمد علي حليف عدوتها اللدودة -حينها- فرنسا.

ومما زاد من ضعف المماليك موت الألفي بك، والذي كان أحد كبرائهم وفي نفس الوقت صديقًا للإنجليز وحليفًا لهم، ولما علم محمد علي بموته قال: «الآن ملكت مصر»(١).

وبالفعل أتىٰ الأسطول الإنجليزي إلىٰ الإسكندرية في ٩ محرم ١٢٢٢، الموافق: ١٩ مارس ١٨٠٧م، فطلبوا من المصريين الحاكم والقنصل وتكلموا معهم، وطلب منهم الإنجليز دخول الإسكندرية، فردّوا عليهم بأنهم لن يمكنوهم من الطلوع إلىٰ البر إلا بمرسوم سلطاني من الدولة العثمانية!

فقال الإنجليز: لم يكن معنا مراسيم وإنما مجيتنا للمحافظة علىٰ الثغر

---

(١) الجبرتي، (٣/ ١٤١).

من الفرنسيس؛ فإنهم ربما طرقوا البلاد علىٰ حين غفلة، وقد أحضرنا صحبتنا خمسة آلاف من العسكر نقيمهم بالأبراج لحفظ البلدة والقلعة والثغر.

فقالوا لهم: ليس معنا إذن بالسماح لكم، وقد أتتنا مراسيم بمنع كل من وصل عن الطلوع من أي جنس كان.

فقال الإنجليز: لابد من ذلك، فإما أن تسمحوا لنا في الطلوع بالرضا والتسليم، وإما بالقهر والحرب، والمهلة في رد الجواب بأحد الأمرين أربعة وعشرون ساعة، ثم تندمون علىٰ الممانعة!

ولما انقضت أربع وعشرون ساعة وهم في الممانعة، ضربوا عليهم بالمدافع الهائلة من البحر، فهدموا جانبًا من البرج الكبير، وكذلك الأبراج الصغار والسور؛ فعند ذلك طلبوا الأمان، فرفعوا عنهم الضرب، ودخلوا البلدة.

وعمل الإنجليز علىٰ مراعاة الشعور الديني لدىٰ أهل الإسكندرية كما كانت سياسة الفرنسيين في مصر، فاتفقوا مع الأهالي علىٰ أن الإنجليز لا يمتهنون المساجد، ولا يبطلون منها الشعائر الإسلامية، ومحكمة الإسلام تكون مفتوحة تحكم بشرائعها، ولا يكلّفون أهل الإسلام بإقامة دعاوىٰ عند محكمة الإنجليز بغير رضاهم.

وأرسل الإنجليز إلىٰ المماليك يستدعونهم ليكونوا لهم مساعدين، وقالوا لهم:

«إنما جئنا إلىٰ بلادكم باستدعاء الألفي لمساعدته ومساعدتكم،

فوجدنا الألفي قد مات، وهو شخص واحد منكم وأنتم جمع، فلا يكون عندكم تأخير في الحضور لقضاء شغلكم، فإنكم لا تجدون فرصة بعد هذه، وتندمون بعد ذلك إن تلكأتم».

فلما وصلت مراسلة الإنجليز إلىٰ المماليك تفرّق رأيهم، وكان عثمان بك حسن منعزلًا عنهم وعنده جيش كبير، فأرسلوا إليه يستدعونه فامتنع وتورع، وقال:

«أنا مسلم، هاجرت وجاهدت وقاتلت في الفرنساوية، والآن أختم عملي وألتجئ إلىٰ الإفرنج وأنتصر بهم علىٰ المسلمين؟! أنا لا أفعل ذلك، أنا لا أنتصر بالكفار».

ووافقه علىٰ رأيه ذلك عثمان بك يوسف أحد كبار المماليك أيضًا.

وكان محمد علي يحارب المماليك الذين بأسيوط، فلما ورد عليه خبر قدوم الإنجليز انفعل، وأرسل إلىٰ المماليك وفدًا من المشايخ وخلافهم يطلبهم للصلح.

فقال المماليك للمشايخ: كم من مرة يراسلنا في الصلح ثم يغدر بنا ويحاربنا!

ثم اجتمعوا ثانيًا بالمشايخ وقالوا لهم: ما المراد بهذا الصلح؟

فقال المشايخ: المراد منه راحة الطرفين، ورفع الحروب، واجتماع الكلمة، ولا يخفاكم أن الإنجليز تخاصمت مع سلطان الإسلام، وأغارت علىٰ ممالكه، وطرقت ثغر الإسكندرية ودخلتها، وقصدهم أخذ الإقليم المصري كما فعل الفرنساوية.

فقال المماليك: إنهم أتوا باستدعاء الألفي لنصرتنا ومساعدتنا.

فقال المشايخ: لا تصدقوا أقوالهم في ذلك! وإذا تملكوا البلاد لا يقون علىٰ أحد من المسلمين، وحالهم ليس كحال الفرنساوية؛ فإن الفرنساوية لا يتدينون بدين ويقولون بالحرية والتسوية، وأما هؤلاء الإنجليز فإنهم نصارىٰ علىٰ دينهم، ولا تخفىٰ عداوة الأديان، ولا يصح ولا ينبغي منكم الانتصار بالكفار علىٰ المسلمين، ولا الالتجاء إليهم!

ووعظهم المشايخ وذكّروهم بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وأن الله هداهم في طفولتهم، وأخرجهم من الظلمات إلىٰ النور، وقد نشأوا في كفالة أسيادهم، وتربوا في حجور الفقهاء، وبين أظهر العلماء، وقرأوا القرآن، وتعلموا الشرائع، وقطعوا ما مضىٰ من أعمارهم في دين الإسلام، وإقامة الصلوات، والحج، والجهاد، ثم يفسدون أعمالهم آخر الأمر، ويوادّون من حادّ اللهَ ورسولَه، ويستعينون بهم علىٰ إخوانهم المسلمين، ويُملّكونهم بلاد الإسلام يتحكمون في أهلها؟! فالعياذ بالله من ذلك.

فقال المماليك: كل ما قلتموه وأبديتموه نعلمه، ولو تحققنا الأمن والصدق من مُرسِلكم (أي محمد علي) ما حصل منا خلاف، ولحاربنا وقاتلنا بين يديه، ولكنه غدّار، لا يفي بعهد، ولا بوعد، ولا يبرّ في يمين، ولا يصدق في قول!

فقال لهم المشايخ: هذه المرة هي الأخيرة، وليس بعدها شر ولا حرب؛ بل بعدها الصداقة والمصافاة، ويعطيكم كل ما طلبتموه، وعند انقضاء أمر الإنجليز ينعقد مجلس الصلح بحضرة المشايخ الكبار والنقيب والوجاقلية وأكابر العسكر، وإن شئتم عقدنا مجلس الصلح قبل التوجه

لمحاربة الإنجليز، ولا شر بعد ذلك أبدًا.

فوافق المماليك علىٰ ذلك.

ووصلت قوات الإنجليز إلىٰ رشيد في ٢١ محرم ١٢٢٢ الموافق: ٣١ مارس ١٨٠٧م، وكان أهل البلدة ومن معهم من العساكر منتبهين ومستعدين بالأزقّة والعطف وطيقان البيوت، فلما وصل الإنجليز داخل البلد، ضربهم المختبئون من كل ناحية، فألقىٰ الإنجليز ما بأيديهم من الأسلحة، وطلبوا الأمان، فلم يلتفت الناس لذلك، وقبضوا عليهم، وذبحوا منهم جملة كثيرة! وأسروا الباقين.

وفرّت طائفة من الإنجليز إلىٰ ناحية دمنهور، فواجههم كاشفها بجنوده، فقتل بعضهم، وأخذ ما بقي منهم أسرىٰ.

وأرسلوا السُّعاة إلىٰ القاهرة بالبشارة بهزيمة الإنجليز، فضرب الناس المدافع ابتهاجًا.

وفي ٢٦ محرم الموافق ٥ أبريل، وصلت إلىٰ بولاق ٢٤ رأسًا مقطوعة لقتلىٰ إنجليز، ومعهم ٢٥ أسيرًا، فهرع الناس إلىٰ الذهاب للمشاهدة، ورفعوا الرؤوس المقطوعة علىٰ نبابيت وطافوا بها مبتهجين!

وفي نفس اليوم أمر السيد عمر مكرم نقيب الأشراف الناس بحمل السلاح، والتأهب لجهاد الإنجليز، حتىٰ مجاوري الأزهر وطلبة العلم أمرهم مكرم بترك حضور الدروس، وكذلك أمر المشايخ المدرسين بترك إلقاء الدروس.

وفي اليوم التالي وصلت أيضًا جملة من الرؤوس المقطوعة للإنجليز

والأسرىٰ إلىٰ بولاق، وكانوا ١٢١ رأسًا مقطوعة، و١٣ أسيرًا!

وحصل اجتماع في بيت القاضي الشرعي، بحضور السيد عمر مكرم، والشيخ الشرقاوي، والشيخ الأمير، وباقي المشايخ، فتكلموا في شأن حادثة الإنجلير، والاستعداد لحربهم وقتالهم وطردهم؛ «فإنهم أعداء الدين والملة، وقد صاروا أيضًا أخصامًا للسلطان؛ فيجب علىٰ المسلمين دفعهم».

واتفقوا علىٰ تحصين المدينة وحفر خندق، ثم ذهبوا إلىٰ بولاق لترتيب أمر الخندق.

وفي آخر محرم الموافق ٩ أبريل، ورد مكتوب من السيد حسن كريت نقيب الأشراف برشيد والمشار إليه بها، يذكر فيه أن الإنجليز حضروا إلىٰ ناحية الحماد برشيد، ومعهم المدافع الهائلة والعدد، ونصبوا متاريسهم من ساحل البحر إلىٰ الجبل عرضًا، ونرجو الإسعاف والإمداد بالرجال والجبخانة[1] والعدة والعدد، وعدم التأني والإهمال.

فلما وصل ذلك الجواب قرأه السيد عمر مكرم علىٰ الناس، وحثّهم علىٰ التأهب والخروج للجهاد، فامتثلوا ولبسوا الأسلحة، وجمع إليه طائفة المغاربة وأتراك خان الخليلي وكثيرًا من العدوية والأسيوطية وأولاد البلد، وركب في صبحها إلىٰ كتخدا بك (نائب محمد علي)، واستأذنه في الذهاب، فلم يرضَ! وقال: حتىٰ يأتي أفندينا الباشا ويرىٰ رأيه في ذلك. فسافر من سافر وبقي من بقي.

---

(١) المكان الذي يُحفظ فيه الذخيرة والسلاح.

ووردت مكاتبة أخرىٰ من ثغر رشيد يستعجلون النجدة.

ووصل محمد علي أخيرًا من الصعيد في ٣ صفر ١٢٢٢هـ الموافق ١٢ أبريل، وزاره المشايخ والسيد عمر مكرم، وقالوا له: لنخرج جميعًا إلىٰ الجهاد مع الرعية والعسكر.

فرفض محمد علي باشا! وقال ليس علىٰ رعية البلد خروج، وإنما عليهم المساعدة بالمال. وطلب من السيد عمر مكرم ضريبة يجمعها بمعرفته لنفقة العسكر.

ووردت مكاتبة ثالثة من رشيد موجهة خاصة للسيد عمر مكرم والمشايخ، وعليها إمضاء السيد حسن كريت نقيب الأشراف السابق ذكره، يخبر فيها بأن الإنجليز محتاطون بالثغر ومتحلقون حوله، ويضربون علىٰ البلد بالمدافع والقنابل، وقد تهدّم الكثير من الدور والأبنية ومات كثير من الناس، وقد أرسلنا لكم قبل تاريخه نطلب الإغاثة والنجدة فلم تسعفونا بإرسال شيء، وما عرفنا لأي شيء هذا الحال! وما هذا الإهمال؟! فالله الله في الإسعاف! فقد ضاق الخناق وبلغت القلوب الحناجر من توقع المكروه وملازمة المرابطة والسهر علىٰ المتاريس.

واشترك في قتال الإنجليز أتراك ومغاربة ومكّيون كانوا متواجدين بمصر، لا يجمعهم إلا الإسلام والغيرة عليه.

وفي يوم ١٤ صفر ١٢٢٢، الموافق ٢٣ أبريل ١٨٠٧م، بدأ السُّعاة يحضرون إلىٰ القاهرة ويخبرون بالنصر علىٰ الإنجليز وهزيمتهم، وذلك أنه اجتمع الجم الكثير من أهالي بلاد البحيرة وغيرها، وأهالي رشيد، ومن معهم من المتطوعة والعساكر، وأهل دمنهور، وصادف وصول كتخدا بك

وإسماعيل كاشف الطوبجي إلىٰ تلك الناحية؛ فكان بين الفريقين مقتلة كبيرة، وأسروا من الإنجليز طائفة، وقطعوا منهم عدة رؤوس، فكافأ محمد علي السعاة.

وتوالىٰ إحضار رؤوس الإنجليز المقطوعة والأسرىٰ إلىٰ القاهرة، حتىٰ بلغ عددهم ٣٤٠ رأسًا، و٤٦٦ أسيرًا، من ضمنهم ٢٠ من كبار القادة الإنجليز، وسط ابتهاج الناس وتجمُّعهم للمشاهدة[(١)].

إن لملحمة رشيد ضد الإنجليز بطلين، الأول علي بك السلانكلي محافظ رشيد آنذاك، والثاني الشيخ المجاهد حسن كريت، نقيب الأشراف، أنصف التاريخ أولهما ولم يُعطِ الثاني قدره من التقدير.

وكان الناس قد رأوا من مأذنة مسجد زغلول سفن حملة فريزر مبحرة قاصدة شواطئ رشيد، فعلم علي بك السلانكلي بذلك وأحاط الشيخ حسن كريت بالأمر، وصرح له عن نيته في مواجهة هذا الغزو.

بدأ علي بك السلانكلي التخطيط مع الشيخ حسن كريت للإيقاع بالإنجليز في شوارع رشيد الضيقة، فدبرا لاستدراج الإنجليز بالتظاهر بعدم المقاومة، فقام الشيخ حسن كريت بإيهام (بتروش) قنصل إنجلترا في رشيد بضعف رشيد وعجز أهلها العزل إزاء تلك البوارج بعدتها وعتادها، وأن أهل رشيد ليس أمامهم خيار سوىٰ الاستسلام لدرء الكارثة وتجنب العواقب الوخيمة إن وقع الصدام غير المتكافئ، فقام بتروش بدوره بإبلاغ فريزر قائد الحملة بالأمر، بل وأغراه بسهولة جني ثمار النصر.

---

(١) للمزيد حول وقائع حملة فريزر، يُنظر: تاريخ الجبرتي (٣/ ١٧٧-١٩٤)

وكان الإنجليز قد خططوا للانقضاض علىٰ رشيد من ثلاث جهات، فلما توغلوا في المدينة دون مقاومة من أهل رشيد، تخلوا عن الفرقة التي تقوم بحماية مؤخرة الزحف فأصبحوا بمنأىٰ عن مراكبهم الراسية علىٰ الشاطئ، فقام علي بك السلانكلي بإقصائها عن الشاطئ، ليستحيل فرار الإنجليز إليها عند الضرورة، وقام الشيخ حسن كريت بقيادة صفوف المقاومة الشعبية، وما أن توغل الجيش الإنجليزي في شرايين المدينة حتىٰ انطلق من فوق مئذنة جامع زغلول صوت المنادي: (الله أكبر حي علىٰ الجهاد)، وأصدر الشيخ حسن كريت أوامره بالانقضاض علىٰ الإنجليز.

وإذا بحماة المدينة في المنازل خلف الأسوار يطلقون النيران، والزيت المغلي علىٰ الإنجليز الذين كانوا يملؤون البلد، وصارت الشبابيك الصغيرة تقذف نيرانها عليهم.

وبعد دقائق تحولت شوارع رشيد وعلىٰ رأسها شارع (دهليز الملك) إلىٰ مسرح لحرب ضروس، شارك فيها الأطفال والشيوخ والنساء والصبية والرجال، وشاع الذعر بين صفوف الإنجليز وعمت الفوضىٰ؛ فقتل منهم المئات وأُسر الباقون، وحاول بعضهم الفرار إلىٰ مراكبهم، فلم يجدوها.

يقول الجبرتي واصفًا ما فعله المجاهدون بالإنجليز:

«قويتْ هممهم، وتأهّبوا للبروز والمحاربة، واشتروا الأسلحة، ونادوا علىٰ بعضهم بالجهاد، وكثر المتطوعون، ونصبوا لهم بيارق وأعلامًا، وجمعوا من بعضهم دراهم وصرفوا علىٰ من انضم إليهم من الفقراء، وخرجوا في مواكب وطبول وزمور، فلما وصلوا إلىٰ متاريس الإنجليز دهموهم من كل ناحية علىٰ غير قوانين حروبهم وترتيبهم،

وصدقوا في الحملة عليهم، وألقوا أنفسهم في النيران، ولم يبالوا برميهم، وهجموا عليهم، واختلطوا بهم، وأدهشوهم بالتكبير والصياح حتىٰ أبطلوا رميهم ونيرانهم، فألقوا سلاحهم وطلبوا الأمان، فلم يلتفتوا لذلك وقبضوا عليهم وذبحوا الكثير منهم».

ثم أخذ الشيخ حسن كريت يشحن في كل يوم عددًا من رؤوس القتلىٰ إلىٰ بولاق؛ فيطاف بها في القاهرة معلقةً علىٰ النبابيت وسط بركة الأزبكية (ميدان الأوبرا حاليًا)، كما كانت تشق طريقها من باب النصر إلىٰ باب الفتوح وفق ما مرّ ذكره، وسط فرح الأهالي واحتشادهم.

وأعدّ أهل رشيد صناديق وضعوا فيها آذان القتلىٰ مملحة، وأرسلوها هدايا إلىٰ الباب العالىٰ بالدولة العثمانية، مصحوبة بالمقالات التىٰ تتحدث عن هذا النصر[1].

هذا هو دور الشيخ المجاهد حسن كريت برشيد، ومن قبله دور الشيخ عمر مكرم في حشد المسلمين وحثهم علىٰ القتال؛ فما هو دور محمد علي؟!

لقد تظاهر محمد علي بالسفر إلىٰ رشيد بعد أن أحرجته الرسائل التي تأتي من رشيد بتوقيع الشيخ حسن كريت طالبة النجدة، وبعد مطالبات الشيخ عمر مكرم لمحمد علي بالجهاد، ومن قبل طلبه ذلك من نائبه الذي

(١) الجبرتي (٣/١٩٥-١٩٦). رشيد..التاريخ إلا قليلًا، ماهر حسن، مجلة العربي-الكويت، العدد ٤١٧، عدد شهر ١٩٩٣/٨م. ذكرىٰ خروج فريزر من مصر، سلوىٰ محمود، مجلة أكتوبر، العدد ١٩٢٥، عدد ٢٠١٣/٩/١٥م.

ردّ عليه كما سبق بالرفض وضرورة انتظار محمد علي إلىٰ حين رجوعه من الصعيد، إضافة إلىٰ حث عمر مكرم للعلماء والمجاورين بالأزهر وعامة الناس علىٰ الجهاد.

فتظاهر محمد علي بالذهاب إلىٰ بولاق كأنه سيسافر لنجدة أهالي رشيد والجهاد ضد الإنجليز.

إن رغبة محمد علي في الذهاب إلىٰ رشيد كانت غير حقيقية، وكانت فقط لحفظ ماء وجهه أمام الناس والعلماء، ودفعًا لإمكانية عزله من قِبل السلطان العثماني إذا تخلّف عن حرب الإنجليز.

فقد ذكر الجبرتي أن محمد علي وصل من الصعيد في ليلة الأحد ٣ صفر ١٢٢٢، الموافق ١٢ أبريل ١٨٠٧م، ثم ذكر الجبرتي أنه عزم علىٰ السفر وذهب إلىٰ بولاق بالفعل.

لكن الجبرتي بعدها بأسطر قليلة، وبعد أن ذكر أن محمد علي ذهب إلىٰ بولاق وغيره من المسئولين أيضًا، قال:

«ويذهب الجميع إلىٰ بولاق يوهمون أنهم مسافرون علىٰ قدم الاستعجال بهمة ونشاط واجتهاد، فإذا وصلوا إلىٰ بولاق تفرّقوا، ويرجع الكثير منهم!»[1].

والذي يؤكد تمثيلية محمد علي تلك أن الجبرتي ذكر ما يجزم بوجود محمد علي بالقلعة بالقاهرة بعد تظاهره بالسفر بأسبوع تقريبًا، وبالتحديد

---

(١) الجبرتي، (٣/ ١٩٠).

يوم ١١ صفر الموافق ٢٠ أبريل، وكان معه القنصل الفرنسي[١]. وغير معقول أن يسافر إلىٰ رشيد ويقاتل الإنجليز ثم يرجع، كل هذا في أسبوع!

وذكر الجبرتي أيضًا أن محمد علي جاءته البشريات وهو بالقاهرة بالانتصار علىٰ الإنجليز، فأعطىٰ المكافآت لمن بشروه، وذلك في ١٤ صفر الموافق ٢٣ أبريل[٢].

وقد وصف الجبرتي حالة محمد علي لما بلغه قدوم الإنجليز إلىٰ الإسكندرية وهو بالصعيد، فقال:

«انحلت عزائمه، وثبت في يقينه استيلاء الإنجليز علىٰ الديار المصرية، وعزم علىٰ العودة متلكئًا في السير، يظن سرعة ورودهم إلىٰ المدينة، فيسير مشرقًا علىٰ طريق الشام، ويكون له عذر بغيبته في الحملة».

ويذكر الجبرتي أن محمد علي لما وصلته البشائر بمقاومة رشيد ووصول رؤوس الإنجليز وأسراهم إلىٰ القاهرة «تراجعت إليه نفسه، وأسرع في الحضور»[٣].

وذهب محمد علي بقواته بعدما انسحب الإنجليز للإسكندرية، وتفاوض مع الجينرال فريزر، وانتهت المفاوضات بالاتفاق علىٰ أن يخلي محمد علي سبيل الأسرىٰ، مقابل أن يرحل الإنجليز عن الإسكندرية، فغادروها في شهر سبتمبر ١٨٠٧م.

---

(١) الجبرتي، (٣/ ١٩١).

(٢) الجبرتي، (٣/ ١٩٣).

(٣) الجبرتي، (٣/ ١٩٥).

ونسب محمد علي لنفسه النصر وإجلاء الإنجليز، يقول الجبرتي: «وليت العامة شُكروا علىٰ ذلك أو نُسب إليهم فعل؛ بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره، وجوزيت العامة بضد الجزاء بعد ذلك!»[1].

• خامسًا: محمد علي والإصلاح المزعوم:

لقد كانت في مصر قوة اجتماعية ممثلة في المشايخ والتجار وشيوخ الطوائف الحِرَفية، فقد كان من سمات المجتمع المصري وجود طوائف للحرف، وكان شيخ كل طائفة يمارس سلطات واسعة فنية وإدارية وتأديبية علىٰ أفراد طائفته، وكان شيوخ الطوائف يتخذون المساجد كمكان يمارسون فيه اختصاصاتهم العديدة.

وكان علماء الأزهر علىٰ علاقة وثيقة بشيوخ الطوائف الحرفية، وكانوا يعتمدون عليهم إذا أرادوا أن يحركوا ثورة شعبية عارمة تجاه ظلم حاكم ما كما رأينا فيما سبق؛ فإذا جاء أحد بمظلمة لعلماء الأزهر أوقفوا الدروس بالأزهر أو أغلقوه نهائيًا، ثم يأمرون التجار وشيوخ الطوائف بغلق الحوانيت والمحلات والإضراب عن العمل، فتُشل القاهرة في وقت قليل جدًا إلىٰ أن يتم رفع المظلمة.

وكان شيخ أي طائفة حرفية يحرص كل الحرص علىٰ أن يشهد عدد كبير من علماء الأزهر الاحتفالات التي تقيمها طائفته في المناسبات المختلفة، خاصة عندما يرتقي عريف إلىٰ مرتبة معلم ويحق له مزاولة المهنة في محل مستقل، فكان أحد علماء الأزهر يخطب في هذه

---

(١) الجبرتي، (٣/ ١٩٦).

المناسبة، وكانت الإجازة التي تُعطىٰ للمعلم الجديد من صياغة أحد علماء الأزهر[1].

وقد تزايدت قوة هذا التحالف بسبب وقوفه بجانب المظلومين قبل الحملة الفرنسية كما رأينا، ثم لقيادته الثورات ضد الاحتلال الفرنسي، ثم توليته لمحمد علي، ثم أخيرًا لوقوفه أمام حملة فريزر.

لذلك فإن قضاء محمد علي علىٰ هذه القوة الاجتماعية المنظمة جعله لا يتمكن من بناء دولة تقوم علىٰ قوة ذاتية شعبية؛ بل أقامها علىٰ أكتاف مجموعة من الموظفين والأتباع الأجانب الذين ينافقونه في الغالب، وليس لهم حضور لدىٰ الشعب، ولا قدرة علىٰ التنظيم والتأثير، لذلك لم تتمكن مصر -بعد موت محمد علي بسنوات معدودات- من الصمود أمام الاحتلال الغربي ممثلًا في الاحتلال الإنجليزي عام ١٨٨٢م، بعكس صمودها أمام الاحتلال الفرنسي، ثم الإنجليزي إبان حملة فريزر كما ذكرنا.

نعم كانت هناك بعض الإصلاحات في عهد محمد علي، لكن كثيرًا من الإصلاحات التي كان يقوم بها، سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية، كان يخدم بها في الغالب عملية بناء إمبراطورية لنفسه في الشرق العربي وأفريقيا، فكل الإصلاحات كانت مربوطة بحملاته العسكرية والتوسعية وتصب في مصلحتها، فلما عجز عن إقامة تلك الإمبراطورية وانهار مشروعه بسبب معارضة الدول الكبرىٰ. . تلاشت هذه

---

(١) الأزهر جامعًا وجامعة، (٢/٧٨).

الإصلاحات، وعادت مصر مرة أخرىٰ إلىٰ الوراء، وفُتحت مصر علىٰ مصراعيها أمام النفوذ الأجنبي الاستعماري، فأخذت هجرات الأوربيين تفد إليها بأعداد كبيرة، وتسرب الرأسمال الأوربي إلىٰ مصر بطرق مختلفة، مما أدىٰ إلىٰ سيطرتهم علىٰ معظم التجارة والنشاط المالي في مصر، وأصبحت مصر تتنافس حولها إنجلترا وفرنسا بصورة فجة وأكبر بكثير مما سبق، بحيث تجد حكامها يتبادلون الولاء نحو إحدىٰ الدولتين(١).

هذا بجانب المظالم المالية التي ارتكبها محمد علي بحق أهل مصر، والتي يبررها المؤرخون العلمانيون والقوميون بأن محمد علي كان بحاجة إلىٰ الأموال في حربه مع المماليك ففرض الضرائب الباهظة، وبعد أن قضىٰ علىٰ المماليك احتاج إلىٰ المال مرة أخرىٰ في حربه علىٰ الوهابيين!

وكذلك أيضًا يبررون الإيذاء الجسدي والنفسي الذي قام به محمد علي بحق المصريين، سواء في جعلهم يعملون بالسخرة في مشروعاته، أو بتجنيدهم لصالح حروبه الغير مسئولة والتي وصلت إلىٰ حد أنه حارب جيش الخلافة آنذاك! فكان المصريون يحدثون بأجسامهم عاهات كي يُعفوا من التجنيد! يبررون كل ذلك بأنه كان يريد تثبيت حكمه والعبور بمصر إلىٰ التمدن الحديث والحضارة!

ولسنا بصدد التتبع التاريخي لفترة محمد علي، بل ما يعنينا كما ذكرنا

---

(١) تطور المجتمع المصري من الإقطاع إلىٰ ثورة ٢٣ يوليو، د. أحمد أنيس، (ص٦٥، ٧٩).

هو تسليط الضوء علىٰ ما أخفاه المؤرخون العلمانيون والقوميون من حقيقة محمد علي.

وبهذا الصدد نذكر رأي الشيخ محمد عبده؛ فيقول ﷺ ملخصًا رأيه في محمد علي وفترة حُكمه:

«ما الذي صنع محمد علي؟ لم يستطع أن يحيي ولكن استطاع أن يميت!

كان معظم قوة الجيش معه وكان صاحب حيلة بمقتضىٰ الفطرة، فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب علىٰ إعدام كل رأس من خصومه، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر علىٰ من كان معه أولًا وأعانه علىٰ الخصم الزائل فيمحقه، وهكذا حتىٰ إذا سُحقت الأحزاب القوية وجه عنايته إلىٰ رؤساء البيوت الرفيعة، فلم يدَع منها رأسًا يستتر فيه ضمير (أنا).

واتخذ من المحافظة علىٰ الأمن سبيلًا لجمع السلاح من الأهلين، وتكرر ذلك منه مرارًا حتىٰ فسد بأس الأهالي، وزالت ملكة الشجاعة منهم، وأجهز علىٰ ما بقي في البلاد من حياة في أنفس بعض أفرادها، فلم يُبقِ في البلاد رأسًا يعرف نفسه حتىٰ خلعه من بدنه، أو نفاه مع بقية بلده إلىٰ السودان فهلك فيه.

أخذ يرفع الأسافل ويعليهم في البلاد والقرىٰ، كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم، حتىٰ انحط الكرام وساد اللئام، ولم يبق في البلاد إلا آلات له يستعملها في جباية الأموال. وجمع العساكر بأية طريقة وعلىٰ أي وجه.

فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة؛ مِن رأي وعزيمة واستقلال نفسي؛ ليصيّر البلاد المصرية جميعها إقطاعًا واحدًا له ولأولاده، علىٰ أثر إقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة.

ماذا صنع بعد ذلك؟

اشرأبت نفسه لأنْ يكون ملكًا غير تابع للسلطان العثماني؛ فجعل من العُدة لذلك أن يستعين بالأجانب من الأوربيين؛ فأوسع لهم في المجاملة، وزاد لهم في الامتياز، خارجًا عن حدود المعاهدات المنعقدة بينهم وبين الدولة العثمانية، حتىٰ صار كل صعلوك منهم -لم يكن يملك قوت يومه- ملكًا من الملوك في بلادنا يفعل ما يشاء ولا يُسأل عما يفعل.

وصغرت نفوس الأهالي بين أيدي الأجانب بقوة الحاكم، وتمتع الأجنبي بحقوق الوطني التي حُرم منها، وانقلب الوطني غريبًا في داره، غير مطمئن في قراره؛ فاجتمع علىٰ سكان البلاد المصرية ذلان:

ذلٌّ ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة.

وذلٌّ سامهم الأجنبي إياه ليصل إلىٰ ما يريده منهم غير واقف عند حد أو مردود إلىٰ شريعة.

قالوا: إنه أطلع نجم العلم في سماء البلاد!

نعم، عُني بالطب لأجل الجيش، والكشف علىٰ المجني عليهم في بعض الأحيان عندما يراد إيقاع الظلم بمتهم!

وعُني بالهندسة لأجل الري، حتىٰ يدبر مياه النيل بعض التدبير، ليستغل إقطاعه الكبير!

هل تَفكر يومًا في إصلاح اللغة؟ عربية أو تركية أو أرنؤودية؟

هل تفكر في بناء التربية علىٰ قاعدة من الدين أو الأدب؟

هل خطر في باله أن يجعل للأهالي رأيًا في الحكومة في عاصمة البلاد أو أمهات الأقاليم؟

هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة يُقام بها الشرع ويستقر العدل؟

لم يكن شيء من ذلك؛ بل كان رجال الحكومة إما من الأرنؤود، أو الجراكسة، أو الأرمن المورالية، وما أشبه هذه الأوشاب، وهم الذين يسميهم بعض الأحداث من أنصاره اليوم دُخلاء.

وكانوا يحكمون بما يهوون، لا يرجعون إلىٰ شريعة ولا قانون، وإنما يبتغون مرضاة الأمير صاحب الإقطاع الكبير.

أين البيوت المصرية التي أقيمت في عهده علىٰ قواعد التربية الحسنة؟

أين البيوت المصرية التي كانت لها القَدَم السابقة في إدارة حكومة أو سياستها أو سياسة جندها، مع كثرة ما كان في مصر من البيوت الرفيعة العماد الثابتة الأوتاد؟!

أرسل جماعة من طلاب العلم إلىٰ أوربا ليتعلموا فيها؛ فهل أطلق لهم الحرية أن يبثوا في البلاد ما استفادوا؟

كلا، ولكنه اتخذهم آلات تصنع له ما يريد، وليس لها إرادة فيما تصنع.

وُجد بعض الأطباء الممتازين وهم قليل، ووجد بعض المهندسين

الماهرين وليسوا بكثير، والسبب في ذلك أن محمد علي ومن معه لم يكن فيهم طبيب ولا مهندس، فاحتاجوا إلىٰ بعض المصريين، ولم يكن أحد من الأعوان مسلطًا علىٰ المهندس عند رسم ما يلزم من الأعمال، ولا علىٰ الطبيب عند تركيب أجزاء العلاج، فظهر أثر استقلال الإرادة في الصناعة عند أولئك النفر القليل من النابغين، وكان ذلك مما لا تُخشىٰ عاقبته علىٰ المستبدين!

هل كانت له مدرسة لتعليم الفنون الحربية؟ أين هي؟ وأين الذين نبغوا من طلابها؟ فإن وُجد أحد نابغ، فهل هو من المصريين؟ عدّوا إن شئتم أحياءً أو أمواتًا!

وُجد كثير من الكتب المترجمة في فنون شتىٰ من التاريخ والفلسفة والأدب، ولكن هذه الكتب أودعت في المخازن من يوم طبعت، وأغلقت عليها الأبواب إلىٰ أواخر عهد إسماعيل باشا، فأرادت الحكومة تفريغ المخازن منها، وتخفيف ثقلها عنها، فنثرتها بين الناس، فتناول منها من تناول، وهذا يدلنا علىٰ أنها ترجمت برغبة بعض الرؤساء من الأوربيين الذين أرادوا نشر آدابهم في البلاد لكنهم لم ينجحوا؛ لأن حكومة محمد علي لم توجِد في البلاد قراء ولا منتفعين بتلك الكتب والفنون!

كانوا يختطفون تلامذة المدارس من الطرق وأفناء القرىٰ[1] كما يختطفون عساكر الجيش، فهل هذا مما يحبب القوم في العلم ويرغبهم في

(١) يُقال «هو من أفناء الناس»: إذا لم يُعلم من هو.

إرسال أولادهم إلىٰ المدارس؟ لا بل كان يخوفهم من المدرسة كما كان يخيفهم من الجيش!

حمل الأهالي علىٰ الزراعة، ولكن ليأخذ الغلات، ولذلك كانوا يهربون من ملك الأطيان كما يهرب غيرهم من الهواء الأصفر، والموت الأحمر. وقوانين الحكومة لذلك العهد تشهد بذلك.

يقولون: إنه أنشأ المعامل والمصانع!

ولكن هل حبب إلىٰ المصريين العمل والصنعة حتىٰ يستبقوا تلك المعامل من أنفسهم؟ وهل أوجد أساتذة يحفظون علوم الصنعة وينشرونها في البلاد؟ أين هي؟ ومن كانوا؟ وأين آثارهم؟

لا، بل بغّض إلىٰ المصريين العمل والصنعة بتسخيرهم في العمل والاستبداد بثمرته؛ فكانوا يتربصون يومًا لا يُعاقَبون فيه علىٰ هجر المعمل والمصنع لينصرفوا عنه ساخطين عليه، لاعنين الساعة التي جاءت بهم إليه.

يقولون: إنه أنشأ جيشًا كبيرًا، فتح به الممالك، ودوَّخ به الملوك، وأنشأ أسطولًا ضخمًا تُثقل به ظهور البحار، وتفتخر به مصر علىٰ سائر الأمصار!

فهل علَّم المصريين حب التجنيد، وأنشأ فيهم الرغبة في الفتح والغلب، وحبب إليهم الخدمة في الجندية وعلمهم الافتخار بها؟

لا، بل علّمهم الهروب منها، وعلّم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينوحوا عليهم، معتقدين أنهم يُساقون إلىٰ الموت، بعد أن كانوا ينتظمون في

أحزاب الأمراء ويحاربون ولا يبالون بالموت أيام حكم المماليك، وكان من ينتظم في الجندية علىٰ عهد «محرر مصر» لا يخرج منها إلا بالموت!

هل شعر مصري بعظمة أسطوله أو بقوة جيشه، وهل خطر ببال أحد منهم أن يضيف ذلك إليه بأن يقول: هذا جيشي وأسطولي أو جيش بلدي أو أسطوله؟

كلا! لم يكن شيء من ذلك، فقد كان المصري يعد ذلك الجيش وتلك القوة عونًا لظالمه؛ فهي قوة خصمه، كذلك كان يعدها كل عثماني في مصر أو في غير مصر!

ليقل لنا أنصار الاستبداد، كم كان في الجيش من المصريين الذين بلغوا في رتب الجندية إلىٰ رتبة البكباشي علىٰ الأقل؟ فما أثر ذلك في حياة مصر والمصريين إلا أسوأ الأثر، أثر كله شر في شر؛ لذلك لم تلبث تلك القوة أن تهدمت واندثرت.

ظهر الأثر العظيم عندما جاء الإنكليز لإخماد ثورة عرابي، دخل الإنكليز مصر بأسهل ما يدخل به دامر علىٰ قوم[1]، ثم استقروا ولم توجد في البلاد نخوة في رأس تثبت لهم أن في البلاد من يحامي عن استقلالها، وهو ضد ما رأيناه عند دخول الفرنساويين إلىٰ مصر، وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الأولىٰ والموت الأخير.

لا يستحيي بعض الأحداث المنافقين من أن يقول إن محمد علي جعل من جدران سلطانه بنية من الدين!

---

(١) الدامر هو مَن يدخل دون استئذان.

أيُّ دين كان دعامة لسلطان محمد علي؟!

دين التحصيل[1]؟! دين الكرباج؟! دين مَن لا دين له إلا ما يهواه ويريده؟!

وإلا فليقل لنا أحد من الناس، أي عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة للدين الإسلامي الجليل؟

لا يذكرون إلا مسألة الوهابية! وأهل الدين يعلمون أن الإغارة فيها كانت علىٰ الدين لا للدين!

نعم، إن الوهابية غلوا في بعض المسائل غلوًّا أنكره عليهم سائر المسلمين، وما كان محمد علي يفهم هذا ولا سفك دماءهم لإرجاعهم إلىٰ الاعتدال! وإنما كانت مسألة سياسية محضة، تبعها جراءة محمد علي علىٰ سلطانه العثماني، فكان معه ما كان مما هو معروف.

نعم، أخذ ما كان للمساجد من الرزق، وأبدلها بشيء من النقد يسمىٰ «فائض رزنامه»، لا يساوي جزءًا من الألف من إيرادها. وأخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقي له اليوم لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه في السنة[2]، وقرر له بدل ذلك ما يساوي نحو أربعة آلاف جنيه في السنة.

وقصارىٰ أمره في الدين أنه كان يستميل بعض العلماء بالخِلَع، أو إجلاسهم علىٰ الموائد لينفي مَن يريد منهم إذا اقتضت الحال ذلك، وأفاضل العلماء كانوا عليه في سخط ماتوا عليه.

---

(١) يعني تحصيل الضرائب الباهظة بالقوة والظلم.

(٢) وذلك مبلغ مالي عظيم جدًّا أيام الشيخ محمد عبده.

ولا أظن أن أحدًا يرتاب -بعد عرض تاريخ محمد علي- علىٰ بصيرته أن هذا الرجل كان تاجرًا زارعًا، وجنديًا باسلًا، ومستبدًا ماهرًا؛ لكنه لمصر قاهرًا، ولحياتها الحقيقية معدمًا، وكل ما نراه الآن فيها مما يسمىٰ حياة فهو من أثر غيره[1].

• سادسًا: أكذوبة التخلف العلمي قبل مجيء محمد علي[2]:

يصوّر المؤرخون العلمانيون فترة ما قبل محمد علي -وخاصة من بداية تابعية مصر للدولة العثمانية- علىٰ أنها فترة ظلام دامس، وجاهلية، وتخلف عظيم لم تشهده مصر من قبل!

ويزعمون ذلك ليثبتوا فشل فكرة تابعية مصر للخلافة الإسلامية، وضرورة أن تكون مستقلة بقوميتها الضيقة عن الرابطة الإسلامية، كما كان يحاول أن يفعل محمد علي لكنه لم ينجح نجاحًا كاملًا، وللطعن في الدولة العثمانية بصفتها الدولة الإسلامية الأم التي تطبق شريعة الإسلام -وهو ما يتنافىٰ مع أفكارهم العفنة-، ولتبيين فضل ما فعله محمد علي من الانفتاح علىٰ أوروبا التي تطبق العلمانية في أبهىٰ صورها.

---

(١) مذكرات الإمام محمد عبده، (ص٤٧-٥٤)، تاريخ الأستاذ الإمام، محمد رشيد رضا، (٢/ ٣٨٥-٣٨٩).

(٢) أفدت في هذا العنصر من الكتب التالية: الحركة العلمية في مصر في القرن السابع عشر، ناصر عبدالله. الفكر المصري في القرن الثامن عشر بين الجمود والتجديد، د. عبدالله عزباوي. التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، د. عبدالغني محمود. تاريخ مصر الإسلامية، د. جمال الدين الشيال. تاريخ مصر من العصر الفرعوني حتىٰ العصر الحديث، عبدالمنعم ضيفي.

ولقد ساعد علىٰ ترسيخ تلك الفكرة ما كتبه الغربيون والفرنسيون خاصة، في كتاب (وصف مصر) وغيره من كتاباتهم، التي تم حشوها بالأكاذيب التي ليس لها حد عن مصر والمسلمين.

وقد نقل المؤرخون والكُتاب العلمانيون كثيرًا من ترهاتهم عن كُتب الفرنسيين، الذين بدورهم حرصوا علىٰ إظهار المسلمين في صورة كئيبة متخلفة؛ ليبرروا احتلالهم والخير المزعوم الذي نزل علىٰ مصر بمجيئهم!

ولا ينكر أحد وجود مشكلات واضطرابات حدثت في تلك الفترة، ولا ننفي وقوع الجهل والخرافات، ولكنها لم تكن بتلك الصورة القاتمة، ولم يكن محمد علي مبدد الظلام الحالك! فكانت توجد إيجابيات كثيرة، خاصة في الجانب العلمي الذي نحن بصدد الحديث حوله، فلماذا لم يقم العلمانيون بإبرازها كما غالوا في إبراز الجوانب السلبية؟

لقد كانت الحركة العلمية في مصر مزدهرة ورائعة منذ الفتح الإسلامي، وكانت قبلة لطلاب العلم يقصدونها لينهلوا من علمائها في فروع كثيرة من العلم.

وقد حدث هذا الازدهار العلمي بعد أن كانت مصر تعيش فترة من أحلك الفترات التي مرت بها، فقد قام الرومان الذين حكموا مصر قرابة سبعة قرون باستنزاف خيرات البلاد، وفرضوا ضرائب باهظة جدًا، وسخّروا المصريين للعمل دون أجر، واستعبدوهم مع الشدة في المعاملة والإذلال، وحرموا أهل مصر من جميع حقوقهم.

ولما اعتنق فريق من المصريين المسيحية، تعرضوا للتعذيب الوحشي علىٰ يد الرومان، وخاصة في عهد (نيرون) (٥٤م-٦٨م)، واشتد

الاضطهاد في عهد (دقلديانوس) (٢٨٤-٣٠٥م)، الذي هدم الكنائس، وأعدم كثيرًا من المسيحيين، حتىٰ بلغ عدد مَن قُتلوا في عهده قرابة ثمانمائة ألف! ولذلك يُسمىٰ عصره بعصر الشهداء.

ولما اعتنق الرومان المسيحية واتخذوها دينًا رسميًا في عهد (قسطنطين).. لم يسلم أيضًا المصريون من الاضطهاد والتعذيب الوحشي، والسبب هذه المرة هو الاختلاف في المذهب الديني، فبينما اعتنق الرومان المذهب الملكاني الذي يقول إن للمسيح طبيعتين، طبيعة بشرية وأخرىٰ إلهية، نجد أن المصريين اعتنقوا المذهب اليعقوبي، الذي يقضي بأن للمسيح طبيعة واحدة فقط، إلهية وبشرية!

وعندما دخل سيدنا عمرو بن العاص ﷺ مصرَ فاتحًا واستولىٰ عليها تمامًا.. رحّب به أغلبية المصريين وشكروا له إنقاذهم من ظلم الرومان ووحشيتهم، وكان ذلك عام ٢١ الموافق ٦٤١م.

وأنشأ عمرو بن العاص مدينة الفسطاط كأول عاصمة لمصر الإسلامية، وقد أصبحت بعد اكتمال نموها مركزًا لنشاط حضاري مزدهر في مختلف نواحي الحياة، وغدت مركزًا من أهم المراكز العلمية في العالم الإسلامي، يتوافد عليها العلماء والأطباء وطلاب المعرفة من مختلف الأقطار.

ففي العلوم الدينية:

برز من العلماء الصحابي الجليل عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ، وكان واسع الثقافة، ويقرأ بالسريانية، إلىٰ جانب تميزه في علوم الشريعة لمصاحبته النبي ﷺ.

كذلك برز: القاضي سليم بن عتر التجيبي، والفقيه يزيد بن أبي حبيب الأزدي، وعبدالله بن لهيعة، عالم الديار المصرية وقاضيها ومحدثها كما يصفه ابن إياس صاحب النجوم الزاهرة، والليث بن سعد، الذي يقول عن الشافعي: «الليث أفقه من مالك إلا ان أصحابه لم يقوموا به»، أي لم يدوّنوا مذهبه بالقدر الكافي.

ووفد علىٰ مصر الإمام الشافعي ﷺ، وكان يدرّس بجامع عمرو بن العاص، وأقام بمصر نحو خمس سنوات، كثر فيها تلاميذه، ومن أشهرهم: البويطي، والمزني، والربيع المرادي.

ومن الذين برزوا أيضًا صاحب قراءة «ورش»، وهو الإمام عثمان بن سعيد المصري، وكان من أصل قبطي، وانتهت إليه رئاسة الإقراء بالديار المصرية في زمانه.

وفي علم التاريخ:

وُجد عبد الرحمن ابن عبدالحكم صاحب كتاب «فتوح مصر والمغرب والأندلس»، وكذلك الربيع تلميذ الشافعي صاحب كتاب «در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة».

وكذلك: عمار بن وسيمة المصري، أحد تلاميذ الليث بن سعد، وأبو سعيد عبدالرحمن بن أحمد بن يونس، وأبو جعفر أحمد بن يوسف الشهير بابن الداية، وأبو محمد عبدالله بن محمد المديني البلوي، وأبو عمر محمد بن يوسف الكندي، والحسن بن زولاق، وصاحب السيرة المشهورة أبو محمد عبدالملك بن هشام، وغيرهم.

وفي الأدب:

وفد كثير من الشعراء وأئمة اللغة إلىٰ مصر، كالإمام الشافعي كما سبق، وجميل بثينة، وكثير عزة، وعبدالله بن قيس الرقيات، وأبي نواس، والمتنبي، وسيبويه العلامة النحوي، كما نشأ فيها الشاعر الكبير أبو تمام، وغيرهم.

وفي أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري.. كانت في الفسطاط نخبة من العلماء والأدباء والشعراء والمؤرخين، وقد وفد علىٰ مصر في أواخر القرن الرابع الجغرافي والرحالة العربي المقدسي، ووصف في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» نشاط الحياة العلمية في مساجد الفسطاط، فقال:

«وبين العشائين، جامعهم مغتص بحِلَق الفقهاء وأئمة القراء، وأهل الأدب والحكمة، دخلتُه مع جماعة من المقادسة، فربما جلسنا نتحدث فنسمع النداء من الوجهين: (دوروا وجوهكم إلىٰ المجلس). فننظر فإذا نحن بين مجلسين! علىٰ هذا جميع المساجد، وعددْنا فيه مائة وعشرة مجالس!»[1].

وفي الطب:

ازدهر الطب في عصر بني طولون، لتشجيعهم العلماء، وعناية أحمد بن طولون بالحالة الصحية في مصر، فقد أنشأ أول بيمارستان، ونبغ في عهده عدد من الأطباء، أشار إلىٰ بعضهم البلوي، منهم الحسن

---

(١) أحسن التقاسيم، (ص٢٠٥).

بن زيرك، وكبير أطبائه سعد بن توفيل[1].

وفي الهندسة:

تثبت المنشآت العمرانية الكثيرة والعظيمة، التي أقامها أحمد بن طولون وابنه خمارويه، مدىٰ ما وصل إليه المهندسون في مصر من تقدم علمي، ومن أشهر هؤلاء المهندسين: سعيد بن كاتب الفرغاني.

كما وفد علىٰ مصر العالم الكبير الحسن بن الهيثم، صاحب التصانيف والتآليف في علم الهندسة، وقد بلغت مؤلفاته نحو مائتي كتاب، في الرياضة والطبيعة، والفلسفة، وغيرها من العلوم.

وفي الفلك:

نبغ علي عبدالرحمن بن يونس، والذي سبق بستة قرون العالم الإيطالي جاليليو إلىٰ اختراع بندول الساعة، وقد قال بهذا كثير من الباحثين الأوروبيين الذين ألفوا في تاريخ العلم[2]. وكان له مرصد خاص جنوب الفسطاط يقوم فيه برصد الكواكب وإجراء بحوثه.

دار الحكمة:

وقد كانت جميع العلوم السابقة وغيرها موجودة بدار الحكمة، التي أنشأها الحاكم بأمر الله عام ٣٩٥هـ، والذي قد أبدىٰ في أول حُكمه تسامحًا مع أهل السُّنة، حتىٰ أنه جلب كتبًا كثيرًا تتعلق بالسنة إلىٰ دار الحكمة.

---

(١) سيرة أحمد بن طولون، البلوي، (ص٣١٩-٣٢٥).

(٢) العلوم عند العرب، قدري حافظ طوقان، (ص١٤٢).

ومن علماء السنة الذين اشتغلوا بالتدريس في دار الحكمة: الحافظ أبو محمد عبدالغني، وكان من كبار علماء الحديث، ومن مؤلفاته التي لا يستغني عنها طالب الحديث كتاب «مشتبه النسبة»، وكذلك أبو أسامة جنادة محمد اللغوي، والذي كان يدرس أيضًا بجامع عمرو بن العاص، وأبو الحسن بن سليمان الأنطاكي النحوي، وغيرهم.

وجلس أيضًا في دار الحكمة للتدريس جمع كبير من الفقهاء والفلكيين وعلماء اللغة والأطباء، وجُمع فيها من الكتب في سائر العلوم ما لم يُرَ مثله في ذلك الحين.

وقد قُسمت هذه الدار إلىٰ عدة قاعات للمحاضرات، حسب العلوم التي تُدرس، من طب وفلك وفلسفة وفقه وحديث وقراءات، وغير ذلك.

ولكن الحاكم بأمر الله بعد ذلك انقلب علىٰ أهل السنة، فأمر بقتل جميع علماء أهل السنة في دار الحكمة! فقتل أبا أسامة جنادة محمد اللغوي، وأبا الحسن بن سليمان الأنطاكي النحوي، وغيرهم، واستطاع الحافظ عبدالغني أن يهرب.

وتوافرت في ذلك الحين المكتبات العظيمة العامرة بالكتب في شتىٰ الفنون، في السنة، والفقه علىٰ سائر المذاهب، واللغة، والتاريخ، والكيمياء، وغير ذلك، حتىٰ ذكر ابن السنبدي -الذي تولىٰ مهمة ترميم الكتب وفهرستها- أنه رأىٰ من كتب النجوم والفلسفة خاصة ستة آلاف وخمسمائة جزء![1].

---

(١) تاريخ الحكماء، للقفطي، (ص٤٤٠).

ويصف أبو شامة خزائن الكتب بأنها كانت من عجائب الدنيا؛ ولم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر، ومن عجائبها أنه كان بها ألف ومئتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري، ويقال إنها كانت تحوي مليوني كتاب[(١)].

وعندما خرج الفاطميون من مصر اشترىٰ القاضي الفاضل من هذه الخزانة مائة ألف مجلد، وضعها في مدرسته التي أنشأها بعد ذلك[(٢)].

وإذا ابتعدنا عن القاهرة قليلًا ونظرنا إلىٰ الإسكندرية .. نجد الفقيه المالكي الكبير أبا بكر الطرطوشي، الذي وفد عليه طلبة العلم من بلاد كثيرة.

وكذلك تلميذه أبا الطاهر بن عوف، الذي كان إمام عصره وفريد دهره في الفقه المالكي، وكان مدرس المدرسة الحافظية بالأسكندرية، والتي اشتملت علىٰ مساكن داخلية للطلبة، كي تكون «مستقرًا لهم ومقامًا ومثوىٰ لجميعهم، ووطنًا ومحلًا لكافتهم وسكنًا»[(٣)].

ومن العلماء الذين وفدوا علىٰ الأسكندرية وأقاموا بها: الحافظ السِّلفي، وقد قصده طلبة علم الحديث من كل مكان لينهلوا من علمه، وكان قائمًا علىٰ المدرسة العادلية، «وكان أوحد زمانه في علم الحديث وأعلمهم بقوانين الرواية»[(٤)].

---

(١) ذكر ذلك أبو شامة في الروضتين في أخبار الدولتين، (١/ ٢٠٠).

(٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المقريزي، (١/ ٤٠٨).

(٣) صبح الأعشىٰ، للقلقشندي، (١٠/ ٤٥٨-٤٥٩).

(٤) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، للسيوطي، (١/ ٢٠٠).

ثم كان عصر الدولة الأيوبية والمماليك عصرًا حضاريًا واسع النطاق، شمل النواحي السياسية والاقتصادية والدينية والعلمية، وأدىٰ إلىٰ قيام نهضة علمية كبيرة في مصر، شملت الآداب والعلوم والفنون، وبلغت أوجها في عصر سلاطين المماليك، حتىٰ أن بعض المؤرخين قد أطلق عليها النهضة الثانية في الإسلام(١).

فبنىٰ صلاح الدين الأيوبي بجوار مسجد عمرو بن العاص المدرسة الناصرية للفقه الشافعي، والمدرسة القمحية للفقه المالكي، كما أنشأ المدرسة السيوفية للفقه الحنفي، وغير ذلك من المدارس، ورتّب بعض الأراضي والعقارات للصرف من ريعها علىٰ المدارس والمدرسين والطلبة.

وأنشأ الوزير القاضي الفاضل مدرسة لتدريس الفقه المالكي والشافعي بدرب ملوخيا، وفتحت أبوابها في مستهل شهر محرم عام ٥٨٠هـ، وكانت بتلك المدرسة مكتبة ضخمة يقال إنها كانت تحوي مائة ألف مجلد، وجعل في المدرسة قاعة للإقراء، تولىٰ الإقراء فيها العالم الكبير الإمام الشاطبي.

وكان السلطان الملك الكامل الأيوبي علىٰ اهتمام بالغ بالعلم، وكان يُحدّث بالإجازة عن نخبة من العلماء، وكان يبيت عنده بالقلعة مجموعة من العلماء ينصب لهم أسرّة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه.

وبعد توقيع الصلح مع الإمبراطور فريدرك الثاني عام ٦٢٦هـ -وكان

---

(١) تاريخ مصر الإسلامية، د. سعيد عبدالفتاح عاشور، (ص٣٤٥-٣٤٨).

الأخير متبحرًا في علم الهندسة والحساب والرياضيات- أرسل إلىٰ الملك الكامل عدة مسائل مشكلة في الهندسة والفلسفة والرياضيات، فعرضها الكامل علىٰ الشيخ علم الدين قيصر الحنفي فكتب له جوابها.

وأنشأ الملك الكامل ببين القصرين أول مدرسة متخصصة في علم الحديث، وذلك عام ٦٢١هـ، وسميت بدار الحديث الكاملية.

وقام الملك الصالح بإنشاء المدرسة الصالحية والتي دُرِّست فيها المذاهب الفقهية الأربعة، فكانت تشتمل علىٰ أربعة أواوين، كل إيوان منها خاص لطلبة مذهب.

وفي عصر المماليك ظهرت كثير من المنشآت الدينية، من مساجد وتكايا ومدارس وأربطة وحلقات العلم، تقوم علىٰ تدريس العلوم الدينية، وتقديم الخدمات لطلبة العلم، هذا إضافة إلىٰ الكتب الدينية التي صدرت آنذاك.

هذه نبذة سريعة عن الحياة العلمية في مصر قبل مجيء العثمانيين، والآن نستعرض باختصار أهم أسماء العلماء الذين برزوا في مصر خلال حكم العثمانيين وقبل أن تأتي الحملة الفرنسية ومحمد علي، وسوف نسلط الضوء -سعيًا لعدم التشعب- علىٰ ثلاثة علوم فقط، وهي الفلك والرياضيات والطب.

١) علم الفلك:

برع في علم الفلك خلال حكم العثمانيين لمصر علماء كثيرون، نذكر منهم على سبيل المثال:

١- سراج الدين عمر الفارسكوري (توفي ١٠١٨هـ الموافق ١٦٠٩م)، ومن مؤلفاته في علم الفلك: (ناشئة الليل ونظم الارتشاف).

٢- يحيى الدين بن عبدالقادر بن محمد بن أحمد الفيومي العوفي (ت: ١٠٢٢هـ-١٦١٤م)، ومن مؤلفاته: (جداول اختلاف منظر القمر).

٣- عبدالله بن عبدالرحمن الدنوشري (ت: ١٠٢٥ه-١٦١٦م)، ومن مؤلفاته: (جوهرة النفيس في معرفة التاريخ وحل درجة الشمس).

٤- مرعي الحنبلي (ت: ١٠٣٣هـ-١٦٢٤م)، ومن مؤلفاته: (نزهة نفوس الأخيار ومطلع شوارق الأنوار).

٥- محمد أحمد العوفي (ت: ١٠٥٠هـ-١٦٤٠م)، وله مؤلف في كيفية استخراج التقاويم.

٦- عبدالله بن أحمد المقدسي الحنبلي الأزهري (ت: ١٠٨٠هـ-١٦٦٩م)، ومن مؤلفاته: (تحفة اللبيب وبغية الأريب في المربع والمجيب).

٧- محمود بن قطب المحلي القباني (ت: ١٠٨٠هـ-١٦٦٩م)، ومن مؤلفاته رسالة في تبيين الوقت الذي تطلع فيه الكواكب الثابتة.

٨- عبدالمنعم النبتيتي الحنفي (ت: ١٠٨٤هـ-١٦٧٣م)، ومن مؤلفاته: (التقويم الفلكي).

٩- عبدالوهاب المقري السراجي، ومن مؤلفاته: (تحبير انكشاف

اللبس في تحرير انكشاف الشمس).

١٠- أحمد الشرقي السفاقسي، ومن مؤلفاته: (الدرر القاصرات في العمل بالربع المقنطرات في جميع الأقطار والجهات)، والذي فرغ منه عام (١٠٩٣هـ-١٦٨٢م).

١١- حسن بن علي بن محمد بن عبدالرحمن الجبرتي -(وهو جد المؤرخ الجبرتي)- (ت: ١٠٩٦هـ-١٦٨٥م)، ومن مؤلفاته: (موقع عقرب الساعة مرتبًا على الشهور القبطية).

١٢- رضوان أفندي الفلكي (ت: ١١٢٢هـ-١٧٠٠م)، ومن مؤلفاته: (أسنىٰ المواهب في تقويم الفوايد).

١٣- يوسف الكلارجي (ت: ١١٥٣هـ-١٧٤٠م)، ومن مؤلفاته: (الظلال ورسم المنحرفات والبسائط والمزاول والأسطحة).

١٤- رمضان السفطي الخوانكي (ت: ١١٥٨-١٧٤٥م)، ومن مؤلفاته: (رشف الزلال في معرفة استخراج قوس الهلال).

١٥- حسن بن إبراهيم بن حسن بن علي بن محمد بن عبد الرحمن الجبرتي -(وهو والد المؤرخ الجبرتي)- (ت: ١١٨٨هـ-١٧٧٤م)، ومن مؤلفاته: (رسالة المعدل في علم الميقات والجزئيات).

١٦- أحمد السجاعي (ت: ١١٩٧هـ-١٧٨٣م)، ومن مؤلفاته: (هداية أولي البصائر والأبصار في معرفة أجزاء الليل والنهار).

١٧- مصطفىٰ الخياط (ت: ١٢٠٣هـ-١٧٨٩م)، ومن مؤلفاته: (جداول حل عقود مقومات القمر بطريق الدر اليتيم لابن المجدي).

٢) علم الرياضيات:

واشتهر من العلماء المتخصصين في الرياضيات في مصر تحت حكم العثمانيين الكثير، منهم:

١- محمد بن علي الشبراملسي المالكي (ت: ١٠٢١هـ-١٦١٤م)، ومن مؤلفاته في علم الرياضيات: (الدرة البهية في وضع بسائط فضل الدائر بالطرق الهندسية).

٢- عبدالقادر بن محمد بن أحمد بن زين الفيومي (ت: ١٠٢٢هـ-١٦١٣م)، ومن مؤلفاته: شرح علىٰ متن (المقنع في الجبر والمقابلة).

٣- عبدالرحمن بن عبدالله السكري (ت: ١٠٣٤هـ-١٦٢٤م)، ومن مؤلفاته: (تحصيل الانتفاع وغاية الارتفاع في وضع المقاييس ووضع الأرباع).

٤- علي بن أبي بكر بن الجمال الأنصاري الخزرجي، ومن مؤلفاته: (فتح الوهاب في شرح نزهة الأحباب)، ألفه عام (١٠٣٩هـ-١٦٢٩م).

٥- علي الشبراملسي، ومن مؤلفاته: (شرح أرجوزة البحيري في حل الأعداد)، ألفه عام (١٠٠٩هـ-١٦٠٠م).

٦- زين العابدين بن سري الدين الدري المالكي، ومن مؤلفاته: (شرح اللمع لابن الهايم)، ألفه عام (١٠٦٧هـ-١٦٥٦م).

٧- محمد الغمري، ومن مؤلفاته: (القواعد المقنعة في تحويلات الحسابات الأربعة)، ألفه عام (١١٢٤هـ-١٧١٢م).

٨- رمضان السفطي الخوانكي، (ت: ١١٥٨هـ-١٧٤٥م)، ومن

مؤلفاته: (مطالع البدور في القسمة والجذور).

٩- عبداللطيف الكتبي (ت: ١١٦٢هـ-١٧٤٩م)، ومن مؤلفاته: (المنهج الأقرب لتصحيح موضع العقرب في الحساب والهيئة).

١٠- محمد المنفلوطي، ومن مؤلفاته: (الدرر البهية بحل ألفاظ السخاوية) وهي منظومة في الحساب، ألفه عام (١١٦٣هـ-١٧٥٠م).

١١- حسين المحلي (ت: ١١٧٠هـ-١٧٥٧)، ومن مؤلفاته: (فتح رب البرية علىٰ متن السخاوية).

١٢- محمد الحنفي (ت: ١١٨١هـ-١٧٦٧م)، ومن مؤلفاته: (فرائد عوائد جبرية علىٰ شرح السبط للياسمينية).

١٣- حسن الجبرتي (ت: ١١٨٨هـ-١٧٧٤م)، ومن مؤلفاته: (العقد الثمين فيما يتعلق بالموازين).

١٤- أحمد الدمنهوري (ت: ١١٩٢هـ-١٧٧٨م)، ومن مؤلفاته: (إحياء الفؤاد بمعرفة خواص الأعداد).

١٥- أحمد السجاعي (ت: ١١٩٧هـ-١٧٨٣م)، ومن مؤلفاته منظومة في الكسور وشرحها.

١٦- محمد بن يوسف الغرقي، ومن مؤلفاته: (حاشية علىٰ شرح السبط المارديني علىٰ اللمع لابن الهائم).

١٧- محمد بن موسىٰ الجناحي (ت: ١٢٠٠هـ-١٧٨٦م)، ومن مؤلفاته: (رسالة في تحويل النقود بعضها إلىٰ بعض).

٣) علم الطب:

١- محمد عبد الرءوف المناوي (ت: ١٠٣١-١٦٢١م)، ومن مؤلفاته في الطب: (بغية المحتاج إلىٰ معرفة أصول الطب والعلاج).

٢- مرعي الحنبلي (ت: ١٠٣٣هـ-١٦٢٣م)، ومن مؤلفاته: (ما يفعله الأطباء والداعون لدفع أشرار الطاعون).

٣- ابن الصائغ المصري أحمد بن سراج الدين (ت: ١٠٣٦هـ-١٦٢٥م)، ومن مؤلفاته: (رسالة في حكم طب أهل مصر وفي حكم الفصول الأربعة).

٤- مدين بن عبدالرحمن القوصوني (ت: ١٠٤٤هـ-١٦٣٤م)، ومن مؤلفاته: (قاموس الأطباء وناموس الألباء في المفردات).

٥- شهاب الدين أحمد القليوبي (ت: ١٠٦٩هـ-١٦٥٨م)، ومن مؤلفاته: (الجامع في الطب).

٦- نوح الرومي (ت: ١٠٧٠هـ-١٦٥٩م)، ومن مؤلفاته: (رفع الظنون عن حقيقة الطاعون).

٧- أحمد الديربي (ت: ١١٥١هـ-١٧٣٨م)، ومن مؤلفاته: (فتح ملك المجيد لنفع العبيد).

٨- أحمد الدمنهوري (ت: ١١٩٢هـ-١٧٧٨م)، ومن مؤلفاته: (القول الصريح في علم التشريح).

٩- علي الخياط، وألّف في التشريح عام (١٢١٣هـ-١٧٩٨): (فتح الرحمن في بدء خلق الإنسان).

١٠- حسن العطار (١٢٥٠هـ-١٨٣٤م)، ومن مؤلفاته: (شرح نزهة الشيخ داود في الطب).

هذا غيض من فيض، وللمزيد تُراجع المصادر المذكورة وغيرها من الكتب التي اهتمت برصد الحياة العلمية والفكرية في مصر الإسلامية، والتي تتحدث عن فروع العلم المختلفة، النقلية والعقلية، وأسماء العلماء الذين تميزوا فيها ومؤلفاتهم، وعن المساجد والمدارس والمكتبات التي فتحت أبوابها للعلماء وطلبة العلم.

هذا وينبغي وضع تاريخ العلم نفسه في الحسبان، ومراعاة الظروف والأحوال، وعدم مقارنة ما وصل إليه العلم الآن بما كان عليه في تلك الأزمان.

الفصل الرابع

رفاعة الطهطاوي .. الإسلامي الذي سرقه العلمانيون!

• أولًا: من هو رفاعة وما هي أهميته؟

لا شك أن رفاعة الطهطاوي بإجماع المفكرين العلمانيين هو رائد النهضة العلمية الحديثة في مصر، بل وفي البلاد العربية كافة.

وقد نظّم متحف الحضارات الأوروبية والمتوسطية -الذي افتتحه الرئيس الفرنسي أولاند- في مرسيليا ثاني أكبر مدينة بفرنسا احتفالًا كبيرًا برفاعة الطهطاوي، وذلك في أكتوبر عام ٢٠١٣م، وذلك بصفة رفاعة هو رائد نهضة مصر الحديثة.

ويُعد هذا المتحف أهم مركز ثقافي في مرسيليا، وكان الاحتفال بعنوان: «رفاعة رافع الطهطاوي مونتسكيو العرب»!

وقد عرضوا خلاله فيلمًا تسجيليًا مبهرًا عن حياة رفاعة الطهطاوي، مدته أكثر من ساعة ونصف، وبالطبع كان الفيلم مليئًا بالتدليس!

فماذا لو عرف الفرنسيون أن رفاعة الطهطاوي يصف فرنسا بأنها بلاد

كفر؟ وكذلك أمريكا؟ وغيرها من البلاد غير الإسلامية؟

وماذا لو علموا أن رفاعة ينادي بتطبيق الشريعة الإسلامية في الحكومة والمجتمع ويرىٰ أن خلاف ذلك ضلال مبين؟ ويرىٰ أن إقامة الإسلام هي عين التمدن الحقيقي!

وماذا لو سمعوا رفاعة وهو يقول بعدم جواز تولّي المرأة الرئاسة والقضاء لأنها ناقصة عقل ودين؟

وماذا لو قرأوا له وهو يذم عقائد الفرنسيين ويصف قساوسة فرنسا بالفسق وبأنهم مبتدعة؟

وماذا لو رأوه وهو يقول إن أغلب نساء فرنسا لسن عفيفات، ويذم رجالها لأنهم لا يغارون علىٰ النساء، وأن خماراتها يجتمع فيها أراذل الناس؟

بل وماذا لو علموا أنه يقول عن النصارىٰ إنهم كفار، وإن أقباط مصر جهال وغافلون، وإن الله ابتلاهم بالوخم والوسخ؟!

وماذا لو اطلعوا علىٰ رأيه بوجوب خضوع أهل الذمة من اليهود والنصارىٰ للمسلمين والانكسار لهم؟

وكيف يكون حالهم ورفاعة يقول بأن أول من يُحارَبون هم المشركون ثم الملحدون؟!

ناهيك عن آرائه الأخرىٰ التي ستتعرض لها في السطور التالية!

لا شك أنهم سيُخمدون ذكره ويصفونه بأنه رائد الظلام!

ولكنهم للأسف يعتمدون علىٰ جهل كثير من العامة وممالأة كثير من

«المثقفين»! وكيف لا يفعلون ذلك وهم من أكبر مزوري التاريخ؟!

إن كثيرًا من الآراء التي يعتنقها الإسلاميون والتي يصفها الغربيون والعلمانيون بأنها وقود الإرهاب.. يعتقدها رفاعة الطهطاوي ويتكلم عنها صراحة في كتبه ويؤصل لها!

لذلك كله من الأهمية بمكان تسليط الضوء علىٰ آراء رفاعة التي أخفوها عمدًا بكل صفاقة وفجاجة، وعملوا علىٰ التدليس والتلبيس والاجتزاء.

فمن هو رفاعة الطهطاوي؟

وُلد رفاعة بدوي رافع الطهطاوي في ٧ جمادىٰ الثانية سنة ١٢١٦هـ الموافق ١٥ أكتوبر سنة ١٨٠١م في مدينة طهطا، محافظة سوهاج بصعيد مصر، ونشأ في أسرة كريمة الأصل شريفة النسب، فأبوه ينتهي نسبه إلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام، وأمه فاطمة بنت الشيخ أحمد الفرغلي، ينتهي نسبها إلىٰ قبيلة الخزرج الأنصارية.

حفظ القرآن الكريم، ووجد من أسرة أخواله اهتمامًا كبيرًا؛ حيث كانت زاخرة بالشيوخ والعلماء فحفظ علىٰ أيديهم كثيرًا من المتون العلمية.

ولما بلغ رفاعة السادسة عشرة من عمره التحق بالأزهر وذلك في سنة (١٢٣٢هـ= ١٨١٧م)، وشملت دراسته في الأزهر الحديث والفقه والتصوف والتفسير والنحو والصرف وغير ذلك.

وبعد نصف عام فقط من دراسته بالأزهر، عقد رفاعة درسًا في مسجد

اليوسفي بـ«ملوي»، وكان يشرح فيه كتاب السنوسي «صغرىٰ الصغرىٰ».

وتتلمذ علىٰ يد عدد من علماء الأزهر الكبار، وكان من بينهم من تولىٰ مشيخة الجامع الأزهر، مثل الشيخ حسن القويسني، وإبراهيم البيجوري، وحسن العطار.

فقد درس صحيح البخاري علىٰ الشيخ الفضالي المتوفىٰ ١٨٢٠م (١٢٣٦هـ).

ودرس جمع الجوامع في الأصول ومشارق الأنوار في الحديث، علىٰ الشيخ حسن القويسني الذي تولىٰ مشيخة الأزهر سنة ١٨٣٤م (١٢٥٠هـ).

ودرس الحكم لابن عطاء، علىٰ الشيخ البخاري، المتوفي عام ١٨٤٠م (١٢٥٦هـ).

ودرس مغني اللبيب، وجمع الجوامع، علىٰ الشيخ محمد حيش المتوفىٰ ١٨٥٢م (١٢٦٩هـ).

ودرس شرح ابن عقيل علىٰ الشيخ الدمنهوري المتوفىٰ ١٨٦٩م (١٢٨٦هـ).

ودرس الأشموني علىٰ الشيخ أحمد الدمهوجي الذي تولىٰ مشيخة الأزهر سنة ١٨٣٨م (١٢٥٤هـ)، والمتوفىٰ ١٨٤٨م (١٢٦٤هـ).

ودرس أيضًا علىٰ الشيخ إبراهيم البيجوري الذي تولىٰ مشيخة الأزهر المتوفىٰ ١٨٦٠م (١٢٧٧هـ).

وبعد أن أمضىٰ رفاعة في الأزهر ست سنوات، جلس للتدريس فيه

سنة (١٢٣٧هـ = ١٨٢١ م) وهو في الحادية والعشرين من عمره، وكان درسه غاصًا بالطلبة.

ثم التحق مضطرًا بالجيش ليعمل إمامًا وواعظًا عام ١٢٤٠هـ الموافق ١٨٢٤م.

وفي سنة (١٣٢٤هـ= ١٨٢٦م) ذهب مع بعثة علمية إلىٰ فرنسا لدراسة العلوم والمعارف الإنسانية، والإدارة، والهندسة الحربية، والكيمياء، والطب البشري والبيطري، وعلوم البحرية، والزراعة والعمارة والمعادن والتاريخ الطبيعي، والترجمة.

وبالإضافة إلىٰ هذه التخصصات يدرسون جميعًا اللغة والحساب والرسم والتاريخ والجغرافيا، وقد برع رفاعة في كثير من هذه العلوم.

في سنة ١٨٣١م (١٢٨٣هـ) عاد الطهطاوي إلىٰ مصر، وكانت قد سبقته إلىٰ محمد علي تقارير أساتذته في فرنسا تحكي تفوقه وامتيازه.

وكانت أولىٰ الوظائف التي تولاها بعد عودته من باريس، وظيفة مترجم بمدرسة الطب، ثم انتقل رفاعة الطهطاوي من إلىٰ مدرسة الطوبجية (المدفعية) بمنطقة (طره) كي يعمل مترجمًا للعلوم الهندسية والفنون العسكرية.

وفي سنة ١٢٩٤هـ-١٨٣٣م أنشأ الطهطاوي مدرسة التاريخ والجغرافيا.

وفي سنة ١٨٣٥م (١٢٥١هـ) تم افتتاح مدرسة الترجمة التي عُرفت بعد ذلك بمدرسة الألسن، وتولىٰ رفاعة الطهطاوي نظارتها، وكان يُدرس

فيها علوم الشريعة الإسلامية، واللغة الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والتركية والفارسية، إلىٰ جانب الهندسة والجبر والتاريخ والجغرافيا، وغير ذلك. فكانت أشبه بالجامعة، وكان رفاعة هو المشرف عليها.

وظل جهد رفاعة يتنامىٰ؛ ترجمةً، وتخطيطًا، وإشرافًا علىٰ التعليم والصحافة، فأنشأ أقسامًا متخصصة لترجمة (الرياضيات-العلوم الطبية والطبيعيات-العلوم الاجتماعية)، وأنشأ مدرسة المحاسبة لدراسة الاقتصاد، ومدرسة الإدارة لدراسة العلوم السياسية.

وكان ضمن مفاخره: استصدار قرار تدريس العلوم والمعارف باللغة العربية، وإصدار جريدة الوقائع المصرية بالعربية؛ هذا إلىٰ جانب عشرين كتابًا من ترجمته، وعشرات غيرها أشرف علىٰ ترجمتها.

وسعىٰ إلىٰ إنجاز أول مشروع لإحياء التراث العربي الإسلامي، ونجح في إقناع الحكومة بطبع عدة كتب من عيون التراث علىٰ نفقتها، مثل تفسير القرآن للفخر الرازي المعروف بمفاتيح الغيب، ومعاهد التنصيص علىٰ شواهد التلخيص في البلاغة لعبدالرحيم العباسي، وخزانة الأدب للبغدادي، ومقامات الحريري، وغير ذلك من الكتب التي كانت نادرة الوجود في ذلك الوقت.

كما أنشأ المجلة العظيمة المسماة بـ«روضة المدارس»، والتي كانت تنشر موادًا غاية في النفع في مجالات عدة.

ولرفاعة الطهطاوي عدة مؤلفات، منها:

- تخليص الإبريز في تلخيص باريز.

- مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية.
- المرشد الأمين في تربية البنات والبنين.
- القول السديد في الاجتهاد والتقليد.
- التحفة المكتبية في تقريب اللغة العربية.
- نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، وهو آخر كتاب ألّفه الطهطاوي[١].

• ثانيًا: رفاعة الطهطاوي وظلم ذوي القربى!

لقد ظلم فريق من الكتاب الإسلاميين الكرام الشيخ رفاعة الطهطاوي، وكانت -للأسف- كتاباتهم سببًا في إعراض فريق من المسلمين عن الإفادة من كتبه وما فيها من علم غزير في الدين والدنيا، ومساعدةً للعلمانيين -دون قصد- في «سرقة» هذا العالم المسلم الكبير لصالح مشروعهم الضال.

وقد حمّل هؤلاء الكتاب الإسلاميون الأفاضل كلام رفاعة ما لا يحتمل تارةً، وتارة أخرىٰ نقلوا كلامًا مبهمًا له وفهموه فهمًا غير صحيح قد أوضحه هو نفسه في مواضع أخرىٰ من كتبه بما لا يحتمل فهمًا آخر، وتارة ثالثة نقلوا كلامًا لرفاعة لم يقله أصالة للأسف الشديد! وكان الشيء المشترك في هذه الكتابات -علىٰ ما فيها من خير- هو عدم الدراسة المتأنية لكتب رفاعة الطهطاوي، والجمع بين كلامه المتناثر.

---

(١) ملخصًا من الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي، د. محمد عمارة، (١/ ٤١-١١٥).

لقد كتب الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي كتابه (تخليص الإبريز في تلخيص باريز)؛ ليدوّن فيه ما رآه في فرنسا خلال البعثة العلمية التي كان عضوًا فيها، واتبع في كتاباته أسلوبًا هو أشبه بأسلوب كتب أدب الرحلات، يدوّن فيه الكاتب كل ما يراه، ولا يعد هذا إقرارًا منه لما يحدث في ذلك البلد، ولا يلزمه أن يُبين الحكم الشرعي لكل ما ينقل صورته مما هو موجود في واقع هذه البلد أو تلك؛ فهذا ليس المقصود بهذا النوع من الكتب، وناقل الكفر ليس بكافر! ولا يُنسب لساكت قول، كما يقول الإمام الشافعي، وخاصة أنه أوضح وجهة نظره في كتب أخرىٰ كما أسلفنا.

ولقد جاء كثير من المستشرقين إلىٰ مصر؛ كإدوارد لين، وستانلي بول، وغيرهما، وكتبوا الكتب الرائعة التي تصف مصر ودين أهلها وطريقة الوضوء والصلاة وغيرها من الأمور الفقهية، واستحسنوا بعض عادات أهلها، فلم يُعدّ ذلك عند قومهم دخولًا منهم في الإسلام، أو حتىٰ مجرد استحسان للدين الإسلامي.

أما ما يأخذه البعض علىٰ رفاعة أنه أثنىٰ علىٰ الفرنسيين في بعض الأشياء وقولهم إنه قد انبهر! فلا أدري ما الإشكال في الثناء علىٰ أمور حسنة يقوم بها أقوام حتىٰ لو كافرين! ألم يمدح سيدنا عمرو بن العاص ﷺ بعض صفات الروم النصارىٰ ويثني عليها؟

يقول عمرو بن العاص عن الروم:

«إن فيهم لخصالًا أربعًا: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرّة بعد فرّة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف،

وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك»[1].

إن هذا ما فعله رفاعة، أثنىٰ علىٰ العدل الذي عندهم، وعلىٰ بعض الصفات التي بالفعل هي جديرة بالثناء!

ولقد أفصح رفاعة عن دافع كتابته لهذا الكتاب في مقدمته فقال:

«أشار عليّ بعض الأقارب والمحبين -لا سيما شيخنا العطار فإنه مولع بسماع عجائب الأخبار، والاطلاع علىٰ غرائب الآثار- أن أنبّه علىٰ ما يقع في هذه السفرة، وعلىٰ ما أراه وما أصادفه من الأمور الغريبة، والأشياء العجيبة، وأن أقيّده ليكون نافعًا في كشف القناع عن مُحيّا هذه البقاع، التي يقال فيها: إنها عرائس الأقطار، وليبقىٰ دليلًا يهتدي به إلىٰ السفر إليها طلاب الأسفار، خصوصًا وأنه من أول الزمن إلىٰ الآن لم يظهر باللغة العربية علىٰ حسب ظني شيء في تاريخ مدينة باريس كرسي مملكة الفرنسيس، ولا في تعريف أحوالها وأحوال أهلها»[2].

وقد حدد رفاعة ما يبتغيه من هذا الكتاب أيضًا، وهو حث المسلمين علىٰ تعلم العلوم العقلية؛ لأن فرنسا كانت متميزة فيها بلا شك وباتفاق الجميع في ذلك الوقت، وكان يتحسر لأن بلاد المسلمين (وليس مصر فقط) ليست فيها تلك العلوم، فقال:

«وأنطقتها بحثّ ديار الإسلام، علىٰ البحث عن العلوم البرهانية والفنون والصنائع، فإن كمال ذلك ببلاد الإفرنج أمر ثابت شائع، والحق

---

(١) أخرجه مسلم، (٢٨٩٨).

(٢) تخليص الإبريز في تلخيص باريز، رفاعة رافع الطهطاوي، (ص١٠).

أحق أن يُتبع، ولعمر لله إنني مدة إقامتي بهذه البلاد في حسرة علىٰ تمتعها بذلك وخلو ممالك الإسلام منه»[1].

وقد أكّد هذا مرة أخرىٰ في خاتمة مقدمته؛ فقال:

«وأسأل الله ﷺ أن يجعل هذا الكتاب مقبولًا لدىٰ الخاص والعام، وأن يوقظ به من نوم الغفلة سائر أمم الإسلام من عرب وعجم، إنه سميع مجيب، قاصده لا يخيب»[2].

إذن فهو في تأليفه لهذا الكتاب ينطلق من منطلق إسلامي، وهو حث المسلمين في جميع بلاد الإسلام علىٰ الأخذ بالعلوم التي تميزت فيها فرنسا، ومحاولة إيقاظهم من غفلتهم لتعلموا تلك العلوم المهمة؛ لأنه يتحسر علىٰ عدم وجودها لدىٰ المسلمين.

وهو بهذا يسعىٰ إلىٰ أن تبلغ الأمة الإسلامية مبلغ الكمال؛ لأن الأمة متميزة بوجود علوم الشريعة الإسلامية، ولكنها تفتقد إلىٰ العلوم العقلية الحديثة. قال رفاعة:

«البلاد الإفرنجية قد بلغت أقصىٰ مراتب البراعة في العلوم الرياضية، والطبيعية، وما وراء الطبيعة أصولها وفروعها، ولبعضهم نوع مشاركة في بعض العلوم العربية، وتوصلوا إلىٰ فهم دقائقها وأسرارها، كما سنذكره، غير أنهم لم يهتدوا إلىٰ الطريق المستقيم، ولم يسلُكوا سبيل النجاة، ولم يرشدوا إلىٰ الدين الحق، ومنهج الصدق.

---

(١) تخليص الإبريز في تلخيص باريز، (ص١١).

(٢) تخليص الإبريز، (ص١٢).

كما أن البلاد الإسلامية قد برعت في العلوم الشرعية والعمل بها، وفي العلوم العقلية، وأهملت العلوم الحكمية بجملتها، فلذلك احتاجت إلىٰ البلاد الغربية في كسب ما لا تعرفه، وجلب ما تجهل صنعه»[1].

وينعىٰ الشيخ رفاعة بغَيرة المسلم الصادق زمانًا كان المسلمون أكمل سائر البلاد؛ فيقول:

«كنا في زمن الخلفاء العباسيين أكمل سائر البلاد، تمدنًا، ورفاهية، وتربية زاهرة زاهية، وسبب ذلك أن الخلفاء كانوا يعينون العلماء وأرباب الفنون وغيرهم، علىٰ أن منهم من كان يشتغل بها بنفسه... وقد تشتت عز الخلفاء، وانهدم ملكهم؛ فانظر إلىٰ الأندلس، فإنها بأيدي النصارىٰ الإسبانيول، من نحو ثلاثمائة وخمسين سنة، وقد قويت شوكة الإفرنج ببراعتهم، وتدبيرهم، بل وعدلهم ومعرفتهم في الحروب، وتنوعهم واختراعهم فيها، ولولا أن الإسلام منصور بقدرة الله ﷻ.. لكان كلا شيء بالنسبة لقوتهم، وسوادِهم، وثروتهم، وبراعتهم وغير ذلك»[2].

«فبوصفه مسلمًا ينتمي إلىٰ مصر وللإمبراطورية العثمانية، شعر بالثقة في أن دينه وثقافته هما الأسمىٰ، نظر إلىٰ فرنسا باعتبارها مكان كفر لم يستقر فيه مسلم واحد، ويتبع أهله المسيحية اسمًا فقط»[3].

ولقد حرص رفاعة الطهطاوي في كتابه تخليص الإبريز علىٰ عدم

---

(١) تخليص الإبريز، (ص١٥).

(٢) تخليص الإبريز، (ص١٥-١٦).

(٣) العرب من الفتوحات العثمانية إلىٰ الحاضر، يوجيه روجان، (ص١١٢).

مخالفة الدين الإسلامي؛ وإن استحسن شيئًا فإنه لا يقصد به مخالفة الإسلام، فقال في مقدمة كتابه:

«وقد أشهدت الله ﷻ علىٰ ألا أحيد في جميع ما أقوله عن طريق الحق، وأن أفشي ما سمح به خاطري من الحكم باستحسان بعض أمور هذه البلاد وعوائدها، علىٰ حسب ما يقتضيه الحال، ومن المعلوم أنني لا أستحسن إلا ما لم يخالف نص الشريعة المحمدية، علىٰ صاحبها أفضل الصلاة وأشرف التحية»[1].

لذلك -ولما يأتي- لا يصح أن يُنسب إليه ما قاله بعض الكتاب الإسلاميين الأفاضل المشار إليهم، من أنه يمنع تعدد الزوجات، ويحض علىٰ اختلاط الجنسين، ويحث علىٰ تعليم الفتيات علىٰ الطريقة الغربية، وينادي بالحرية المطلقة، وأنه يثني علىٰ الرقص ويدافع عنه، وغير ذلك من الاتهامات غير الصحيحة!

فقد اتُّهم مثلًا رفاعة بأنه «استقبله أهله بالفرح يوم عاد من فرنسا بعد غيبة سنين، فأشاح عنهم فىٰ ازدراء، ووسمهم بأنهم فلاحون لا يستحقون شرق استقباله».

ولكن الكاتب الكريم الذي زعم ذلك لم يضع لنا مصدر روايته هذه، خاصة وهو لم يدرك من حضر هذه الواقعة لبعد الزمن، حتىٰ يتسنىٰ لنا أن نقول إنه يرويها عن شاهد عيان لم يصرح باسمه!

كما اتُّهم رفاعة بأنه في كتابه تخليص الإبريز «دعا إلىٰ تحرير المرأة،

(١) تخليص الإبريز، (ص١١).

أي إلىٰ السفور، وإلىٰ الاختلاط، وأزال عن الرقص المختلط وصمة الدنس، فقال إنه حركات رياضية موقعة علىٰ أنغام الموسيقىٰ، فلا ينبغي النظر إليه علىٰ أنه عمل مذموم».

وبالرجوع إلىٰ المصدر المذكور وغيره لم نجد هذا الكلام! بل وجدنا فقط أنه يصف الرقص في فرنسا كما وصف كل شيء تقريبًا عن المجتمع، علىٰ غرار كتب أدب الرحلات التي أشرنا إليها سابقًا، ثم إن له كلامًا آخر -سيأتي- عن تحريم الاختلاط والعري وغير ذلك، مما يدفع هذا الظن السيئ به! وإن لم يدفع هذا الظن به فحتمًا نتوصل إلىٰ أنه ناسخ لهذا الكلام السابق؛ لأن تحريمه للعري والاختلاط وغير ذلك متأخر عن كلامه الأول، هذا علىٰ افتراض أنه كان يقول بذلك أصلًا!

وهذا كلام رفاعة الذي فُهم منه ذلك ولم يُلتفت إلىٰ باقي كلامه الكثير:

يقول رفاعة:

«الرقص عندهم فن من الفنون ... فهو نظير المصارعة في موازنة الأعضاء ودفع قوىٰ بعضها إلىٰ بعض، فليس كل قوي يعرف المصارعة، بل قد يغلبه ضعيف البنية بوساطة الحيل المقررة عندهم، وما كل راقص يقدر علىٰ دقائق حركات الأعضاء، وظهر أن الرقص والمصارعة مرجعهما شيء واحد يعرف بالتأمل، ويتعلق بالرقص في فرنسا كل الناس، وكأنه نوع من العياقة والشلبنة لا من الفسق؛ فلذلك كان دائمًا غير خارج عن قوانين الحياء، بخلاف الرقص في أرض مصر، فإنه من خصوصيات النساء؛ لأنه لتهييج الشهوات، وأما في باريس فإنه نمط مخصوص لا يشم

منه رائحة العهر أبدًا». انتهىٰ كلامه[1].

إن الرجل ببساطة يقول إن الرقص عندهم -هم- فن، ويصفه بأن الناس متعلقون به -في فرنسا- وليس هو الذي يتعلق به، ويقول كأنه يستغرب إنهم يعدونه من الفتوة والأناقة وليس من الفسق، ويقول إنه ليس خارج عن الحياء، أي عندهم لا يعدونه كذلك، بخلاف الرقص في مصر فإن النساء فقط من يفعلونه ويهيجون به الشهوات، أما في باريس فإنهم يرقصون بغير هذا الشكل الذي في مصر، ولا يشمون من ذلك رائحة العهر.

كذلك اتُّهم رفاعة بأنه ترجم كتب الغربيين في العلوم المختلفة، وبأنه كان قائمًا علىٰ مدرسة الألسن التي كانت تدرّس العلوم المختلفة!

ولا أدري ما الذي يضيره في ذلك، ما دام ينظّر في كتبه لضرورة انضباط ذلك كله بالإسلام! وقد شهد العصر العباسي حركة ترجمة واسعة المجال في علوم كثيرة، ولا يزال كثير من المسلمين يترجمون الكتب التي تحوي العلوم النافعة ليفيد منها المسلمون.

وقد نُقل عن رفاعة قوله إن هدفه من وراء مدرسة الألسن هو الاستغناء عن الدخيل، وتقليل التغرب في بلاد أوروبا[2].

ومما أُخذ علىٰ رفاعة الطهطاوي ترجمته للقانون الفرنسي.

وإن القول في ترجمة القوانين المخالفة للإسلام في بعض أجزائها،

---

(١) تخليص الإبريز، (ص١٣٧).

(٢) الأعمال الكاملة لرفاعة، (١/ ٦٤).

كالقول في ترجمة الكتب العلمية المخالفة للإسلام في بعض أجزائها، فعلىٰ المسلم أن يأخذ النافع منها ويدع الضار، بل إن كان الكتاب كله مخالفًا للإسلام وتُرجم ليُرَد عليه ويُبيَّن ما فيه من الخطأ .. لجاز ذلك!

وقد صرّح رفاعة في مقدمته لتعريب القانون الفرنسي بأنه ترجمه «كي لا يجهل أهل هذا الوطن أصول الممالك الأخرىٰ»، و«ليكون من يتعامل معهم في تسوية الأمور علىٰ بصيرة». وقال إن كل مملكة أخذت من تلك القوانين ما يناسب سياستها[1].

ولم يصرح مطلقًا بأنه ترجمها ليتم تطبيقها بحذافيرها في مصر الإسلامية، ولم يدعُ إلىٰ ذلك قط.

ومما يؤكد هذا أنه رفض أن يُقنع مشايخ الأزهر بتقنين الشريعة كي يتم الحُكم بها بسهولة، مخافة أن يتهموه بالكفر، فكيف سيعمل علىٰ تطبيق قوانين فرنسا؟!

إن الخديو إسماعيل استدعىٰ رفاعة الطهطاوي وخاطبه:

«يا رفاعة، أنت أزهري تعلمت في الأزهر وتربيت به، وأنت أعرف الناس بعلمائه، وأقدرهم علىٰ إقناعهم بما ندبناك له، إن الفرنجة قد صارت لهم حقوق ومعاملات كثيرة فىٰ هذه البلاد، وتحدث بينهم وبين الأهالي قضايا، وقد شكا الكثيرون إليّ أنهم لا يعلمون أيحكم لهم أم عليهم في هذه القضايا؟ ولا يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم؛ لأن كتب

---

(١) الأعمال الكاملة لرفاعة، (٥/ ٥٠٥).

الفقه التي يحكم بها علماؤنا معقدة وكثيرة الخلاف، فاطلب من علماء الأزهر أن يضعوا كتابًا في الأحكام المدنية الشرعية تشبه كتب القانون في تفصيل المواد واطّراح الخلاف، حتىٰ لا تضطرب أحكام القضاة، فإن لم يفعلوا وجدتنىٰ مضطرًا للعمل بقانون نابليون الفرنسي!

فقال رفاعة الطهطاوي:

يا أفندينا، إني سافرت إلىٰ أوربا، وتعلمت فيها، وخدمت الحكومة، وترجمت كثيرًا من الكتب الفرنسية، وقد شخت، وبلغت إلىٰ هذه السن، ولم يطعن في ديني أحد، فإذا اقترحت الآن هذا الاقتراح بأمر منكم طعن علماء الأزهر في ديني، وأخشىٰ أن يقولوا إن الشيخ رفاعة ارتدّ عن الإسلام آخر عمره؛ إذ يريد تغيير كتب الشريعة وجعلها مثل كتب القوانين الوضعية، فأرجو أن يعفيني أفندينا من تعريض نفسي لهذا الاتهام؛ لئلا يقال مات كافرًا.

فلما يئس الخديو .. أمر بالعمل بالقوانين الفرنسية![1].

وسيتضح موقف رفاعة الطهطاوي من الشريعة الإسلامية وتحكيمها فيما يلي أيضًا.

- **ثالثًا: رفاعة الطهطاوي دون تزوير:**

سنعرض في السطور التالية آراء رفاعة الطهطاوي بإزاء بعض القضايا المهمة، التي أخفاها العلمانيون وطمسوها، أو حرفوها وأخرجوها عن

---

(١) مجلة المنار، محمد رشيد رضا، (٧/ ٢١٢)، قذائف الحق، محمد الغزالي، (ص١٩٠).

سياقها؛ لأنها فقط تتعارض مع منهجهم، وخلال هذا العرض أيضًا سيتبين أيضًا خطأ بعض الكتاب الإسلاميين الأفاضل في فهم كلام الشيخ رفاعة الطهطاوي ﷺ.

١) رفاعة الطهطاوي وتطبيق الشريعة:

يرىٰ رفاعة أن شريعة الإسلام هي التي عليها مدار الحكومة الإسلامية[1].

ويقول ﷺ:

«القرآن الشريف أساس الدين، الذي هو أساس المملكة؛ فلا قوام لها إلا به، ولا تثبُت أركانها إلا عليه، وهو إقامة منار الإسلام، وإظهار شعائر الحق، واتباع أحكام الشرع، والعمل بالفرائض والسنن ومندوبات الشريعة، وإقامة الحدود، وامتثال أمر الشارع، والانتهاء عن نواهيه، وإيصال الحقوق الواجبة إلىٰ أربابها، والعمل بما يرضي الله سرًّا وعلانية، فإنه لا دوام للملك ولا بقاء للسلطنة بدون هذه الأشياء»[2].

ويقول ﷺ:

«إن الله تعالىٰ جعل للناس -مع ما هداهم إليه من مكاسبهم وأرشدهم إليه من معايشهم- دينًا يكون لهم حَكَمًا، وجعل لهم شرعًا يكون عليهم قيِّمًا؛ ليصلوا إلىٰ مرادهم بتقديره، ويطلبوا أسباب مكاسبهم بتدبيره؛ حتىٰ لا ينفردوا بإرادتهم فيتغالبوا، ولا تستولي عليهم أهواؤهم فيتقاطعوا؛ قال

---

(١) تخليص الإبريز، (ص٢٣١).

(٢) المرشد الأمين للبنات والبنين، رفاعة رافع الطهطاوي، (ص١٠٣).

تعالىٰ: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]»[1].

ويقول:

«وأنتم عبيده، فحقكم أن تطيعوه، وتتعاطوا أسباب ما تصيرون به إخوانًا، للتعاضد علىٰ إقامة دينه وإظهار شعائره وانتظام ملكه»[2].

ويقول في بيان أن أحكام الشريعة الإسلامية فيها ما ينظم جميع المعاملات وأن أوروبا اقتبست منها:

«ومن أمعن النظر في كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية؛ حيث بوّبوا للمعاملات الشرعية أبوابًا مستوعبة للأحكام التجارية؛ كالشركة، والمضاربة، والقرض، والمخابرة، والعارية، والصلح، وغير ذلك. ولا شك أن قوانين المعاملات الأورباوية استنبطت منها؛ كالسفتجة (وثيقة تجارية) التي عليها مبنىٰ معاملات أوربا . . .

ترتب الآن في المدن الإسلامية مجالس تجارية مختلطة لفصل الدعاوىٰ والمرافعات بين الأهالي والأجانب، بقوانين في الغالب أوروبية، مع أن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرىٰ عليها العمل لما أخلت بالحقوق بتوفيقها علىٰ الوقت والحال، مما هو سهل العمل علىٰ مَن

---

(١) مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، رفاعة رافع الطهطاوي، (ص٢٠).

(٢) مناهج الألباب، (ص٩٨).

وفقه الله لذلك من ولاة الأمور المستيقظين، ولكل مجتهد نصيب»[1].

ويؤكد الطهطاوي ذلك بقوله:

«ومن المعلوم أن بحر الشريعة الغراء علىٰ تفرُّع مشارعه، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وأحياها بالسقي والري، ومصداق ذلك قوله تعالىٰ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، فلا ريب في انقياد شمم كل عرنين إليها صاغرًا بدوام النفوذ، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية، لا علىٰ سبيل التهاون، ولا علىٰ سبيل الشذوذ؛ بل سارت علىٰ مشاعب المذاهب لمجاراة مجريات النوازل والنوائب، وما شرع مذهب السيف إلا لنصرة مذاهب الشرع؛ لأنها أصل، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع؛ فاختلاف مذاهب الأئمة رحمة، وجواز تقليد أي واحد منهم والرجوع إلىٰ اجتهاد الآخرين للحاجة نعمة»[2].

ويقول في ضرورة تقنين الشريعة:

«فتنظيمُ كتابٍ للأحكام الشرعية بمناسبة تفرُّع النوازل في هذه الأيام بأكمل نظام =مما تنتظم به الأحكام القضائية في أوطاننا، ويكون عمدة للقضاة والحكام»[3].

ويقول في تعريف السياسة الملوكية:

---

(١) مناهج الألباب، (ص١٦٢-١٦٣).

(٢) مناهج الألباب، (ص٣٨٧-٣٨٨).

(٣) مناهج الألباب، (ص٣٩٢).

«هي حفظ الشريعة علىٰ الأمة، وإحياء السُّنة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[1].

ويتكلم عن حقوق ولي الأمر فيقول:

«وإنما اللائق في حقه في حالتي العفو والعقاب ألا يتجاوز في ذلك الحدَّ، حفظًا لناموس الشريعة، وصونًا لحدود الله من التعطيل، ومحافظة علىٰ إبقاء قوة السياسة الشرعية الضامنة للأمن العام... فلا يمنع حدود الله، ولا يصفح عن القاتل لشخص له ورثة أبدًا؛ لأن الدِيَة أو القوَد حقُّهم»[2].

«وإنما الممنوع من الحكام إنما هو اتباعهم الهوىٰ... فكل ما يمنعه الشرع صراحة أو ضمنًا فغير مباح، ولا يُعد تمدنًا»[3].

ويشترط رفاعة في القضاة أن يكونوا من علماء الشريعة؛ فيقول:

«ومن أجلّاء طبقة العلماء: القضاة. فرتبة القضاء قد جعل الله إليها منتهىٰ القضايا، وإنهاء التظلمات والشكايا، ولا يكون صاحبها إلا من العلماء الذين هم ورثة الأنبياء؛ فالقاضي متولّي الأحكام الشرعية لهذه الرتبة كما ورث عن النبي ﷺ عِلمَه، ورث عنه بهذه الوظيفة الشريفة حُكمَه»[4].

---

(١) مناهج الألباب، (ص٣٤٤).

(٢) مناهج الألباب، (ص٣٥٨-٣٥٩).

(٣) المرشد الأمين، (ص١٢٤).

(٤) مناهج الألباب، (ص٣٧٦).

٢) نقد رفاعة لعقائد الفرنسيين وقساوستهم وللأقباط:

انتقد رفاعة عقائد الفرنسيين كثيرًا؛ فقال:

«الفرنساوية من الفرق التي تعتبر التحسين والتقبيح العقليين، وأقول هنا إنهم ينكرون خوارق العادات، ويعتقدون أنه لا يمكن تخلُّف الأمور الطبيعية أصلًا، وأن الأديان إنما جاءت لتدل الإنسان علىٰ فعل الخير، واجتناب ضده، وأن عمارة البلاد وتطرق الناس وتقدمهم في الآداب والظرافة تسد مسدَّ الأديان، وأن الممالك العامرة تصنع فيها الأمور السياسية كالأمور الشرعية، ومن عقائدهم القبيحة قولهم إن عقول حكمائهم وطبائعييهم أعظم من عقول الأنبياء وأذكىٰ منها! ولهم كثير من العقائد الشنيعة»[1].

وقال أيضًا مواصلًا نقدهم:

«الفرنساوية علىٰ الإطلاق ليس لهم من دين النصرانية غير الاسم؛ فهم يدخلون في اسم الكتابيين، فلا يعتنون بما حرّمه دينهم، أو أوجبه، أو نحو ذلك؛ ففي أيام الصيام في باريس لا ينقطع أكل اللحم في سائر البيوت، إلا ما ندر في القسوس وبيت ملك الفرنسيس القديم، وأما باقي أهل المدينة فإنهم يستهزئون بذلك ولا يفعلونه أبدًا، ويقولون إن سائر تعبدات الأديان التي لا نعرف حكمتها من البدع والأوهام، ولا تعظم القسوس في هذه البلاد إلا في الكنائس عند من يذهب إليهم، ولا يسأل عنهم أبدًا، فكأنهم ليسوا إلا أعداء للأنوار والمعارف، ويقال إن غالب

---

(١) تخليص الإبريز، (ص٨٩).

ممالك الإفرنج مثل في مادة الأديان»[1].

ويقول عن الفرنسيين وعلومهم الفلسفية:

«لهم في العلوم الحكمية حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية»[2].

ثم ينفي عنهم الإيمان قائلًا إنهم ليس لديهم من الإيمان مثقال ذرة[3].

وقال أيضًا عن الفرنسيين وعن سائر البلاد الإفرنجية:

«إنهم لم يهتدوا إلىٰ الطريق المستقيم، ولم يسلُكوا سبيل النجاة، ولم يُرشدوا إلىٰ الدين الحق، ومنهج الصدق»[4].

ويرىٰ رفاعة أن القساوسة الكاثوليك فُساق، فيقول:

«ومن الخصال العادية المهولة ببلاد الفرنسيس أو بلاد الكاثوليكية عدم الإذن بزواج القسيسين علىٰ اختلاف مراتبهم ودرجاتهم، فإن عدم زواجهم يزيدهم فسقًا علىٰ فسقهم»[5].

ويقول أيضًا ضمن خصالهم الذميمة:

«ومن الخصال الذميمة أن القسيسين يعتقدون أنه يجب علىٰ العامة أن

---

(١) تخليص الإبريز، (ص١٧٣).

(٢) تخليص الإبريز، (ص١٧٧).

(٣) تخليص الإبريز، (ص٤٧).

(٤) تخليص الإبريز، (ص١٥).

(٥) تخليص الإبريز، (ص١٧٤).

يعترفوا لهم بسائر ذنوبهم ليغفروها لهم، فيمكث القسيس في الكنيسة علىٰ كرسي يسمىٰ كرسي الاعتراف، فسائر من أراد أن تُغفر ذنوبه يذهب إلىٰ كرسي الاعتراف داخل باب بينه وبين القسيس حائل كالشبكة، فيجلس ثم يعترف قدامه بذنوبه ويستغفره، فيغفر له»[1].

«وللقسيسين بدع لا تحصىٰ»[2].

وفي حين أن كثيرًا من العلمانيين الذين يمجدون رفاعة الطهطاوي يرفضون وصف نصارىٰ مصر بأنهم كفار، نجد رفاعة نفسه يصفهم بذلك! ويستعيذ بالله من الإيمان بدينهم؛ بل ويصفهم بالجهل وعدم النظافة! ويقول إن عليهم الخضوع والانكسار للمسلمين!

فيرىٰ رفاعة أن الموت علىٰ النصرانية هو موت علىٰ الكفر، فيحكي عن إحدىٰ النساء قائلًا:

«ثم بعد ذلك انتهىٰ الأمر علىٰ ما قيل إنها تنصّرت، وماتت كافرة»[3].

ويستعيذ بالله من التحول إلىٰ النصرانية، وهو يتكلم عن بعض المسلمين الذين سافروا فرنسا؛ فيقول:

«ومنهم من تنصّر والعياذ بالله»[4].

---

(١) تخليص الإبريز، (ص١٧٤).

(٢) تخليص الإبريز، (ص١٧٥).

(٣) تخليص الإبريز، (ص٦٢).

(٤) تخليص الإبريز، (ص٦١).

ويصف نصارىٰ مصر بعدم النظافة والجهل والغفلة؛ فيقول:

«ومما يستحسن في طباع الإفرنج دون من عداهم من النصارىٰ حب النظافة الظاهرية، فإن جميع ما ابتلىٰ الله ﷻ به قبط مصر من الوخم والوسخ أعطاه للإفرنج من النظافة!»[1].

ويقول في الفرق بين نصارىٰ فرنسا ومصر:

«وليسوا مثل النصارىٰ القبط في أنهم يميلون بالطبيعة إلىٰ الجهل والغفلة»[2].

ويذكر رفاعة أن علىٰ رئيس كل ملة من أهل الذمة المتواجدين في بلاد المسلمين أن يلزم أهل ملته «بالاتصاف بالخضوع والانكسار، ومد رؤوسهم بالإذعان إلىٰ ملة الإسلام، وحفظ شعار الذمة بتمام الانقياد والاستسلام، وعدم التظاهر بما يقتضي المناقضة، ويُفهم منه المعارضة»[3].

وقال في موالاة اليهود والنصارىٰ:

«فلا شك في جواز مخالطة أهل الكتاب، ومعاملتهم، ومعاشرتهم، وإنما المحظور: الموالاة في الدين»[4].

ويقول:

«وبالجملة، فرخصة تديُّن أهل الكتاب بدينهم مؤسسة علىٰ العهود

---

(١) تخليص الإبريز، (ص٤٦).
(٢) تخليص الإبريز، (ص٨٣).
(٣) مناهج الألباب، (ص٤٠٣).
(٤) مناهج الألباب، (ص٤٠٥).

المأخوذة عليهم عند الفتح الإسلامي، وكل مسلم يحفظ العهد لأن العهد في الحقيقة إنما هو لله تعالىٰ»[1].

ويدافع عن محمد علي أمام مَن اتهموه بتقريب بعض العلماء الأجانب النصارىٰ، موضحًا أن محمد علي لا يرحب بهم لأنهم نصارىٰ! وكأن ذلك تهمة وهو يقوم بدفعها، فيقول رفاعة:

«حتىٰ إن العامة بمصر وبغيرها من جهلهم يلومونه في أنفسهم غاية اللوم، بسبب قبوله الإفرنج وترحيبه بهم وإنعامه عليهم، جهلًا منهم بأنه إنما يفعل ذلك لإنسانيتهم وعلومهم لا لكونهم نصارىٰ»[2].

ويرىٰ رفاعة عمومًا الأديان الأخرىٰ غير الإسلام هي مجرد أوهام؛ فيقول:

«كل دين إن فاتك الإسلام؛ فمحالٌ لأنه أوهام»[3].

٣) ذم رفاعة لسلوك الفرنسيين:

يقول رفاعة عن خصال الفرنسيين:

«ومن خصالهم أيضًا: صرف الأموال في حظوظ النفس، والشهوات الشيطانية، واللهو، واللعب، فإنهم مسرفون غاية السرف»[4].

---

(١) مناهج الألباب، (ص٤٠٥).

(٢) تخليص الإبريز، (ص١٧). ومن هذا أيضًا تُعلم طريقة تفكير رفاعة في أخذه بعض العلوم غير الموجودة لدىٰ المسلمين عن مستشرقين؛ كجومار وغيره.

(٣) تخليص الإبريز في تلخيص باريز.

(٤) تخليص الإبريز، (ص٨٦).

ويصف رفاعة نساء فرنسا بأن أغلبهن لسن عفيفات؛ فقد قال:

«ففي نساء الفرنساوية ذوات العِرض، ومنهن مَن هي بضد ذلك، وهو الأغلب، لاستيلاء فن العشق في فرنسا علىٰ قلوب غالب الناس»[1].

ويقول أيضًا:

«ومن خصالهم الرديئة قلة عفاف كثير من نسائهم كما تقدم، وعدم غَيرة رجالهم»[2].

ويقول رفاعة عن باريس:

«هذه المدينة كباقي مدن فرنسا وبلاد الإفرنج العظيمة، مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والاختلالات»[3].

ويقول أيضًا:

«وأما خماراتها فإنها لا تحصىٰ؛ فما من حارة إلا وهي مشحونة بهذه الخمارات، ولا يجتمع فيها إلا أراذل الناس وحرافيشهم مع نسائهم»[4].

٤) عند رفاعة .. فرنسا وأمريكا وغيرهما بلاد كُفر:

لقد وصف رفاعة الطهطاوي بعض بلاد غير المسلمين بأنها بلاد كُفر؛ فقال عن فرنسا:

«هي ديار كُفر وعناد»[5].

---

(١) تخليص الإبريز، (ص١٢٣).

(٢) تخليص الإبريز، (ص٨٨).

(٣) تخليص الإبريز، (ص٨٩).

(٤) تخليص الإبريز، (ص١٢٧).

(٥) تخليص الإبريز، (ص١٣).

ويقول عن أمريكا:

«وأما أمريكا فهي بلاد كُفر»[1].

ويقول عن الصين وبعض بلاد الهند:

«ومع أن الإسلام قد تولد في آسيا، وانتشر منها إلىٰ غيرها، ففيها جزء عظيم باقٍ علىٰ الكفر؛ كبلاد الصين، وبعض بلاد الهند»[2].

أما الشيعة الإمامية.. فيصفهم رفاعة بأنهم ضالون؛ فقال:

«وجزء سالك في إسلامه طريق الضلال؛ كروافض العجم»[3].

ويكرر رفاعة في كتبه في أكثر من موضع أنه ينتمي لأهل السنة والجماعة.

٥) رفاعة وتبجيل الصحابة وعلماء الدين:

في حين أن العلمانيين والمتغربين ينتقصون من الصحابة ويثيرون الشبهات حولهم.. يرىٰ رفاعة الطهطاوي أنهم أفضل الخلق بعد الأنبياء ويمدحهم كثيرًا، فيقول مثلًا:

«وما ظنك بقوم اختارهم الله تعالىٰ لصحبة رسوله ﷺ، ولمواجهة خطابه في تنزيله؛ فما أحد من المؤمنين إلىٰ يوم القيامة إلا وللصحابة في عنقه مِنَنٌ لا تُحصىٰ، وأيادٍ لا تُستقصىٰ؛ لأنهم هم الذين حملوا إلينا عنه ﷺ الحكم والأحكام، وبيّنوا الحلال والحرام، وفهموا الخاص والعام،

---

(١) تخليص الإبريز، (ص٢٨).

(٢) تخليص الإبريز، (ص٢٧).

(٣) تخليص الإبريز، (ص٢٧).

وفتحوا الأقاليم والبلاد، وقهروا أهل الشرك والعناد»[1].

ويرىٰ أن التمدن الحقيقي هو تمدن الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين، فيقول:

«إن تمدُّن الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين ومن تابعيهم، هو تمدن حقيقي، مكتسب من أنوار النبوة، واتباعِ هدي مَن لا ينطق عن الهوىٰ»[2].

ويقول عن أخلاقهم:

«فهكذا مكارم أخلاق الصحابة فمن أراد أن يقتدي بهم فهو من أهل السداد والإصابة»[3].

كما يكنّ رفاعة لعلماء الدين والشريعة احترامًا كبيرًا، وينادي باحترامهم وتكريمهم، فيقول:

«العلماء هم ورثة الأنبياء وحملة الشريعة. . . فيجب علىٰ الدولة أن تحترم علماء الشريعة، وتكرمهم، وتثيبهم علىٰ تعليمها والمحافظة عليها، بل عليها أيضًا أن تتحرىٰ إدخال السرور عليهم، واستمالة قلوبهم، والتعطف عليهم، وأن تتقرب إليهم بالصلات، وأن تتحف أولادهم بالتحائف، رفقًا بهم، وتلطيفًا لهم، وأن تحملهم علىٰ الاشتغال بالعلم»[4].

---

(١) مناهج الألباب، (ص٣٩).
(٢) مناهج الألباب، (ص٤٣٠).
(٣) مناهج الألباب، (ص٤٣٠).
(٤) مناهج الألباب، (ص٣٧٠).

«وقد جرت عادة الله تعالىٰ علىٰ ممر الأعوام والدهور، أنه لا يخلو زمن من الأزمنة ولا قرن من القرون عن أئمة من العلماء الأعلام، أعدّهم لإقامة شرائع الإسلام وتقرير الحدود والأحكام»[1].

٦) **رفاعة الطهطاوي جهاديًا:**

يبدي العلمانيون حساسية كبيرة تجاه أي حديث عن الجهاد في سبيل الله، ويصفون أي شخص يؤمن بفريضة الجهاد ويقوم بها بأنه إرهابي! ولكن رفاعة له رأي آخر! فتراه يتحدث عن نية المجاهد، ويتكلم عمن ينبغي محاربتهم، فيذكر منهم الملحدين والمرتدين! رغم أن هؤلاء عند العلمانيين أحرار في اختيارهم ولا ينبغي مسّهم بسوء!

يقول رفاعة عن نية المجاهد:

«الجهاد الصحيح لقمع العدو إنما يتحقق إذا كان القصد منه إعلاء كلمة الله ﷻ، وإعزاز الدين، ونصرة المسلمين»[2].

ويقول في أنواع المحاربة الجائزة شرعًا:

«إن المحاربة لا تجوز إلا في ستة مواضع:

الأول: محاربة المشركين وأهل الحرب.

الثاني: محاربة الملحدين؛ لأنهم شر الخلائق.

الثالث: محاربة المرتدين.

---

(١) المرشد الأمين، (ص٧٣).

(٢) مناهج الألباب، (ص٣٧٠).

الرابع: محاربة البغاة.

الخامس: محاربة قطاع الطريق.

السادس: محاربة القاتلين ليقتص منهم»[1].

ثم يعدد شروط نصر المجاهدين قائلًا:

«وقد أرشد الله ﷻ عباده المجاهدين بخمسة أشياء، ما اجتمعت في فئة قط إلا نُصرت، وإن قلّت وكثر عدوها، وهي مجموعة في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] . . . ولما اجتمعت هذه القوىٰ في الصحابة لم تقُم لهم أمة من الأمم، حتىٰ فتحوا الدنيا، ودانت لهم البلاد والعباد، ولما تفرقت فيمن بعدهم وضعفت آلت أمورهم إلىٰ ما آلت إليه»[2].

٧) ضرورة انضباط العقل بالوحي عند رفاعة:

يقول رفاعة عن التحسين والتقبيح بمجرد العقل بعيدًا عن الدين:

«ليس لنا أن نعتمد علىٰ ما يُحسّنه العقل أو يُقبحه، إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه»[3].

ويقول رفاعة:

«والذي يرشد إلىٰ تزكية النفس هو سياسة الشرع، وصدق متابعة الرسول في سائر ما جاء به من الأحكام والآداب، التي نصبها الشارع

---

(١) مناهج الألباب، (ص٤٠٧).

(٢) مناهج الألباب، (ص٤١٤).

(٣) المرشد الأمين، (ص١٣١).

وجعل مرجعها الكتاب العزيز، الذي هو الآية الكبرىٰ والنعمة العظمىٰ، في بيان ما لا تهتدي إليه العقول، وفي الاعتصام من الفتن... فهو الجامع لأنواع المطلوب من المعقول والمنقول، مع ما اشتمل عليه من بيان السياسات المحتاج إليها في نظام أحوال الخلق؛ كشرع الزواجر المفضية إلىٰ حفظ الأديان والعقول والأنساب والأموال، وشرع ما يدفع الحاجة علىٰ أقرب وجه يحصل به الغرض؛ كالبيع والإجارة والزواج وأصول أحكامها؛ فكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لا تثمر العاقبة الحسنىٰ، فلا عبرة بالنفوس القاصرة الذين حكَّموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي ركنوا إليها تحسينًا وتقبيحًا، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدِّي الحدود، فينبغي تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع لا بطرق العقول المجردة، ومعلوم أن الشرع الشريف لا يحظر جلب المنافع ولا درء المفاسد، ولا ينافي المتجددات المستحسنة التي يخترعها مَن منحهم الله تعالىٰ العقل وألهمهم الصناعة»[1].

٨) التمكُّن من الكتاب والسنة شرط لدراسة الفلسفة:

يقول رفاعة مبينًا ضوابط دراسة الكتب المشتملة علىٰ الفلسفة:

«إن كتب الفلسفة بأسرها محشوّة بكثير من هذه البدع... فحينئذ يجب علىٰ من أراد الخوض في لغة الفرنساوية المشتملة علىٰ شيء من الفلسفة أن يتمكن من الكتاب والسنة، حتىٰ لا يغتر بذلك، ولا يفتر عن اعتقاده، وإلا ضاع يقينه.

---

(١) المرشد الأمين، (ص٦١-٦٢).

وقد قلت جامعًا بين مدح هذه المدينة وذمها:

أيوجد مثل باريس ديار شموس العلم فيها لا تغيب

وليل الكُفر ليس له صباح أما هذا وحقكم عجيب»[1].

٩) العلوم الشرعية أفضل من العقلية عند رفاعة:

يقول رفاعة:

«العلوم الشرعية أهم مما عداها، والاشتغال بها أوجب؛ للحاجة إليها والاضطرار إلىٰ معرفة الحلال والحرام، وإقامة الحدود والأحكام؛ ولهذا كان أهلها أفضل من غيرهم»[2].

ويقول:

«أولىٰ العلوم وأفضل العلوم: الشرعية، التي بمعرفتها جميع الناس يرشدون وبجهلها يضلون ولا يهتدون... وربما مالَ بعض المتهاونين بالدين إلىٰ العلوم العقلية ورأىٰ أنها أحق بالفضيلة وأولىٰ بالتقدمة استثقالًا لما تضمنه الدين من التكليف، واستصعابًا لما جاء به الشرع الشريف من التعبد والتوقيف، ولكن قَلّ أن ترىٰ ذلك فيمن سلمت فطنته وصحت رويته؛ لأن العقل يمنع من أن يكون الناس همَلًا أو سُدىٰ، يعتمدون علىٰ آرائهم المختلفة، وينقادون لأهوائهم المتشعبة؛ لما تؤول إليه أمورهم من الاختلاف والتنازع، وتفضي إليه أحوالهم من التباين والتقاطع، فلم يستغنوا عن شريعة يأتلفون إليها ويتفقون عليها»[3].

---

(١) تخليص الإبريز، (ص١٧٨).

(٢) المرشد الأمين، (ص٧١-٧٢).

(٣) مناهج الألباب، (ص٥١).

١٠) رفاعة الطهطاوي وتبجيل الدولة العثمانية:

يبدي رفاعة الطهطاوي احترامًا كبيرًا للسلطان العثماني والدولة العثمانية بصفتها الخلافة الإسلامية؛ فيسمي رفاعة السلطان العثماني بـ:

«حضرة مولانا السلطان المعظم»[١]. و«الإمام الأعظم إمام الحرمين الشريفين وسلطان الإسلام»[٢]. و«الملك المظفر»[٣].

وجعل رفاعة من أسباب تفضيل أوربا علىٰ أمريكا من حيث الدين: قوة الإسلام، ووجود السلطان العثماني فيها؛ فقال:

«ثم تليها أوربا لقوة الإسلام، ووجود الإمام الأعظم إمام الحرمين الشريفين سلطان الإسلام فيها»[٤].

وقال رفاعة:

«الحمد لله الذي مَنّ علىٰ مصر بخلافة الخلفاء علىٰ الإطلاق؛ حيث جعلوا فيها شموس العلوم ساطعة الإشراق، ثم مَنّ عليها بدولة آل عثمان؛ فحفظت بالنسبة إليها ما بقي فيها من مكارم الأخلاق، مع المحافظة علىٰ القوانين الشرعية»[٥].

ويقول رفاعة ممتدحًا السلطان سليم وأعماله في مصر:

«تولّىٰ الملك المظفر السلطان سليم خان ونظم مصر في سلك دولة

---

(١) تخليص الإبريز، (ص٢٥٨).

(٢) تخليص الإبريز، (ص٣٠).

(٣) مناهج الألباب، (ص٤٣).

(٤) تخليص الإبريز، (ص٣٠).

(٥) مناهج الألباب، (ص٣٧١-٣٧٢).

بني عثمان فأبقىٰ جميع ما بمصر من العلوفات والمرتبات علىٰ ما كان عليه، ولما وشىٰ إليه بعض أمرائه بأن تلك العلوفات قد استغرقت كثيرًا من الأموال وطلب منه رفعها لاقتضاء الأحوال.. قابله بالمنع والطرد، ورد عليه أشنع الرد، وقال تلك صدقات من قَبلنا فلا نحب أن يكون قطعها من قِبلنا، ولما تولىٰ بعده ولده السلطان سليمان خان -تغمده الله بالرحمة والرضوان- سعىٰ له بعض أهل الحدثان وذكروا له أن هذه المرتبات الآيلة للأولاد والعيال والحريمات لم تصادف من الشرع محلًا، وأنها باطلة فرعًا وأصلًا، فأرسل خطًّا شريفًا بإبطال ذلك، فراجعه علماء عصره وزمانه وترجوا عظيم عطفه وإحسانه، وذكروا له أن ما رُتب وأُرصد علىٰ تلك الخيرات وعلىٰ الأرامل وعيال المقاتلة وأولادهم والعلماء لا سبيل إلىٰ نقضه شرعًا لصدوره عن نواب السلطنة مع موافقته المصالح الشرعية، وذكروا له إحسان والده علىٰ الأقطار المصرية؛ فأبقىٰ ما كان عليه، وزاد من لطفه فوق ذلك الإحسان، وأصدر فرمانه الشريف، وخطه الهُمايوني المنيف، بإبقاء المرتبات علىٰ ما هي عليه، اغتنامًا للثواب، وإحرازًا للدعوات الصالحات التي ليس دونها حجاب، ولم تزل هذه الأرزاق علىٰ مستحقيها دارّة، وبها عيون العواجز والأرامل وأهل العلم والقرآن قارّة، إلىٰ أن حصلت التقلبات والفتن وتصاريف الدهر بالمحن وتغلب الفرنساوية علىٰ الديار المصرية»[1].

---

(١) مناهج الألباب، (ص٤٣).

ويقول رفاعة عن الفتح العثماني لمصر:

«فإن يكن التمدن قد قصر في مصر وانحط عن قدره الأصيل، فإنما كان ذلك في أيام المماليك ... حتىٰ أنقذهم منها شوكة آل عثمان، وغارت دولة الغوري بمصر، واطمأنت قلوب أهلها بسلامة السلطان سليم خان، وقتله للسلطان طومان»[1].

ويقول عن عهد السلطان سليمان الثاني:

«ولقد كان عصر السلطان سليمان الثاني أعظم الأعصار؛ إذا هو الذي قدم الدولة العثمانية إلىٰ أوج الفخار، وافتتح الفتوحات العظيمة، وأعلىٰ كلمة الله، ورفع المنار، وباشر الغزو بنفسه في ثلاث عشرة غزوة، وانتصر في جميعها بقوة التدبير وتنظيم الجيوش وأي قوة، وبنىٰ الأبنية العجيبة، وفعل كثيرًا من الأفعال الخيرية الغريبة، وأنشأ الدونتما العثمانية[2]، وكان كهفًا وملاذًا لأكثر ملوك البلاد القاصية والدانية ... ففي تلك الأيام كانت الهيبة العثمانية عظيمة مرعبة لملوك أوروبا»[3].

وقد ترجم رفاعة رسالة رائعة جدًّا تبين مدىٰ شجاعة العثمانيين وإقدامهم في الحرب، وهي رسالة من جندي فرنسي إلىٰ أحد القادة الفرنسيين، خلال حرب روسيا مع الدولة العثمانية، وكان هذا الجندي متطوعًا في جيش الروس بهدف نصرة المسيحيين الأروام! وتاريخ

---

(١) مناهج الألباب، (ص٢٠٥).

(٢) أي الأسطول البحري.

(٣) ينظر: مناهج الألباب، (ص٢١٤-٢١٧).

الرسالة: ٢٢ يوليو ١٨٢٨م، وهي كالتالي:

«اعلم يا محبنا أن هذه أول مرة التحم فيها صفنا مع الصفوف الإسلامية منذ وصولنا إلىٰ العساكر الموسقوبية[١]، ثم إن سائر ما رأيته مما يذهل العقول ويحير الألباب، تقصر عنه العبارة، كيف وهو أمر غريب بالنسبة إلىٰ مثلي، فلو كنت مثل جنابكم من العسكر المتمرن علىٰ الحروب، سافرت في غزوة مصر، ورأيت واقعة أبي قير، وحصار مدينة عكا.. لما حار لُبي حين رأيت شيئًا جديدًا لم أكن عايته قبل ذلك، مما يكلّ عنه الوصف!

ولكن تأمل يا أخي في أمري، حيث إني قد كنت في خفر مليكتنا، وخرجت من مكتب (سنيسر) ولم أحضر من الوقائع إلا وقعة الأندلس، فلم أشعر إلا أن وجدت نفسي قدام جبل بلقان بعد أن جبت البراري والقفار، وعاينت المشاق بتهديد أهلها لنا وتخلصهم منا، وإدهاشهم لجيوشنا.

وانظر في استعجابي وذهاب صوابي حين خرجت الفوارس التركية متصافة صفوفًا عجيبة للحروب الإسلامية بأعلىٰ (شملا)، وقد وصل إلىٰ شريف علمكم من دفتر علم (الموسقو) تفصيل هذه الواقعة، وشر أحوال الجمع الغفير من عساكرنا، والخبر أنها صارت ضائعة، وقد شاهدت بعيني رأسي سوء ميتة (الميرالاي باردي) الموسقوبي بحالة رديئة، حيث انقسم نصفين بضربة مدفع تركية!

---

(١) أي الروسية، نسبة إلىٰ موسقو (موسكو) عاصمة روسيا.

ومن الآن فقط ظهرت صعوبة هذه الحرابة، وطول مدتها لا يعد من الغرابة، وإن كان بعساكرنا شجاعة وصلابة في الحروب، فعساكر الإسلام لها مصادمة قوية بمعزل عن الهروب!

وهذه المصادمة هي التي تستهل الخطر، وتخترق المانع لبلوغ الوطر، ينتج منها ثمرتان: الأولىٰ أنها تلقي الحيرة في عقول الرجال، والثانية أن عاقبتها دائمًا تفرغ الفزع في قلوب الأعداء، ولو كانوا من الأبطال!

ولو شاهدتْ عيناك ما شاهدتُه من أن الفرسان العثمانية تروّع الإنسان بمجرد منظرها المرعب! وبسرعة اقتحامها المدهش المعجب! ومشيها علىٰ صوت الألحان الوحشية، وصهيل الخيول الكردية، ونزولها كالصواعق علىٰ المشاة الموسقوبية.. لحكمت مثلي بأن هذه الحرابة تطول، وأن اضطرام نارها قلّ أن يزول!

أوَليس أن للدولة العثمانية فرسانًا عظيمة مرتبة بترتيب عجيب وهمة عليّة بنظام غريب؟ أوَهل ينكر أحد أن رجالهم متمرنون علىٰ ركوب الخيل، وأن خيولهم علىٰ أصل خلقتهم الوحشية طائعة لسيدها في الإقدام والإحجام، يبلغ عليها في الحرابة المقصود والمرام؟

فيا ويح العساكر القريبة التي يلتحم صفها بصف هذه الخيول المركوبة لهؤلاء الفحول! الذين لهم زيادة عن قوتهم الجهادية دعامة غَيرتهم الإسلامية والوطنية! وهذه مزية لا توجد يقينًا في عساكر الموسقو.

ثم ازدحام الخلائق في أوقات الحروب له تدبير صحيح، ولكن في

هذه الواقعة لا يجهل إنسان ولو كان من (القزاق) أن الفخر لعساكر الإسلام.

وهذا الخبر ربما ظهر لك أنه عجيب من مثلي، خصوصًا وأنا قد جئت متطوعًا في عسكر الموسقو لأشاركهم في اقتحام الأخطار، وأقتسم معهم الفخار، ولكن لما وصلت إلىٰ هنا ظهر لي أن الظن قد خاب، وأني قد حدت عن الصواب!

ورأيت أعداءنا الذين كنا نتهمهم بحقارة الرتبة والرداءة هم الليوث الضراغم! ليس لهم شيء من الدناءة، بل هم أقرب إلىٰ قبول التأدب والظرافة من الإفرنج.

واعلم يا أخي أن غيرتي علىٰ خلاص الأروام من يد العثمانية لم تنقص شيئًا، ولكن أقول: ليت شعري، هل تلزم الغارة علىٰ إسلامبول في خلاصهم؟ أو ليس مما يتحسر عليه أن ما خسرناه في أخذ مدينة (إبرائل) من العساكر كان يكفي وحده في فك أسر الأروام وتحرير رقابهم، وتقليل سفك دمائنا بعساكر الإسلام؟

وقد أسرنا عن قريب أحد ضباط العساكر العثمانية، وكان شابًا بديع الصورة، كثير الجروح، فعفا عساكرنا عن قتله ولم يكن ذلك لغيره، ورقّوا لملاحته وجراحته، فخاطبته باللغة الإيطاليانية، ففهم مقالي وأجاب سؤالي، وأخبرني بأن أباه له من العمر الآن ثمانون سنة، وله إخوان في خدمة حسين باشا، لا يشك في نصرة الدولة العثمانية، بل يقول: إن الترك يصلون إلىٰ (موسقو)!

واعلم يا أخي أن في (شملا) نحو مائتي ألف محارب، ويتجدد عليها

كل يوم، وسلطانهم بكل عظيم عن يقين، وها أنا الآن أطوي لك كتابي لأضع قدمي في ركابي، فالآن عساكر الأعداء تحارب في طليعة جيشنا، وأنا بين دوي ألحان الترك وعجيج أصوات الروس غريقٌ، وهذه حرابة مهولة إن نظرت بعين التحقيق!»[1].

١١) المرأة عند رفاعة لا تتولىٰ الرئاسة والقضاء:

يهاجم العلمانيون بضرواة الإسلاميين الذين يقولون بعدم جواز تولّي المرأة للرئاسة والقضاء، ويرون أن هذا ظلم للمرأة ورجعية، ولنرىٰ رأي الشيخ رفاعة حول هذه المسألة.

يقول رفاعة رحمه الله:

«قد قضت الشريعة المحمدية وقوانين غالب الممالك، بقصر السلطنة علىٰ الرجال دون النساء، وأن النساء لا يتقلدن بالرتب الملوكية، ولا يلبسن التاج الملوكي... وأما القضاء فليس لهنّ فيه حظ ولا نصيب... وسبب هذا أن النساء في الغالب وضَفهُن النقص عن الرجال، في مهمات الأمور الحسية والمعنوية؛ فلا يستطعن لما فيهن من الضعف أن يتحملن أعباء المملكة الثقيلة»[2].

ويتتبع رفاعة بعض النساء اللاتي تولين السلطة في البلاد غير الإسلامية، ويتوصل إلىٰ أنهن فشلن في حكمهن؛ فيقول:

«ومع أن هؤلاء النساء تقلدن السلطة، وسلكن مسالك الشجعان

---

(١) تخليص الإبريز، (ص٢٢١-٢٢٢).

(٢) المرشد الأمين، (ص١٠٤).

نوعًا، إلا إنهن كنّ سيئات العواقب، وقلّ إن خلت إحداهن في بعض الأفعال من نقصان... فإذا كان حالهن كذلك؛ فكيف يجوز وراثتهن للخلافة والسلطنة؟ ومن تقلد منهن السلطنة وأفلح فيها فلم يكمل له الفلاح، وإذا كمل فهو من النادر، والنادر لا حُكم له؛ فحديث: **لا يُفلح قومٌ ولَّوا أمرَهم امرأة**[1]، صادق بالمضمون مؤيد بالتجاريب»[2].

ويبني رفاعة رأيه هذا علىٰ كون عقول النساء ليس لها قدرة علىٰ الإحاطة بأبواب الشريعة والسياسة التي تخص الدولة، إضافة إلىٰ أن المرأة عورة لا يمكن أن تختلط برجال الدولة، فيقول:

«وأيضًا منعهن من الإمامة والقضاء اللذين هما دون السلطنة؛ لأن الإمامة والقضاء قد يكون فيهما الاجتهاد، وهو مرتبة عليا، وقلّ أن تجد امرأة فيها الأهلية، علىٰ أن أبواب الشريعة والسياسة التي تخص الملوك واسعة، لا تطيقها عقول النساء، علىٰ ما فيهن من كون جميعهن عورات، يتعذر مخالطتهن للموظفين من الأمراء الملكية والجهادية، ومعاشرتهن لجميع أصحاب المناصب والمراتب من أرباب السيوف والقلم»[3].

ويؤكد قائلًا:

«ولعل وجه عدم تولية النساء القضاء والإمامة والمناصب العامة، كونهن عورة لا يقدرن علىٰ مخالطة الرجال»[4].

---

(1) حديث: «لن يُفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»: أخرجه البخاري، (٤٤٢٥).
(2) المرشد الأمين، (ص١١٩).
(3) المرشد الأمين، (ص١١٩-١٢٠).
(4) المرشد الأمين، (ص١٠٥).

ويقول رفاعة إن تولي النساء للسلطة يكون في البلاد التي تحكم بالقوانين الوضعية، لا في بلاد الإسلام التي تحكم بالشريعة:

«وأما السلطنة الرسمية علىٰ الرعية (أي للنساء) فهي لا تكون إلا في البلاد التي قوانينها محض سياسة وضعية بشرية؛ لأن قوانين مثل هذه الممالك تنتج اختلاط الرجال بالنساء، بناء علىٰ قانون الحرية المؤسس عليه تمدن تلك البلاد، وإلا فتمدن الممالك الإسلامية مؤسس علىٰ التحليل والتحريم الشرعيين، بدون مدخل للعقل تحسينًا وتقبيحًا في ذلك، حيث لا حسن ولا قبيح إلا بالشرع»[1].

فالحرية لدىٰ رفاعة منضبطة بالإسلام وليست مطلقة، وقد أكد هذا في موضع آخر بقوله:

«والحرية الدينية هي حرية العقيدة والرأي والمذهب، بشرط ألا تخرج عن أصل الدين»[2].

١٢) ضوابط تعليم البنات عند رفاعة:

يُدلّس بعض العلمانيين الذين تحدّثوا عن مناداة رفاعة بتعليم المرأة بأنه ينادي بتسويتها بالرجل في كل شيء، علىٰ الرغم من أن رفاعة يقصد تعليمها ما يناسبها، وضرب مثلًا علىٰ ذلك بأمور الدين والقراءة والتطريز والخياطة وبعض ما يتعلق بإدارة المنزل، وما يفيدها في رعاية الزوج والأبناء!

(١) المرشد الأمين، (ص١٢٣).

(٢) المرشد الأمين، (ص١٢٧).

يقول رفاعة:

«وأما بالنسبة للبنات؛ فإن ولي البنت يعلمها ما يليق بها، من القراءة وأمور الدين، وكل ما يليق بالنساء من خياطة وتطريز، وإن اقتضىٰ حال البلاد تعليم النساء الكتابة وبعض المعارف النافعة في إدارة المنازل، فلا بأس بتعليم الحساب وما أشبهه لهن»[1].

ويرىٰ أن الهدف من تعليم البنات بالصورة السابقة هو «حسن معاشرة الأزواج»، وكي «يُعظمن في قلوبهم، ويعظم مقامهن؛ لزوال ما فيهن من سخافة العقل والطيش»[2].

يقول رفاعة:

«فلو أننا فرضنا أن إنسانًا أخذ بنتًا صغيرة السن مميزة، وعلّمها القراءة، والكتابة، والحساب، وبعض ما يليق بالبنات أن يتعلمنه من الصنائع؛ كالخياطة والتطريز، إلىٰ أن تبلغ خمس عشرة سنة، ثم زوّجها لإنسان حسن الخلق كامل التربية مثلها، فلا يصح أنها لا تحسن العشرة معه، أو لا تكون له أمينة»[3].

وقد سبق أن قال عن النساء:

«في الغالب لا يستطعن أن يتعلمن هذه المعارف الحكمية المهمة في المملكة والسلطنة والخلافة... وقد اقتضت الحكمة الإلهية أنه لم يكن

---

(١) مناهج الألباب، (ص٦٥).

(٢) المرشد الأمين، (ص٦٦).

(٣) المرشد الأمين، (ص٦٧).

فيهن في قديم الأحقاب حكيمة اشتهرت بحكمتها ولا من تفلسفت بإفراط معرفتها»[1].

١٣) رفاعة ومنع الاختلاط بين الرجال والنساء:

لا يصح إطلاقًا أن رفاعة الطهطاوي يبيح الاختلاط المحرم بين الجنسين كما ادعىٰ البعض، ويؤكد هذا ما يلي:

يقول رفاعة:

«وقال الحسن رضي الله تعالىٰ عنه: لا تدعوا نساءكم يزاحمن العلوج في الأسواق، قبّح الله تعالىٰ مَن لا يغار. وورد عنه ﷺ: **الغيرة من الإيمان**[2]... وقال رسول الله ﷺ: **إني لغيور وما من امرئ لا يغار إلا منكوس القلب**[3]، والطريق المغنية عن الغيرة ألا يدخل عليها الرجال، وهي لا تخرج إلىٰ السوق، والغيرة في الريبة محمودة يحبها الله تعالىٰ، وفي غيرها مذمومة ويبغضها الله تعالىٰ، وكان الصحابة ﷺ يسدون الكوات التي في الجدران؛ لئلا يطّلع منها النساء علىٰ الرجال»[4].

ويتكلم الشيخ رفاعة الطهطاوي عن آيات سورة القصص التي تروي قصة خروج الفتاتين للسقي، ويحكىٰ كيف تحفّظن عن الاختلاط بالرجال، ثم يبيّن أنهما اضطرتا للخروج والاختلاط بالرجال لأن الظاهر

---

(١) المرشد الأمين، (ص١٠٤).

(٢) جزء من حديث رواه معمر بن راشد في جامعه، (١٩٥٢١).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٧٧١٣) بلفظ: «إني غيور، وإن إبراهيم كان غيورًا، وما من امرئ لا يَغار إلا منكوس القلب».

(٤) المرشد الأمين، (١٤٩).

أن شعيبًا لم يكن له معين سواهما، كما فسّر قوله تعالىٰ: ﴿تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص: ٢٥] أي أنها تمشي بعيدًا مائلة عن الرجال[١].

ويقول رفاعة كما سبق معنا:

«ولعل وجه عدم تولية النساء القضاء والإمامة والمناصب العامة، كونهن عورة لا يقدرن علىٰ مخالطة الرجال»[٢].

ويقول أيضًا كما نقلنا آنفًا:

«جميعهن عورات، يتعذر مخالطتهن للموظفين من الأمراء الملكية والجهادية، ومعاشرتهن لجميع أصحاب المناصب والمراتب من أرباب السيوف والقلم»[٣].

«وأما السلطنة الرسمية علىٰ الرعية (أي للنساء) فهي لا تكون إلا في البلاد التي قوانينها محض سياسة وضعية بشرية؛ لأن قوانين مثل هذه الممالك تنتج اختلاط الرجال بالنساء، بناء علىٰ قانون الحرية المؤسس عليه تمدن تلك البلاد، وإلا فتمدن الممالك الإسلامية مؤسس علىٰ التحليل والتحريم الشرعيين، بدون مدخل للعقل تحسينًا وتقبيحًا في ذلك، حيث لا حسن ولا قبيح إلا بالشرع»[٤].

ويقول رفاعة الطهطاوي:

«من محاسن الإسلام، أن الله ﷻ قد أودع في قلب الرجل الغيرة

---

(١) مناهج الألباب، (ص١٥٥-١٥٦).
(٢) المرشد الأمين، (ص١٠٥).
(٣) المرشد الأمين، (ص١١٩-١٢٠).
(٤) المرشد الأمين، (ص١٢٣).

علىٰ نسائه، حتىٰ جعل ﷺ بدن الحرة عورة بالنسبة للآخرين؛ فلا يحل لها كشفه عليه، ولا يحل له نظرها أيضًا، فلذلك كانت نساء الإسلام مصونات في بيوتهن، سيدات علىٰ غيرهن، ومن العادة أيضًا العامة لسائر المسلمين أنه لا يليق أن يسأل الإنسان عن حال زوجته، وإن كان هذا يُعد في بلاد الإفرنج من اللطافة والظرافة لفقدهم الغيرة»[1].

وحين راقب الطهطاوي العلاقات بين الجنسين في باريس... تذمر هو أيضًا من قلب النظام الطبيعي... فالطهطاوي ينتمي إلىٰ مجتمع تظل النساء المحترمات فيه حبيسات الخدور، ويخرجن إلىٰ الأماكن العامة في هدوء وتخفٍّ، متدثرات بطبقات من الملابس والحُجُب[2].

١٤) رفاعة وحكمة تعدد الزوجات:

ينسب البعض إلىٰ رفاعة أنه يعارض تعدد الزوجات، وهذا ما يكذبه كلام رفاعة التالي، يقول ﷺ:

«ولمحبة الله تعالىٰ في بقاء النفوس.. أَمَر بالزواج وحثّ عليه وأباح التعدد؛ لطفًا منه تبارك وتعالىٰ علىٰ خلقه، خشية أن تتجاوز بهم الرغبة، لكن بشرط العدل بين الزوجات، فقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣][3].

---

(١) «نقله عنه الدكتور السيد أحمد فرج في المؤامرة علىٰ المرأة المسلمة، ص(١٤١)». عودة الحجاب، محمد إسماعيل، (٣/ ١٣١).

(٢) العرب من الفتوحات العثمانية إلىٰ الحاضر، يوجيه روجان، (ص١٨٠).

(٣) المرشد الأمين، (ص١٤٨).

١٥) رفاعة وتربية الأطفال تربية إسلامية:

يقول رفاعة:

«مَنّ الله ﷻ علىٰ قلب الإنسان بالحفظ، وشرح له صدره في أول نشأة الإيمان من غير حجة وبرهان، وإنما تحصل التقوية والإثبات في الصبي والعامي بعد ذلك حتىٰ يرسخ الإيمان ولا يتزلزل، وليست التقوية والإثبات في قلب الصبي أن يعلمه وليه صنعة الجدل والكلام؛ بل يشغله بتلاوة القرآن وتفسيره، وقراءة الحديث ومعانيه، ويشتغل مع ذلك بوظائف العبادات؛ فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخًا بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه، وبما يرد عليه من شواهد الحديث وفوائده، وبما يسطع عليه من أنوار العبادة ووظائفها، وبما يسري عليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم، وسيماهم وهيئاتهم في الخضوع لله تعالىٰ، وهذه هي التربية الحسنة حتىٰ ينمو في الصبي بذر الإيمان، ويقوي فيه شجرة راسخة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء؛ فيظهر اعتقاده كالطود الشامخ، ثم ينوطه بالصناعة التي تميل إليها نفسه ويستحسنها ظنه وحدثه، ومع ذلك فلا يتأخر مع أداء صنعته عن تلاوة القرآن، قال ﷺ: **إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد. قيل يا رسول الله وما جلاؤها؟ قال: قراءة القرآن**»[١].

١٦) التمدن الحقيقي ما جاءت به الرسل:

يرىٰ رفاعة أن التمدن نوعان: ديني، بالتمسك بالدين وتطبيقه،

---

(١) مناهج الألباب، (ص٦١). وينظر الحديث في السلسلة الضعيفة للشيخ الألباني رقم (٦٠٩٦).

ودنيوي، بالتقدم في العلوم والعمران، وأن التمدن الحقيقي هو تمدن الصحابة والسلف الصالح، ويرىٰ أن الغرض الأصلي من العلوم والمعارف هو الانقياد لأوامر الله تعالىٰ، وأن ما يحرمه الشرع لا يُعد تمدنًا.

ويتضح ما سبق من كلامه الكثير جدًا حول هذه القضايا، وننقل هنا طرفًا منه.

يقول:

«ولا شك أن رسالة الرسل بالشرائع هي أصل التمدن الحقيقي الذي يُعتد به ويُلتفت إليه، وأن الذي جاء به الإسلام من الأصول والأحكام هو الذي مدّن بلاد الدنيا علىٰ الإطلاق، وانبعثت أنوار هديه في سائر الآفاق»[1].

ويقول رفاعة:

«إن للتمدُّن أصلين:

وهو التمدن في الأخلاق والعوائد والآداب، يعني التمدن في الدين والشريعة، وبهذا القسم قوام الملة المتمدنة التي تسمىٰ باسم دينها وجنسها لتتميز عن غيرها . . .

والقسم الثاني: تمدن مادي وهو التقدم في المنافع العمومية؛ كالزراعة والتجارة والصناعة، ويختلف قوة وضعفًا باختلاف البلاد،

---

(١) المرشد الأمين، (١٢٤).

ومداره علىٰ ممارسة العمل وصناعة اليد، وهو لازم لتقدم العمران»[1].

وقال:

«ومن المعلوم أن دين الإسلام الذي شُرع لسعادة الأمة هو وسيلة التمدن العظمىٰ؛ فأول ما فتح الله ﷻ مصر في عهد أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، كان أول مَن رتب وأرصد من بيت مال المسلمين علىٰ الخيرات والعلماء والمجاهدين وأولادهم وعيالهم وأهل الضرورات ما لزم من الإرصادات، وما زالت هذه الإرصادات الشرعية مستمرة في جميع الدول والقرون، ولله في شريعته أسرار لا يعقلها إلا العالِمون، وتبع أميرَ المؤمنين ﷺ علىٰ زيادة هذه الإرصادات وإجراء حقوقها مَن جاء بعده من الخلفاء والسلاطين؛ فكانت سُنة حسنة مُتَّبعة»[2].

«إن أسباب التمدن في الدنيا: التمسك بالشرع، وممارسة العلوم والمعارف، وتقدُّم الفلاحة والتجارة والصناعة، واستكشاف البلاد التي تعين علىٰ ذلك، واختراع الآلات والأدوات من كل ما يسهل أو يقرّب الطرق التمدنية»[3].

ويرىٰ أن ما حرّمه الإسلام لا يُسمىٰ تمدنًا، فيقول:

«فكل ما يمنعه الشرع صراحة أو ضمنًا فغير مباح، ولا يُعد تمدنًا»[4].

---

(١) مناهج الألباب، (ص٩-١٠).

(٢) مناهج الألباب، (ص٤١).

(٣) المرشد الأمين، (١٢٥).

(٤) المرشد الأمين، (١٢٤).

ويقول رفاعة:

«الغرض الأصلي من العلوم والمعارف هو الانقياد لأمر الله تعالىٰ، بما اقتضته الحكمة الربانية في بعثه للرسل عليهم الصلاة والسلام؛ حيث إن الحكمة في بعثهم إنما هي لانتظام أحوال العباد في المعاش والمعاد، مما لا يحصل إلا بعبادة أو معاملة أو مناكحة أو جناية، فكل بالغ عاقل مُكلَّف بعلم الحلال والحرام، والعمل به؛ لينال سعادة الدارين»[1].

١٧) شروط السفر لبلاد الإفرنج ورأيه في التشبه بهم:

جعل رفاعة من شروط السفر لبلاد الإفرنج كفرنسا: أن يأمن الإنسان علىٰ دينه، وأن يكون السفر من أجل مصلحة، قال رفاعة:

«حيثما أمن الإنسان علىٰ دينه، فلا ضرر في السفر، خصوصًا لمصلحة»[2].

وهذا عين ما ذكره الفقهاء المسلمون في شروط السفر لـ«ديار الكفر»، ومقتضىٰ كلامه بأن من كان ضعيف التدين بحيث يُفتن في دينه إذا ذهب إلىٰ هذه البلاد فسيكون عليه ضرر إذا سافر، وكذلك إن لم يكن له مصلحة ما من سفره؛ كتلقي العلم غير الموجود في بلاد المسلمين، وهو ما فعله رفاعة عندما سافر فرنسا.

ويقول رفاعة عن التشبه بالإفرنج:

«وربما توهم البعض أن التزيي بزي البلاد الأجنبية المشهورة بالتمدن

---

(١) المرشد الأمين، (٧١).

(٢) تخليص الإبريز، (ص١٧).

هو من المروءة الكاملة والسيرة الفاضلة، فبادر بالامتياز بها عن الأكثرين بدون موجب، مع أن قيافة بلده لا تنقص عنها شيئًا، وإنما قصد بذلك الخروج عن قيافة بلده التي استرذلها الأجانب، وخفي عليهم تعدي طورهم، وتجاوز قدرهم، وقبح بين أهل الوطن ذكرهم.

إذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل

فالتمدن ليس في زينة الملابس بعرف مجهول، متخيل استحسانه؛ لاسيما إذا كان لا يمكن لمن تزيا به إحسانه»[1].

١٨) رفاعة يُفضل العرب علىٰ غيرهم:

يرىٰ رفاعة أن العرب أفضل الأمم، وليس المصريين بحضارتهم الفرعونية كما يعتقد القوميون والوطنيون المتعصبون!

يقول رفاعة:

«وقد ثبت بالعقل والنقل تواترًا أن العرب أكثر الأمم شجاعة ومروءة وشهامة، ولسانهم أتم الألسنة بيانًا... فالعقل قاضٍ بفضل العرب... فلما جاء الإسلام ونقلهم من حالة الجاهلية التي أحاطت بهم، زالت الريون عن قلوبهم، واستنار باطنهم بفطرة جديدة، وفطرة نيرة سعيدة، فاجتمع لهم الكمال التام والخير العام بالقوة المتجددة فيهم ودرجة الفضل العظيم، فلذلك كان بقاؤهم نورًا في الإسلام، وفناؤهم فساد فيه، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: إذا ذلت العرب ذل الإسلام[2]. فكيف وهم

---

(١) مناهج الألباب، (ص٢٢).

(٢) رواه أبو يعلىٰ الموصلي في مسنده (١٨٨١).

الذين فتحوا بلاد الدنيا، وأعزوها بالإسلام، ومدّنوها بالعلوم؟»[1].

١٩) رثاء رفاعة لسليمان الحلبي:

وأهمية رثائه هذا أنه لو كان يرىٰ الفرنسيين فاتحة الخير علىٰ مصر كما يرىٰ بعض العلمانيين، لما ترحّم علىٰ قاتل قائد حملتهم كليبر، ولما لقبه بأنه مرحوم وشيخ وشهيد! ولما ظهرت الشفقة في كلامه علىٰ قتل الفرنسيين للحلبي.

يقول رفاعة عن سليمان الحلبي بعد أن رأىٰ بقايا جثته في فرنسا:

«ويوجد بهذا الرواق بعض شيء من جثة المرحوم الشيخ سليمان الحلبي، الذي استشهد بقتله للجنرال الفرنساوي كليبر وقتل الفرنساوية له، في أيام تغلبهم علىٰ مصر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[2].

٢٠) مفهوم الوطنية عند رفاعة الطهطاوي:

ينطلق رفاعة الطهطاوي في فكرته حول الوطن من دافع إسلامي، سعيًا لتحقيق غاية إسلامية، ومعلوم أنه لا مشاحة في الاصطلاح!

فهو يرىٰ أن حب الوطن من الإيمان وأنه دلّ علىٰ ذلك أدلة شرعية، ويرىٰ أن تحبيب الوطن لأهله يكون دافعًا لتعميره وتمدنه، وهذا التعمير والتمدن هو لبلد مسلم، ولا شك أن رفعة البلد المسلم غاية نبيلة، وهو لا يعتنق مفهوم الوطنية المذموم، الذي يوالي ويعادي علىٰ قُطر ما، أو ينسلخ من الولاء لبلاد الإسلام، أو غير ذلك من المخالفات، وقد اتضح ذلك

---

(١) مناهج الألباب، (ص١٥٠-١٥١).

(٢) تخليص الإبريز، (ص١٨٤).

مما سبق ذكره، فينبغي وضع مفهوم الوطنية لديه في سياق فكره ومنهجه.

يقول رفاعة مستدلًا على حب الوطن بالأدلة الشرعية:

«ويكفي حب الوطن، أن كراهة الإجلاء منه مقرونة بكراهة قتل الإنسان نفسه في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦]»[1].

وحسب المؤمن بحب الأوطان، أن رسول الله ﷺ حين خرج من مكة، علا مطيته، واستقبل الكعبة، وقال: **والله لأعلم أنك أحب بلد الله إليّ، وإنك أحب أرض الله إلى الله تعالى ﷻ، وأنك خير بقعة على وجه الأرض وأحبها إلى الله تعالى، ولولا أن أهلك أخرجوني منك لما خرجت**»[2].

ويقول رفاعة معللًا دعوته لحب الوطن:

«وإرادة التمدن للوطن لا تنشأ إلا عن حبه من أهل الفِطَن كما رغّب فيه الشارع؛ ففي الحديث: **حب الوطن من الإيمان**[3]. قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: عمّر الله البلاد بحب الأوطان . . . وقال بعض الحكماء: لولا حب الوطن لما عمرت البلاد الغير المخصبة»[4].

---

(١) مناهج الألباب، (ص١٣).

(٢) مناهج الألباب، (ص١٥). والحديث أخرجه الترمذي (٣٩٢٦) بلفظ: «**ما أطيبك من بلد، وأحبك إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك**».

(٣) قال السخاوي: «لم أقف عليه، ومعناه صحيح». المقاصد الحسنة، السخاوي، (ص٢٩٧).

(٤) مناهج الألباب، (ص١٠).

«فكل مملكة تأخذ حظها الأوفر من نير التمدن مدة قرون وأزمان بحمية أهلها ومغالاتهم في حب الأوطان . . . فيحصل لهذا الوطن من التمدن الحقيقي المعنوي والمادي كمال الأمنية؛ فيقدح زناد الكد والكدح والنهض بالحركة والنقلة والإقدام علىٰ ركوب الأخطار تنال الأوطان بلوغ الأوطار»[1].

ويرىٰ رفاعة أن العمل من أجل منفعة الوطن يعود بالقوة علىٰ دولة الإسلام في النهاية:

«فعلىٰ العاقل أن يتمسك بكل فضيلة يمتدح بها وتُبيض بها صحيفته دنيا وآخرة، من كل ما يحرز المنافع العمومية، دنيوية أو دينية، مما يكون به لأهل ملته تمام النظام، وتعود منفعة عاجلًا أو آجلًا علىٰ قوة دولة الإسلام»[2].

كانت هذه بعض معالم منهج رفاعة الطهطاوي دون تدليس، وإنني أدعو الإسلاميين إلىٰ إعادة قراءة كتبه، للخروج برأي سديد حوله، ولا شك أنه أخطأ في أشياء؛ لكن: مَن له الكمال والعصمة؟! وهل إذا أخطأ في أشياء نتركه ونزهد في الإفادة منه؟

أما العلمانيون والغربيون الذين تحدثوا عن رفاعة ومجّدوه وحرّفوا مقاصده، فإنني أسألهم: ما رأيكم في هذه الآراء «المنغلقة» وفق منطقكم؟ وأين هي في كتاباتكم حول رفاعة الطهطاوي؟ وهل يصح الاجتزاء اعتمادًا علىٰ عزوف الكثيرين عن القراءة ووثوقهم في أمانة الباحثين والمؤرخين؟!

---

(١) مناهج الألباب، (ص١٩).

(٢) مناهج الألباب، (ص٤٣٤).

الفصل الخامس

الحركة العرابية حركة إسلامية

• تمهيد:

يحرص الكُتاب العلمانيون، والمؤرخون القوميون، علىٰ أن يرسخوا في وجدان الشعب المصري، أن الحركة العرابية أول حركة قومية قامت ضد «الاحتلال العثماني التركي»؛ للاستقلال بمصر «أم الدنيا»، وإعادة «الهوية المصرية»، التي حاول المحتلون بشتىٰ أجناسهم مرارًا أن يقضوا عليها منذ عهد الفراعنة، فلم يستطيعوا علىٰ مر العصور والأزمان!

مما جعل قطاعًا واسعًا لا يدري شيئًا عن حقيقة الثورة ومراميها، وتكونت عنها في أذهان الكثيرين صورة مزيفة، شارك في صناعتها بشكل قوي هؤلاء الكتاب غير المهنيين، الذين أمسكوا بزمام المنابر الثقافية الحكومية بشتىٰ أنواعها.

إن الاطلاع علىٰ حقيقة الثورة العرابية وما اكتنفتها من أحوال، من شأنه أن يُطلع القارئ علىٰ أمر مهم للغاية، ألا وهو ثقافة الشعب المصري

وثقافة قادته وطبيعة المعارضة السياسية قبل الاحتلال الإنجليزي مباشرة، الأمر الذي يساعد بقوة علىٰ إدراك ما طرأ من تغيير بعد ذلك علىٰ تلك الثقافة بسبب الاحتلال.

• أولًا: دور الأفغاني وملخص أحداث الثورة:

لا شك أن الثورة العرابية من أهم الأحداث التي مرّت بها مصر في تاريخها الحديث، وقد صوّرها بعض المؤرخين ذوي الاتجاه القومي الوطني العلماني علىٰ أنها ثورة قومية أو وطنية ضد «الاحتلال العثماني» لمصر! وهذا ما سيتبين تهافته من قراءة هذا الفصل إن شاء الله.

إن الثورة العرابية كانت «ذات صفة دينية، قامت ضد تدخل الأجنبي وافتئاته علىٰ حقوق البلاد وجُل أهلها مسلمون»[(١)].

ويؤكد إسلامية الحركة العرابية كتابٌ صادر عن واحدة من أهم المؤسسات البحثية الصهيونية! وهو معهد (شيلواح) للدراسات الشرق أوسطية والإفريقية، والذي كتبه أستاذ بجامعة (تل أبيب)، وآخر بجامعة (كولورادو) الأمريكية؛ حيث جاء فيه ما يلي:

«كانت الحركة العرابية في أوائل ثمانينات القرن التاسع عشر أكثر عثمانية، فبينما كان قادة الحركة العرابية يعبّرون عرضًا عن استيائهم من الشراكسة والأتراك وآثار هيمنته الطويلة علىٰ مصر، إلا أنهم كثيرًا ما كانوا يعبّرون عن ولائهم للسلطان العثماني سلطان الملة الإسلامية، مؤكدين علىٰ رغبتهم في استمرار تبعية مصر الإسلامية العثمانية الرسمية للدولة

---

(١) تاريخ مصر السياسي في الأزمنة الحديثة (الطبعة المختصرة)، محمد رفعت بك.

العلية، وهم يعلنون كفاحهم باعتباره شكلًا من أشكال صون الوحدة الإسلامية، في وجه خطر السيطرة الأوروبية، وربما كانت أبرز المظاهر هي الصبغة الإسلامية القوية للوجدان الشعبي خلال فترة توهج النشاط القومي في ١٨٨١-١٨٨٢، ودعوة الصحف العرابية للتضامن المصري مع السلطان الخليفة العثماني، وقيام الزعامات الدينية الإسلامية بالشيء نفسه، ووضع الكفاح ضد البريطانيين في إطار (حرب إسلامية مقدسة)، وإطلاق الفئات الشعبية علىٰ قوات عرابي اسم: حزب الله»[1].

لقد كان هناك تذمر بين فريق كبير من الضباط المصريين، يرجع إلىٰ تفضيل العناصر الشركسية والتركية عليهم، لا لشيء سوىٰ التعصب القومي، بعيدًا عن معيار التميز والكفاءة، وهذا التمييز العنصري بدأ منذ تأسيس محمد علي للجيش الحديث.

وظل هذا التذمر كامنًا في نفوس المصريين، حتىٰ ظهر جمال الدين الأفغاني، ودعا إلىٰ الجامعة الإسلامية، والشورىٰ، ومقاومة الاستبداد والوقوف أمام التدخل الأجنبي غير المسلم في شئون البلاد الإسلامية، تلك الدعوة التي أدّت إلىٰ نفيه من مصر في رمضان ١٢٨٦-٢٤ أغسطس ١٨٧٩م.

لقد نُفي جمال الدين من مصر، لكن دعوته «تركت أثرها في المجتمع المصري، وبقيت النفوس ثائرة تتطلع إلىٰ إصلاح نظام الحكم، وإقامته

---

(١) هوية مصر بين العرب والإسلام، أ. جرشوني- ج. جاكوفسكي، ترجمة بدر الرفاعي، (ص٢٦).

علىٰ دعائم الحرية والشورىٰ؛ فجمال الدين هو من الوجهة الروحية والفكرية أبو الثورة العرابية، وكثير من أقطابها هم من تلاميذه أو مريديه، وحسبك أن خطيب الثورة العرابية عبدالله النديم كان تلميذًا له، ومحمود سامي البارودي رئيس وزارة الثورة كان من أصدقائه ومريديه، والشيخ محمد عبده هو تلميذه الأكبر»[1].

وهنا أمر تجدر الإشارة إليه سريعًا، وهو وصف البعض للأفغاني بالخيانة والعمالة لغير المسلمين، مستدلين بانضمامه للماسونية، غافلين عن أنهم يتحدثون عن الماسونية اليوم وخلفهم خبرات أكثر من قرن مع تلك المحافل وأسرارها، ولديهم تراث من القرارات والتوصيات من المجامع العلمية الإسلامية والكتب والمقالات والرسائل العلمية التي تدين الماسونية وتجرم الانتساب إليها، وهذا ما لم يكن موجودًا قط في زمن الأفغاني؛ حيث كان لا يترك نشاطًا عامًا إلا شارك فيه لنشر دعوته الإسلامية، خاصة وأن المحافل الماسونية وقتها كانت تستقطب شخصيات علمية ودينية وسياسية وقضائية رفيعة للغاية. وبالتالي فمن الظلم أن نحمل الأفغاني وزر الانتساب إليها كعارف بمراميها وأهدافها وكمشارك عامدًا لتحقيق مآربها التي لم تُعرف إلا بعد ذلك بسنين![2].

كان وزير الحربية عثمان رفقي ضابطًا شركسيًا متعصبًا لقومه، وكانت الترقيات من نصيب الشراكسة والأتراك فقط علىٰ حساب الكفاءة

---

(١) جمال الدين الأفغاني، عبد الرحمن الرافعي، (ص٤٩).

(٢) ينظر مقال: جمال الدين الأفغاني ما علاقته بالماسونية، صحيفة عكاظ، عدد ٣١٦١، ٢٧ صفر ١٤٣١، ١١ فبراير ٢٠١٠م.

والنزاهة، فأخذ عدد من الضباط يجتمعون لمقاومة التميز والظلم.

واختير عرابي قائدًا لهم؛ لأنه «كان قبل الانضمام إلىٰ الجيش يطلب العلم بالأزهر الشريف، فكانت له مقدرة متوسطة في الخطابة لم تكن عند غيره من الضباط، فضلًا عن انتمائه للبيت العلوي الشريف، يرشحه لأكبر زعامة إسلامية»[1].

قدّم عرابي ورفاقه شكوىٰ إلىٰ مجلس الوزراء، طلبوا فيها عزل عثمان رفقي، فتم استدعاء عرابي وزميليه علي فهمي وعبد العال حلمي، فاتفقوا قبل أن يذهبوا مع باقي زملائهم أن يأتوا لإخراجهم بالقوة إذا تأخروا داخل قصر النيل، وبالفعل قد جُردوا من سلاحهم واعتُقلوا عند وصولهم، فهجم زملاؤهم علىٰ المكان وأخرجوهم بالقوة.

وبعد أن خرج عرابي ورفاقه ذهبوا علىٰ رأس الضباط والجنود إلىٰ سراي عابدين، مطالبين بعزل رفقي، واعتصموا هناك حتىٰ يجاب طلبهم، واضطر الخديو إلىٰ قبول طلبهم، فعزل رفقي وعيّن زميلهم محمود سامي البارودي مكانه، وأعادهم إلىٰ مناصبهم بعد أن كان عزلهم.

وبعد هذا الموقف زادت شعبية عرابي ورفاقه، وزادت محبته في القلوب، فبدأ عرابي يحدثهم عن مساوئ حكومة رياض باشا ومظالمها، وخطر تدخل إنجلترا وفرنسا في شئون مصر.

وقدّم البارودي استقالته إثر ازدياد الخلاف بينه وبين الخديو، وتم

---

(١) تاريخ مصر من الفتح العثماني إلىٰ قبيل وقتنا الحاضر، عمر السكندري وسليم حسن وراجعه ا. ج. سفدج، (ص٢٦٤).

تعيين داود يكن صهر الخديو مكانه، فأصدر القرارات بمنع اجتماعات الضباط ومراقبتهم، وزاد تدخل إنجلترا وفرنسا في شئون مصر، فزاد حنق عرابي ورفاقه وكثير من الشعب.

ثم اجتمع عرابي مع رفاقه ليتفقوا علىٰ التحرك للإصلاح، وكانوا قد حصلوا علىٰ عرائض من الأهالي مطالبين بالإصلاح، ثم قاموا في يوم الجمعة ١٥ شوال ١٢٩٨ الموافق ٩ سبتمبر ١٨٨١م بمسيرة إلىٰ سراي عابدين مكونة من ألفين وخمسمائة جندي، وثمانية عشر مدفعًا، وعددًا ضخمًا من الأهالي، وطالبوا الخديو بزيادة عدد الجيش إلىٰ ١٨٠٠٠ كما تقضي بذلك الأوامر العثمانية، وعزل الوزارة الظالمة الفاسدة، وتشكيل مجلس نواب لتحقيق الشورىٰ في الحكم.

فقال الخديو:

«كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها، وأنا ورثت مُلك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا».

فردّ عليه عرابي قائلًا:

«لقد خلقنا الله أحرارًا، ولم يخلقنا تراثًا أو عقارًا؛ فوالله الذي لا إله الا هو لن نُورَّث ولن نُستعبد بعد اليوم».

وقرر عرابي ورفاقه الاعتصام وعدم الرحيل حتىٰ تُجاب مطالب الأمة، وبالفعل تمت الموافقة علىٰ تنفيذ هذه المطالب، فزادت شعبية عرابي أكثر وأكثر بين العامة والخاصة.

ثم زاد التدخل الأجنبي في شئون البلاد، والعلاقات المشبوهة بين

توفيق والإنجليز، فأخذ عرابي يرسل الرسائل للسلطان العثماني ليشكو إليه بصفته سلطان المسلمين، ولتابعية مصر كولاية إسلامية للدولة العثمانية دولة الخلافة، فأرسل السلطان الوفود إلىٰ مصر لمعرفة الأحوال عن كثب، فلما علمت إنجلترا وفرنسا بأمر هذه الوفود واتصال عرابي وبالسلطان أرسلتا سفينتين حربيتين إلىٰ شاطئ الإسكندرية، فغضبت تركيا وأمرتهما بسحب السفينتين.

ثم ازداد الوضع سوءًا بتدخل إنجلترا وفرنسا في شئون البلاد بكل صراحة، بإرسال المذكرة المشتركة في ٧ يناير ١٨٨٢م، وفيها تعهدهما بمساندة الخديو، وقد قبل الخديو تلك المذكرة.

ثم تقدمت حكومة شريف باشا باستقالتها، وتم تكليف محمود سامي البارودي بتشكيل الحكومة بناء علىٰ رغبة الجيش والنواب، وتشكلت الوزارة من أنصار الحركة العرابية، وعُين عرابي وزيرًا للحربية، فقامت الأفراح والولائم فرحًا، وأصبح بيت عرابي قبلة يقصدها المهنئون وذوو الحاجات والأعيان والعلماء، واتسعت الهوة بين وزارة الثورة والخديو.

وفي ١٩ مايو ١٨٨٢م وصلت ١٢ سفينة إنجليزية وفرنسية إلىٰ شاطئ الإسكندرية دون إذن الدولة العثمانية، ثم طالبت إنجلترا وفرنسا بنفي أحمد عرابي خارج مصر، وبنفي زميليه عبد العال حلمي وعلي فهمي إلىٰ قُراهم بعيدًا عن القاهرة، وبإقالة وزارة البارودي.

فقبِل الخديو توفيق تلك المطالب؛ فأرسلت وزارة البارودي خطابًا إلىٰ الخديو تحتج فيه علىٰ هذا التدخل السافر، وعلىٰ مخالفة أوامر الدولة العثمانية، واستقالت الوزارة. غير أن الخديو بعد ذلك اضطر إلىٰ إبقاء

عرابي في منصبه، وكلّفه بحفظ الأمن في البلاد.

وجاء وفد عثماني إلىٰ مصر، ودعم عرابي سرًّا ضد التدخل الإنجليزي الفرنسي، ثم مُنح عرابي أوسمة رفيعة من السلطان العثماني، مما زاد من حنق الخديو وإنجلترا.

ثم وقعت حادثة مدبرة بالأسكندرية بين مسلمين ومسيحيين أوربيين، وقُتل العشرات من الجانبين، وانتهىٰ الحال بانسحاب سفن فرنسا الحربية، ثم ضرب الإنجليز للأسكندرية واحتلال البلاد، بعد جهاد من عرابي ومناصريه، ولكن ثمة عوامل أدّت إلىٰ الهزيمة، نذكرها فيما يأتي.

● ثانيًا: أحمد عرابي الإسلامي

ولد أحمد عرابي في ٧ صفر سنة ١٢٥٧، ببلدة هرية رزنة بالشرقية بضواحي مدينة بوبسط المشهورة الآن بتل بسط.

تعلم القرآن وبعض العلوم الدينية، في المكتب الذي أنشأه والده، وفي الجامع الأزهر أيضًا؛ حيث جاور فيه عامين، يتعلم الفقه والحديث والنحو وغير ذلك[1].

ويتصل نسب أحمد عرابي بالرسول عليه الصلاة والسلام.

ونشأ أحمد عرابي وسط أسرة متدينة؛ فكان أبو أحمد عرابي، السيد محمد عرابي، شيخًا جليلًا رئيسًا علىٰ عشيرته، عالـمًا تقيًا نقيًا، موصوفًا بالورع والعفة والأمانة. كما يقول أحمد عرابي عنه.

---

(١) تاريخ مصر السياسي في الأزمنة الحديثة، محمد رفعت بك، (ص٢٤١).

ويقول عنه أيضًا أحمد عرابي:

«أمر المرحوم والدي بترتيب دروس في المسجد الذي جدده في كل يوم للعامة بعد العصر، وبعد صلاة العشاء، فتفقه عامة أهل البلد في دينهم، وصحّت عبادتهم، وحسُن حالهم، كل ذلك بمثابرة المرحوم والدي علىٰ تعليم قومه وأهل بلده»(١).

لقد كان عرابي شخصًا متدينًا متمسكًا بالإسلام مفتخرًا به، حتىٰ بعد أن ترقىٰ في المناصب، فإن أخلاقه لم تتغير، فقد ظل إلىٰ النهاية رجلًا شديد التمسك بدينه، يباهي بما حفظه في الأزهر من آيات وأحاديث(٢).

ومن أسلوب كتابة مذكراته نلحظ أن طريقة عرابي شبيهة بطريقة مصنفي الكتب الدينية، فيبدو أن تأثره بثقافته الدينية قد دفعه إلىٰ اتباع ذلك النمط من الكتابة، كما يظهر هذا واضحًا في عدة أمور، مثل كتابته «الصلاة» بالواو «الصلوة» كما هو في خط المصحف، وكتقسيمه للكتاب علىٰ طريقة الكتب الدينية، وقوله فصل في كذا، ولأسلوب رده علىٰ بعض علماء السوء، كما سيأتي.

وتجد عرابي متعففًا عن المحرمات مبتعدًا عنها؛ فقد ذكر علىٰ سبيل المثال الواقعة التالية.

---

(١) مذكرات عرابي التي سماها: كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية، (١/ ٩١)، التاريخ السري للاحتلال الإنجليزي، ألفرند بلنت، (ص٣٤٤).

(٢) تاريخ مصر السياسي في الأزمنة الحديثة، محمد رفعت بك، (ص٢٤٢).

يقول:

«وحصل للخديو نشوة سرور فدعا جميع الضباط العظام، من رتبة البكباشي فما فوقها، إلىٰ مأدبة فوق ظهر سفينته البخارية، فلما أخذ كل واحد من المدعويين مجلسه وجد علىٰ المائدة عدة زجاجات مملوءة بأنواع المشروبات الخمرية المحرمة في ديننا»[١].

ثم ذكر أن الخديو إسماعيل أعطىٰ أراضي مملوكة لفقراء لعدد من الضباط؛ ثم قال عرابي:

«وقد حماني الله من الوقوع في شرك هذه المآثم علىٰ غير إرادة مني»[٢].

ومن الملاحظ وجود كثير من العبارات الدينية يستخدمها عرابي في كلامه، فيقول عرابي مثلًا:

«فتيقنت أن هذه العقبات عقاب من الله ﷻ علىٰ اعتمادي علىٰ غيره؛ لأنه تعالىٰ شأنه غيور، تصديقًا لقول الرسول ﷺ: **من توكل علىٰ غير الله أخلاه الله عنه**[٣].

وصبّرت نفسي علىٰ الرضىٰ بالقضاء، وفوضت أمري إلىٰ الله، وانقطعت لدرس تفاسير القرآن الشريف، والأحاديث النبوي؛ كالبخاري وابن ماجه وغيره ...»[٤].

---

(١) مذكرات عرابي، (١/ ١٠١-١٠٢).

(٢) مذكرات عرابي، (١/ ١٠٢).

(٣) لم أجد حديثًا بهذا اللفظ.

(٤) مذكرات عرابي، (١/ ١٠٨).

ويقول:

«وأما ناظر الجهادية فقد مات في حرب كريد ولكن ليس شهيدًا؛ بل أكل (فريكا) من قمح فانعقدت أمعاؤه وقضىٰ نحبه، وأرسل إلىٰ مصر ودفن جسمه في قرافة الإمام الشافعي، سامحه الله تعالىٰ، وهكذا كل من اشترك في تلك الظلامة أصيب بمصيبة عظيمة، نحن بالله عزنا لا بجاه ومال، فمن اعتدىٰ علينا حسبه الله والنبي.

وقد صار رفتي [رفدي] بلا معاش ظلمًا وعدوانًا فصبرت علىٰ ذلك مدة ثلاث سنين، وفوضت أمري إلىٰ الله، ومن آثار نعم الله عليّ أني كنت اشتريت مائة فدان بزمام ناحية تلمفتاح بمديرية الشرقية في زمن المرحوم سعيد باشا، فكنت أنفق علىٰ عائلتي من إيرادها، ومن إيراد ما خصني من الأطيان التي تركها والدي، وقدرها ثمانية أفدنة ونصف ببلدتنا هرية رزنة المذكورة.

نعم صبرت علىٰ أمرّ من الصبر، وفي العين قذىٰ وفي الحلق شجىٰ، وليس لي نصير ألجأ إليه غير الله سبحانه، وهو حسبي وكفىٰ»[1].

وترىٰ عرابي من حين لآخر يستشهد بأبيات شعرية إسلامية لعلماء المسلمين، فحينما استهزأ خسرو باشا به وبزملائه، قال عرابي:

«ولرُب نازلة يضيق بها الفتىٰ ... ذرعًا وعند الله منها المخرجُ
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فُرجت وكان يظنها لا تفرجُ»[2]

---

(١) مذكرات عرابي، (١/ ١٠٦).

(٢) مذكرات عرابي، (١/ ٢٣٠).

ويروي عرابي دخوله ساحة عابدين فيقول:

«وسرت بهذا الجيش ووقفت بساحة عابدين أمام مولانا الخديو حفظه الله، وقد اشتدت شوكة جيش البغي، وقويت معارضته، ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١]، فجال صديقي الأعز الهمام صاحب الغيرة والعزم القوي السيد عبد الله نديم بين الصفوف ينادي إحداهما: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] فكان معي ثاني اثنين في حفظ قلوب الرجال من الزيغ والارتجاف، وأخذ الكل يردد هذه الآية الكريمة كأنهم لم يسمعوها إلا من فمه في تلك الساعة»[١].

وعندما هرب بعض العساكر من موقعة التل الكبير.. أخذ يناديهم عرابي كما يقول في مذكراته مذكرًا إياهم بالشرف الإسلامي كأول شيء:

«وصرت أناديهم وأحرّضهم علىٰ الرجوع والثبات والصبر علىٰ قتال العدو، وأذكّرهم بالشرف الإسلامي، والعرض، والوطن، فما كان من سميع ولا بصير»[٢].

«فذكّرناهم بحماية الدين، والعرض، والشرف، والوطن، ولم يُجدِ ذلك نفعًا»[٣].

وعندما ضرب الإنجليز الإسكندرية، أرسل عرابي خطابًا إلىٰ يعقوب

---

(١) مذكرات عرابي، (١/ ٣٢٨).

(٢) مذكرات عرابي، (١/ ٧٠١).

(٣) مذكرات عرابي، (١/ ٧٠١).

باشا سامي وكيل الجهادية يذكر فيه العدوان علىٰ مصر الإسلامية وأن الدفاع عنها واجب شرعًا، ومما جاء فيه:

«لا يخفىٰ علىٰ سعادتكم ما حلّ بالديار المصرية الشاهانية من البلاء، الذي كان نتيجة الدسائس التي كانت عاقبتها جلب المراكب من بلاد الإنكليز، بقصد العدوان علىٰ بلادنا الإسلامية...».

«فاجأتنا مراكب الإنجليز بضرب المدافع علىٰ مدينة الإسكندرية... ولما كانت المدافعة واجبة شرعًا قابلناهم أيضًا بالضرب...».

ثم طلب منه أحمد عرابي أن يعقد مجلسًا «من الذوات والعلماء ومجلس النواب والأعيان، وتوضع هذه الأحوال في الذاكرة، وتقروا رأيكم، وتحرروا قرارًا بما ترونه في صالح الأمة، وهل يجوز شرعًا ما حصل من الخديو من التحيز إلىٰ العدو المحارب لبلاده أم لا»[1].

ثم يورد عرابي في مذكراته الخطاب الذي أرسله للحثّ علىٰ جهاد الإنجليز، وبدأه بقوله:

«قد أوجب الله علينا إعداد ما نستطيعه من قوة لقتال الأمة الإنجليزية، التي اعتدت علىٰ البلاد شرهًا وطمعًا، وبادأتنا بالحرب بغيًا وعدوانًا»[2].

ويُبجل عرابي الشريعة وأحكامها، ويتضح هذا عندما سأله عبد الله باشا فكري: هل قتلتم الخديو؟

---

(١) مذكرات عرابي، (٢/ ٥٩٢-٥٩٤).

(٢) مذكرات عرابي، (٢/ ٦٠١).

فقال له عرابي: «إننا لا نقتل أحدًا بغير حكم شرعي»[1].

ويقول عرابي تعليقًا علىٰ الأحكام الجائرة في حقه:

«حُجتنا في ذلك أن الأمر المذكور مخالف للأوامر الإلهية المقدسة، بما نُص فيه من إبطال أوامر الله سبحانه، بحرماننا من كل إرث شرعي يُخول إلينا في المستقبل، وبمصادرة أملاكنا بلا تحقيق، خلافًا لقول النبي: **مال المسلم علىٰ المسلم حرام**[2]. ومَن أمر أمرًا مخالفًا لكتاب الله فهو رَدٌّ عليه، ولا يجوز للمسلمين الإقرار علىٰ هدم أصول دينهم أبدًا»[3].

ويظهر تديُّن عرابي جليًا في وصيته التي كتبها في آخر مذكراته، والتي قال فيها:

«ثم إني أدعو الأمة المصرية إلىٰ التباعد عن التمدن الغربي المزيف، فلا تفعل المنكرات التي نهىٰ الله عنها، وتأمر بالمعروف الذي أمر الله به، وأن تترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وأن تقيم شعائر الدين الحنيف وتحيي مناسكه، فلا عز ولا سؤدد بغير الدين، وهو وحده يكفل لمن تبعه بإخلاص هناءَ الدين وثواب الآخرة.

ثم أناشدهم أن يشدّوا أواصر الإخاء بين أبناء وطنهم، ويطهّروا قلوبهم من الغل والضغينة، ويعملوا يدًا واحدةً ورجلًا واحدًا لرفع شأن بلادهم، وإعزاز كلمة دينهم، فإذا فعلتم كل ما ذكرت وأرهفتم آذانكم

---

(١) مذكرات عرابي، (٢/ ٤٩٧).

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤) بلفظ: «... كل المسلم علىٰ المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه».

(٣) مذكرات عرابي، (٣/ ١١٧٣).

للسمع، وأصختم إلىٰ نصائح من حنكته التجارب فعرف مِن تقلُّب الحدثان الطريقة المثلىٰ والدواء الناجع، هناك يخرج الله أعداءكم، ويولي عليكم خياركم، والله علىٰ كل شيء قدير»[1].

• ثالثًا: الهدف الإسلامي لثورة عرابي:

التحرك العسكري ضد ناظر الجهادية عثمان رفقي كان من أجل المساواة بين المصريين والشراكسة، ولم يكن ضد كل الشراكسة، وإنما كان ضد من استبد منهم بالمصريين، وحاول وضعهم موضع الازدراء والاحتقار في نظر الأجناس الأخرىٰ. والدليل علىٰ ذلك أنه بعد إخراج عرابي من السجن علىٰ يد ضباطه أسرع إليهم وحذّرهم بأن لا يمدوا أيديهم بسوء إلىٰ أحد من الشراكسة ولا إلىٰ غيرهم، وإنما الهدف من حركتهم هو المساواة معهم، يضاف إلىٰ ذلك أن الضباط اختاروا محمود سامي البارودي ناظرًا عليهم رغم كونه شركسي الأصل، مما يؤكد أن ما حدث كان ضد الاستبداد، ولم يكن الهدف منه عنصريًا[2].

فعرابي كان يرىٰ أن الترقية تكون علىٰ أساس القومية لا علىٰ أساس الدين والأخلاق؛ فقد قال عرابي:

«والله يشهد وفطاحل الجهادية أن المتأخرين من الترقي هم أساتذة الذين ترقوا في العلوم الحربية، وهم أرقىٰ أخلاقًا وأدبًا ودينًا»[3].

---

(١) مذكرات عرابي، (٣/ ١٢٨٣-١٢٨٤).

(٢) د. عبد المنعم إبراهيم الجميعي، مقدمة مذكرات عرابي، (١/ ٣٠).

(٣) مذكرات عرابي، (١/ ١١٢).

إضافة إلىٰ أن من أهداف حركة عرابي الوقوف ضد التدخل الأجنبي في مصر، وهؤلاء الأجانب غير مسلمين ومصر بلد مسلم، كما أنه كان يطلب الإصلاح تحت راية السلطان العثماني بصفته خليفة المسلمين.

يقول بلنت:

«إذا كان عرابي أخذ علىٰ عاتقه مسئولية حكم مصر حكمًا ديكتاتوريًا، فإن ذلك لم يكن بغير مبرر قوي من وجهة النظر الإسلامية، وهذا المبرر هو أوامر الخليفة أمام دينه، في أن يدافع عن القطر في وجه الدول الأوربية»[1].

ويؤكد عرابي هذا قائلًا:

«لم نشق عصا الطاعة كما يدعي الأوربيون، بل طلبنا الإصلاح باسم الذات الشاهانية [أي السلطان العثماني]، وبذلك علم الصغير والكبير أن لنا سلطانًا شرعيًا هو صاحب السيادة العظمىٰ علىٰ البلاد المصرية، وأن الخديو هو نائب عن جلالته فقط من بعد أن كانوا لا يعرفون لهم حاكمًا شرعيًا غير الخديو»[2].

فكان عرابي لا يتحرك إلا بالتنسيق مع السلطان العثماني ووفق أوامره.

وهذا ما يؤكده الشيخ محمد عبده حينما يذكر أسباب حرب إنجلترا الحقيقية علىٰ مصر، وأنها بسبب جهود خليفة المسلمين في جمع

---

(١) عرابي المفترىٰ عليه، محمود الخفيف، (ص٢١٨).

(٢) مذكرات عرابي، (١/ ٣٢٠-٣٢١)، عرابي المفترىٰ عليه، (ص٢١٠).

المسلمين علىٰ الإسلام والخلافة، بعد أن دبّ الضعف في كثير من بلاد الإسلام، ومن ثَم بعْثه -أي الخليفة- الرسل لتقوم بحثّ بعض الشخصيات في العديد من البلاد الإسلامية من أجل هذا الهدف، وكان منهم أحمد عرابي، فيقول محمد عبده:

«أسباب الحرب الحقيقية هي ما كان قد ثبت في عقول الإنجليز والفرنسيس من أن جلالة السلطان عبد الحميد قد سعىٰ منذ تولىٰ الخلافة والملك في جمع كلمة المسلمين، المنتشرين في أقطار الهند وأفريقية وسورية والعراق واليمن والحجاز ومصر وغيرها من البلاد؛ لكي يجعلهم عصبة مستمسكة بعروة الخلافة الوثقىٰ، وأمة تتساند إلىٰ بعضها كالبنيان المرصوص، وأن يكون السواد الأعظم من المسلمين في يد أمير المؤمنين، يستنجدهم في الملمات لمقاومة دول أوربا إذا طمعوا في سلب بلاد المسلمين.

فكان الفرنساويون يقاومون نفوذ السلطان وخلافته في مسلمي الجزائر وتونس، مخافة أن يكون ذلك وبالًا عليهم، وكانت الإنجليز تحاذر من انقياد مسلمي الهند إلىٰ دعوة الخلافة، ومن الانضمام إلىٰ العصبية الإسلامية، وكانت تلك الدولة القيصرية قد بلغها أن الحضرة السلطانية بعثت برجال الدين إلىٰ المسلمين؛ ليدعوا إخوانهم إلىٰ طاعة أمير المؤمنين، وينشروا بينهم رسائل تولّد في عقولهم فروض الانقياد إلىٰ الراية النبوية، إذا نشرها السلطان ودعاهم إلىٰ التشمير عن ساق الجد؛ لنصرته والجهاد في سبيل الملك والدين...

فلما أخذت مشروعات السلطان ومندوبيه تضرم نار الغيرة الدينية،

وتثير الحمية الإسلامية في نفوس بعض من الهنود، اضطرت الحكومة الإنجليزية بالهند إلىٰ اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمنع سريان تلك العدوىٰ، وعثرت في أثناء ذلك علىٰ رسائل منتشرة بين المسلمين كانت قد طبعت في القسطنطينية بدار الطباعة الشاهانية وأرسلت إلىٰ الأقطار الهندية لإنهاض همة المسلمين، فألقت القبض علىٰ كثيرين من الذين وجدت عندهم من تلك الرسائل وحاكمتهم، ومن ذلك الوقت شرعت إنجلترا تتوجس في تلك المقدمات نتائج وخيمة في ممالكها الهندية، فكانت بالمرصاد تترقب الفرصة الملائمة لتمزيق شمل تلك العصبية الإسلامية التي يصفها الإفرنجيون باسم (اسلاميزم).

وفيما كانت تَضرب أخماسًا في أسداس، وتقدّم رِجلًا وتؤخر أخرىٰ، بلغها أن الحضرة السلطانية قد باشرت تنفيذ مشروعاتها بالديار المصرية، وضم مسلمي تلك البلاد أيضًا إلىٰ العصبية الإسلامية بواسطة الشيخ محمد ظافر والسيد أحمد أسعد المدني وبسيم بك وراتب بك وأحمد عرابي وأحزابه، فأصدرت الدولة البريطانية أمرها إلىٰ مندوبها بمصر بأن يستقصي حقيقة الخبر.

أما ذلك المندوب فكان بادئ بدء يعتقد أن الحرب الأهلية عبارة عن عصبية عسكرية جل سعيها في إصلاح شؤونها، وطرد الضباط الشركس من مصاف الجهادية المصرية.

ولكن خيل إليه بعد ذلك أن الحضرة السلطانية قد اغتنمت الفرصة من ثورة العساكر المصرية، واتخذت عرابي باشا آلة لقضاء أغراضها، وتوطيد نفوذها في القطر المصري، وضم المصريين إلىٰ العصبية الإسلامية، فرفع

المندوب الإنجليزي تلك الأخبار إلىٰ لورد جرانفيل، وأثبت وجود عصبية دينية قد تردت برداء عصبية سياسية وطنية، تدعي تحرير الفلاحين من ربقة المرابين والأجانب، وفي الحقيقة ليس سوىٰ عصبية إسلامية دينية تحت قيادة السلطان أمير المؤمنين، غرضها الوحيد مقاومة دول أوربا، وإنهاض همة المسلمين في الهند والجزائر وتونس وبلاد العرب.

فتداركت إنجلترا العواقب، وصممت علىٰ إذلال تلك العصبية الإسلامية قبل أن يستفحل أمرها؛ لأن الإنجليز تعتقد أن مصر باب الهند وخليج السويس دهليزها، فإن استفحل أمر عرابي باشا وحزبه لحق بهم المصريون علىٰ اختلاف أجناسهم، وتبعهم السوريون والعرب، وأنشأوا أمة عظيمة الشأن، شديدة البأس، تضر الإنجليز ومستعمراتهم في الهند.

فرسخ في عقول رجال السياسة البريطانية أن منع إنشاء الوباء خير من علاجه بعد انتشاره، وصمموا علىٰ إخراج عرابي باشا وأحزابه من الديار المصرية إما بالحسنىٰ وإما بالإكراه، طمعًا في إطفاء نار الفتنة وتمزيق شمل العصبية الإسلامية المتظاهرة بشعار الوطنية، فلما أيسوا من إخراجهم بالحسنىٰ عوّلوا علىٰ إذلالهم بالأساطيل المدرعة، والمدافع المثمنة، والجنود البحرية والبرية، وما انثنوا حتىٰ فتكوا بهم في ملحمة التل الكبير، وكانت القاضية علىٰ عرابي باشا وأحزابه، وقد ثبت في عقول كثيرين أن إذلال عرابي وأنصاره قد أذلّ العصبية الإسلامية إذلالًا، لا عز بعده ما توالىٰ الفرقدان»[1].

---

(١) مجلة المنار (٢٥/٧٥٦)، عدد شعبان ١٣٤٣، مارس ١٩٢٥م.

● **رابعًا: تأييد علماء الإسلام لحركة عرابي:**

«كان العلماء وهم أبعد الناس عن السياسة من خطباء الثورة العرابية ودعاتها، بعدما كانوا يقولون بوجوب طاعة هؤلاء الحاكمين والخضوع لهم»[1].

هكذا يقول الشيخ محمد رشيد رضا.

وقد ذكر أحمد عرابي في مذكراته تأييد عدد من المشايخ وعلماء الدين له، وأورد لهم العديد من الكلمات، ومن ذلك:

خطبة في مدينة رشيد، يقول فيها الشيخ عبد الفتاح الجارم، موجهًا كلامه لعرابي ورفاقه الحاضرين:

«إنما تذبّون عن أنفسكم وإخوانكم وأبنائكم؛ فإنكم حماة الدين، والمسئولون يوم الدين، فلتكونوا علىٰ وفاق تام في مقصدكم الشريف وعقدكم المنيف، مؤتلفين غير مختلفين، ومجتمعين غير مفترقين، وإنما نحن وجميع الأمة مددٌ لكم، نفديكم بالأرواح والأموال»[2].

وفي خطبة لقاضي رشيد الشرعي بحضور عرابي ورفاقه أيضًا يقول عنهم:

«هذه العصابة الموسومة بالنجابة والإصابة، هم الحامون لحوزة الإسلام والإيمان، المؤسسون علىٰ تقوىٰ من الله ورضوانه، الرافعون

---

(١) مجلة المنار (٥/ ٢٩٢)، ١٦ ربيع الثاني ١٣٢٠، ٢٢ يوليو ١٩٠٢م.

(٢) مذكرات عرابي، (١/ ٤٤٠).

أعلام البشائر إعلاءً لكلمة الله، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله»[1].

وخلال الحرب مع الإنجليز أيّد عدد من العلماء أيضًا العرابيين، فطفقوا يقرأون البخاري في الأزهر ومسجد الحسين، ويدعون بالنصر لعساكر عرابي والهزيمة للإنجليز، وقد ذكر منهم عرابي الشيخ أحمد عبدالغني أحد علماء الجامع الأزهر، وذكر عرابي أنه قال من الشعر الآتي:

وقولوا يا عرابي مُر بأمر ... تراه فأنت ذو الأمر المجابِ

ودُم للوزارة لسواك تأبىٰ ... وإن وصلت إليك بلا طِلابِ[2]

وذكر عرابي أيضًا الشيخ علي المليجي، الذي خطب خطبة في أسيوط يؤيده فيها، ومما جاء فيها:

«شرع رئيس المجاهدين [يقصد عرابي] المؤيَّد بنصر ربه، في مدافعة مَن كانوا في تشويش الأمة أول سبب، وباع نفسه وجيشه للجهاد في سبيل الله، ولم يُبالِ بمشقة ولا تعب، كل ذلك لحفظ الوطن وإعلاء كلمة الدين، فطوبىٰ لقوم باعوا الحياة الدنيا وشروا الآخرة...

واعلموا يا عباد الله بأن الله تعالىٰ أمرنا في كتابه المجيد بالقتال، وأوضح لنا أمره، فنعم السيد الآمر، ونعم من امتثل أمره، وتأمل في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ

(١) مذكرات عرابي، (١/ ٤٤٣).

(٢) مذكرات عرابي، (٢/ ٦٠٦).

غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣] فالمسلم العاقل من اكتفىٰ بأمر مولاه، واشترىٰ آخرته وباع دنياه، بالجهاد في سبيل الله، وتباشر بقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦].

فأفيقوا يا عباد الله، واخلعوا عنكم ثياب البخل والكسل، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله قبل اقتراب الأجل...»[1].

وأتبع أحمد عرابي في مذكراته تلك الخطبةَ بمقالة كتبها الشيخ محمود إبراهيم، وهو من أسيوط أيضًا، ومما جاء فيها:

«والله يؤيد بنصره من يشاء، حيث أقام ناظرًا بعين الشرع [يقصد عرابي]، ناظر لم يخش في الله لومة لائم أو زجر زاجر، فقابل كتائب الضلال وأذاقهم كأس النكال، وقام خطيبنا يدعو إلىٰ دعوة الحق؛ إذ كان من أم الكتاب بها في عصرنا هو الأحق، فلبّاه أناس باعوا أرواحهم للجهاد في قطع جيش الضلالة والعناد، فأقبلوا عليه من كل فج عميق أفواجًا، بالمال والنفس فرادىٰ وأزواجًا، فعند ذلك دهىٰ الإنكليز ما دهاها، حيث لم يكن في حسابها ما عراها، فنسأل الله أن يكون سعادة أحمد عرابي باشا هو المشار إليه في حديث: **يبعث الله علىٰ رأس مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها**[2]. فإن البشائر دلت عليه حتىٰ يمزق البغاة

---

(١) مذكرات عرابي، (٢/ ٦٠٧-٦٠٨).

(٢) رواه أبو داود (٤٢٩١) بلفظ: «إن الله يبعث لهذه الأمة علىٰ رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها».

كل ممزق، ويحيي المندوب والمفروض بهذا الموفق، وتموت البدع التي اسودّ القطر بظلمائها، ويختفي شارق الظلم بأرجائها، فحاشا أن يجعل الله ديار أهل بيت نبيه في ذمة كافرين، جعل الله سعادة أحمد عرابي باشا وجنده الظافرين بأعدائنا في المبدء والآخر. . آمين»[1].

وكذلك أورد عرابي خطبًا أخرىٰ في مذكراته، للشيخ محمد أبي الفضل، والشيخ حميده الدمنهوري، والشيخ عبد الوهاب أبي عسكر، والشيخ محمد فتح الله.

كما أورد منظومات شعرية أيضًا لعدد من المشايخ، كالشيخ أحمد سيف الباري، والشيخ السيد المرصفي.

وكل هذه الخطب والمقالات والمنظومات تدور حول المناداة بتأييد أحمد عرابي، وقتال الإنجليز بوصفهم من الكفار المعتدين علىٰ ديار الإسلام[2].

وقد أوردها عرابي مستدلًا بها علىٰ شرعية ما فعل، ومفتخرًا بتأييد علماء الدين له ولصنيعه، في حين أنه لم يذكر أي خطبة أو مقال أو منظومة لأحد من غير المسلمين.

ويقول عرابي مبينًا دور العلماء أيضًا:

«وفي ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ عقد عند الخديو احتفال عظيم، حضره النواب والأعيان والعلماء وشيخ الإسلام والمسلمين والعارف بالله الشيخ

---

(١) مذكرات عرابي، (٢/ ٦٠٨-٦٠٩).

(٢) مذكرات عرابي، (٢/ ٦٠٩-٦١٥).

محمد عليش، وشيخ المشايخ العاملين القدوة العلامة الشيخ حسن العدوي، والأستاذ الأعظم الشيخ محمد الإنبابي شيخ الجامع الأزهر، ورؤساء الجهادية.

وقد خاطب الخديو هذا الجمع العظيم بقوله إن السياسة اقتضت استعفاء الوزارة وقبول لائحة الدولتين فرنسا وإنجلترا، وإني حفظت لنفسي الجهادية وإدارة المصالح الإدارية لحين تشكيل وزارة جديدة.

فقام طلبة باشا عصمت وقال إننا مطيعون جميعًا للجناب السلطاني الشاهاني وللجناب الخديو، ولكن هذه اللائحة المؤذنة بضياع استقلالنا مستحيل علينا قبولها وتنفيذها، ولا حق للدولتين في طلب تنفيذها، فهي تتعلق بمسائل هي من اختصاصات الباب العالي أن ينظر فيها.

ويستحيل علينا قبول أحد رئيسًا للجهادية خلاف رئيسنا أحمد باشا عرابي.

وصادق علىٰ قوله الشيخ عليش والعلماء جميعًا، وطلبوا رفض اللائحة المذكورة وخروج الأساطيل الحربية الأجنبية من المياه المصرية.

وقرأ الشيخ عليش قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] ولما أتم كلامه خرج طلبة باشا من الحفلة وتبعه جميع الحاضرين»[1].

وكان قد ذهب وفد كبير من العلماء إلىٰ درويش باشا رأس أحد الوفود العثمانية، يحملون مكتوبًا موقعًا عليه منهم ومن عدد عظيم من الناس،

---

(١) مذكرات عرابي، (١/ ٤٨٩).

يطلبون فيه رفض الإنذار الأجنبي، وخاصة ما جاء فيه عن إبعاد عرابي.
وقد رأىٰ درويش باشا تحمُّس الناس وجرأتهم، وخاصة علماء الأزهر الذين أظهروا عطفهم الشديد علىٰ عرابي ومبادئه(١).

وقد أرسل القس لويس صابونجي رسالة من القاهرة إلىٰ بلنت في إنجلترا، ومما جاء فيها أن الشيخ عليش أحد كبار علماء الأزهر أفتىٰ بأنه لا يصح أن يكون توفيق حاكمًا للمسلمين، بعد أن باع مصر للأجانب، ولذلك وجب عزله، وأن مصر تؤيِّد عرابي الذي يصمِّم علىٰ الجهاد إلىٰ آخر رمق من حياته، والأزهر علماؤه وطلابه ما عدا أربعة من شيوخه في جانب عرابي، ويخطب فيهم نديم خطبًا حماسية مستشهدًا بالقرآن والحديث وأحداث التاريخ(٢).

وتم القبض علىٰ العلماء المناصرين لعرابي بعد انتصار الإنجليز، فيقول عرابي وهو يذكر أسماء عدد من المقبوض عليهم:

«ومن العلماء: شيخ الإسلام والمسلمين الشيخ محمد عليش، وولده الشيخ عبدالرحمن عليش، والعلامة الشيخ حسن العدوي، والشيخ أبو الفضل، والشيخ الخلفاوي، والشيخ أحمد المنصوري، والشيخ أحمد عبدالغني، وغيرهم من أكابر العلماء»(٣).

وذكر من القضاة الشرعيين المقبوض عليهم «الشيخ محمد جبر،

---

(١) عرابي المفترىٰ عليه، محمود الخفيف، (ص٢٢١).
(٢) عرابي المفترىٰ عليه، (ص٢٢٣-٢٢٤).
(٣) مذكرات عرابي، (٢/ ٧٢٥).

ونائبه، والشيخ سلمي، والشيخ أمين أبو يوسف»[1].

أما الشيخ محمد عبده، فلم يشاطر العرابيين رأيهم في أول أمره؛ بل كان يجادلهم لاعتقاده أن هذه الثورة ستمهد الطريق للأجانب للاستيلاء علىٰ البلاد، وكان يرىٰ أن إصلاح البلاد يبدأ أولًا بالتربية والتعليم، فكان يعتقد أن «المعهود في سير الأمم وسنن الاجتماع، أن القيام علىٰ الحكومات الاستبدادية، وتقييد سلطانها وإلزامها بالشورىٰ وبالمساواة بين الرعية، إنما يكون من الطبقات الوسطىٰ والدنيا إذا فشا فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة وصار لهم رأي عام»[2].

ولما حدث الخلاف بين العرابيين وشريف باشا.. كان محمد عبده ينصح العرابيين بالتريث والاعتدال.

وبعد تطور الأحداث، وظهور نوايا الإنجليز.. التحق محمد عبده بالثورة وناضل في صفوفها.

وبعد الهزيمة وُجهت للشيخ محمد عبده تهمة الاتحاد مع العصاة، وشحن جريدة الوقائع المصرية بروح الثورة، فضلًا عن كتابته للمحاضر المتفقة وأهداف العرابيين[3].

وكما أن هناك علماء صادعين بالحق، هنالك أيضًا شيعة السلطان،

---

(١) مذكرات عرابي، (٢/ ٧٢٥).

(٢) محمد رشيد رضا، مجلة المنار، (٤/٥٠٩)، عدد جمادىٰ الآخر ١٣١٩، ١٥ سبتمبر ١٩٠١م.

(٣) د. عبدالمنعم الجميعي، هامش مذكرات عرابي، (٣/ ١٠٢٩).

ولم يسلم عرابي منهم، وقد أورد في مذكراته مقالين لأحدهم، وهو أحد المتعلمين في الأزهر ثم العاملين بالصحافة، وردّ عليه عرابي بردّ قاسٍ يناسب ما قاله من التضليل والافتراء.

وقد سمىٰ أحمد عرابي الفصل الذي سيردّ فيه علىٰ هذا الكاتب:

«الفصل الثالث: في النهي عن تعليم أولاد السفلة العلم»[1].

ولا يخفىٰ علىٰ المطلعين علىٰ التراث الإسلامي تأثر عرابي هنا بطريقة علماء المسلمين في تأليف الكتب كما أشرنا سابقًا.

وكان ردّه موجزًا يكتبه خلال سرده لكلام ذلك الكاتب.

يقول عرابي ردًا علىٰ هجوم الكاتب عليه بسبب قتاله للإنجليز:

«يريد الشيخ تسليم البلاد للعدو بلا قتال»... «جهل الشيخ أن الحرب واجبة شرعية، أقرها مجلس عالٍ تحت رياسة الخديو توفيق ودرويش باشا المندوب السلطاني؛ فلا لوم علىٰ الجاهلين».

وردًا علىٰ استشهاد الكاتب علىٰ مزاعمه الباطلة بقول الله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ [المائدة: ٦٤]، يقول عرابي:

«أشرَك الشيخ الضال! وصرف الآية الكريمة لغير معناها».

ويرد علىٰ قذف هذا الكاتب له ولغيره، فيقول عرابي:

«لقد تورّط الشيخ المفتون، وشهد شهادة زور وبهتان، ثم أردفها بقذف خالد في بطون الدفاتر والتواريخ، وظن أنه إنما ينشر مؤتفكاته علىٰ

---

(١) مذكرات عرابي، (٢/ ٦١٦).

قوم لا يعقلون. . . ولم يبالِ بما اقترفه من شهادة الزور وقذف الأبرار، يحسب أن ذلك هين وهو عند الله عظيم، سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم وإفك مبين».

ويقول عرابي:

«قد يتجاهل الشيخ أو جهل قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣]».

ثم يقول أحمد عرابي:

«قد أكثر الشيخ من الزور والكذب والبهتان، وقذف الأحرار والحرائر، فلو كانت الحكومة إسلامية غير احتلالية لعلّمه علماء الإسلام كيف يخالف أحكام القرآن، وأذاقوه مرارة حدّ القذف، وردّوا شهادة هذا الوغد اللئيم، فلا تُقبل له شهادة أبدًا، ولأذاقوه العذاب الأليم!».

ثم يستدل ذلك الكاتب بقصة للشيخ أبي الحسن الشاذلي علىٰ أن الخديو من الأولياء الذين ينصرهم الله حتىٰ بأعدائهم، فيردّ عرابي:

«ظهر للشيخ المفتون أن الله تبارك وتعالىٰ ترك دينه غير كامل، فجاء هذا الشيخ الجاهل يكمله بأقاصيص خرافية تُنسب إلىٰ الشيخ أبي الحسن الشاذلي الشك في قدرة الله تعالىٰ، ووصم المسلمين بالبخل وعدم المروءة، وعلىٰ فرض صحتها. . أفتكون دليلًا علىٰ أن الحاكم المسلم يستعين علىٰ قتال أمته بغير أهل دينه؟! كلا وألف كلا».

ثم يردّ علىٰ مقال آخر لنفس الكاتب اتهمه فيه بمخالفة الكتاب والسنة، فيقول عرابي:

«كذب شيخ السوء، والله ما خالفنا كتاب الله ولا سنة نبيه ﷺ، بل هو الذي مسّه طائف من الشيطان، فصار لا ينطق إلا بلسانه، ولا ينظر إلا بعينه، ولا يسمع إلا بأذنه، ولا يمشي إلا برجليه، يريد أن يضل المسلمين إطاعة إلىٰ الشيطان الرجيم».

ويقول عرابي:

«إن شيخ السوء أضله الله علىٰ علم، وعكس مخيلته، فصار يرىٰ الحق باطلًا والباطل حقًا، لكونه يتكلم بلسان الشيطان الرجيم، أما الحرب فكانت من دولة أجنبية طامعة في بلاد إسلامية، قد اقتحمت بلادنا برًّا وبحرًا، وتقرر أمر الدفاع عن البلاد بمجلس عالٍ تحت رياسة الخديو كما ذُكر أولًا، ثم في مجلس العموم ثانيًا، وبذلك فإن شيخ السوء يخدم أعداء المسلمين في مقابل خبزة يأكلها، فسوّد الله صحيفة أعماله وكان وجوده عارًا علىٰ العلماء المصريين الذين ينتسب إليهم وما هو منهم»[1].

وكان هناك أيضًا خارج مصر تأييد للحركة العرابية، ففي خطاب من ثابت باشا إلىٰ رئيس ديوان الخديو بخصوص موقف الشعب في تركيا من عرابي، يقول:

«إن العوام هنا وكثير من الرجال والعلماء الكرام الذين هم غير واقفين علىٰ حقيقة الأحوال يتمنون انتصار العرابي، حتىٰ أنني صادفت منذ أيام في المابين الهمايوني الشيخ علي محوي أفندي مدرس السلطان الحائز علىٰ رتبة الصدر (رتبة دينية) فأخذ في مدح العرابي والثناء عليه، فاعترضت

(١) انظر مقالتيّ ذلك الكاتب وردّ عرابي عليه في: مذكرات عرابي، (٢/ ٦١٧-٦٣٠).

عليه، ولكنه ابتدرني بقوله: لا لا إنه رجل عظيم ومتدين»[1].

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا بمناسبة عودة عرابي من المنفىٰ إن أكثر العامة في مصر يعتقدون أن عرابي كان يقصد نفع الوطن وخدمته بكل إخلاص، وإن السبب الأكبر في فشله وخيبته هو إعلان السلطان عصيانه وخروجه، ولذلك كانوا يتمسّحون به تبركًا بعد أن صلىٰ الجمعة في مسجد السيدة زينب ﷺ وعندما زار الضريح الحسيني![2].

ويقول رشيد رضا:

«لا أنسىٰ كلمة سمعتها من كبير العلماء في بلد من سوريا، قالها في محفل كبير ذُكرت فيه الثورة العرابية؛ فقال ذلك الشيخ ﷺ: كلنا عرابيون!

ودعا لعرابي وحزبه بالنصر، وإذا وُجد في العلماء رجل واحد بصير بالسياسة كان يحذر العرابيين وينذرهم سوء عاقبة الثورة كالشيخ محمد عبده، فذلك لا ينافي أن الجماهير كانوا راضين عنها وداعين إليها»[3].

وعند إقالة أحمد عرابي من منصبه كوزير للحربية، تكاتفت طوائف العمال في مصر من أجل إعادته إلىٰ منصبه، كطائفة الإسكافيين وبائعي البن والخياطين؛ حيث ساروا في الشوارع داعين الله أن يقضي علىٰ الأوربيين الكفرة[4].

---

(١) مذكرات عرابي، (٢/ ٩٥٤).

(٢) مجلة المنار، (٤/٥٩٢)، عدد رجب ١٣١٩، ١٤ أكتوبر ١٩٠١م.

(٣) مجلة المنار (٥/٢٩٢)، ١٦ ربيع الثاني ١٣٢٠، ٢٢ يوليو ١٩٠٢م.

(٤) الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابي في مصر، جوان كول، (ص٢٣٠).

وقد سبق أن ذكرنا أن الفئات الشعبية داخل مصر كانت تطلق علىٰ عرابي ورفاقه اسم: «حزب الله»[1].

• **خامسًا: ولاء عرابي الشديد للخليفة العثماني:**

يطلق عرابي علىٰ الخليفة العثماني ألقابًا تبجيلية كثيرة، منها: «جلالة أمير المؤمنين»[2]، و«خليفة الله في أرضه وإمام المسلمين»[3].

ويسمي إسلامبول (إسطنبول) عاصمة الدولة العثمانية بـ«عاصمة الإسلام»[4].

ويصف الدولة العثمانية بأنها الحامية لجميع الموحدين ويستنكر خروج محمد علي وابنه إبراهيم عليها؛ فيقول:

«وكان [أي اللواء خسرو بك] من الخارجين علىٰ الدولة العليّة مع إبراهيم باشا، في تلك الفتنة الدهماء التي دكدكت سياج الإسلام، وفضحت عورة المسلمين، وكسرت شوكة الدولة الحامية لجميع الموحدين»[5].

ولما خشي عرابي علىٰ مصير بلاده ومطامع إنجلترا فيها . . رأىٰ أول ما رأىٰ أن يعرض هذا علىٰ «أمير المؤمنين»، يقول عرابي:

---

(١) هوية مصر بين العرب والإسلام، أ. جرشوني - ج. جاكوفسكي، (ص٢٦).

(٢) مذكرات عرابي، (١/ ٢٩٦).

(٣) مذكرات عرابي، (١/ ٢٩٦).

(٤) مذكرات عرابي، (١/ ١٠٧).

(٥) مذكرات عرابي، (١/ ١٠١).

«ولما كثرت دسائس الخديو وبان ختله وعزمه علىٰ اغتيالنا، أخذنا حِذرنا منه، وسهرنا علىٰ إحباط تلك الدسائس المنكرة، وكان (السير مالت) قنصل إنجلترا بمصر كثير التردد علىٰ الخديو ليلًا ونهارًا دون غيره من وكلاء الدول الأوربية، فأوجسنا من ذلك خيفة علىٰ مصير بلادنا، وخشينا من مطامع إنجلترا التي ترمي إلىٰ التهام بلادنا أسوة بما فعلته فرنسا بتونس الخضراء حتىٰ يتم التوازن الذي تدعيه أوربا؛ فعرضنا تفاصيل مخاوفنا علىٰ جلالة أمير المؤمنين . . . لتكون الدولة [أي العثمانية] علىٰ علم من الأمر»[1].

ويقصُّ عرابي لقاءه مع أحمد راتب باشا أحد رجال الوفد العثماني، وواحد من المقربين من جلالة «السلطان الأعظم» فيقول:

«أخبرته عن ولائي للسلطان بصفته رئيسًا لديننا»[2].

وقال عرابي:

«أخبرته بكل ما أجريناه من أول الأمر إلىٰ آخره، وأننا لم نشق عصا الطاعة كما يدّعي الأوربيون، بل طلبنا الإصلاح باسم الذات الشاهانية، وبذلك عَلِم الصغير والكبير أن لنا سلطانًا شرعيًا هو صاحب السيادة العظمىٰ علىٰ البلاد المصرية، وأن الخديو هو نائب عن جلالته فقط من بعد أن كانوا لا يعرفون لهم حاكمًا شرعيًا غير الخديو»[3].

---

(١) مذكرات عرابي، (١/ ٢٩٣-٢٩٤)، (٢/ ٤٩٩).

(٢) عرابي المفترىٰ عليه، محمود الخفيف، (ص٢١٠).

(٣) مذكرات عرابي، (١/ ٣٢٠-٣٢١)، عرابي المفترىٰ عليه، (ص٢١٠).

ثم يقول عرابي:

«ولما وصلنا إلىٰ رأس الوادي حضر الضباط والصف ضباط، واصطفوا صفًا واحدًا تعظيمًا وإجلالًا للذات المشار إليها، وهتفوا بقولهم: يعيش السلطان. ثم ودعناه [أي راتب باشا] والتمسنا منه عرض إخلاصنا وطاعتنا علىٰ الحضرة السلطانية حين عودته إلىٰ الأستانة العلية، وقام الوابور [القطار] بين أصوات المودّعين والدعاء إلىٰ الذات الشاهانية»[1].

وكان عرابي قد طلب أيضًا من الشيخ الظافر شيخ الحضرة السلطانية وكاتم سر السلطان ما يلي، يقول عرابي:

«وطلبت إليه أن يشرح للسلطان صادق ولائي، وشدة تعلقي بالمبادئ الأساسية لديننا المقدس، تلك التي تجعل من واجبنا أن نطيع أمير المؤمنين»[2].

وقد قال عرابي دافعًا عن نفسه تهمة الدعوة إلىٰ خلافة عربية قومية تنفصل عن الدولة العثمانية:

«وكانت مأمورية ثابت باشا تفهيم رجال الدولة العلية بأن القصد من الحركة المصرية الوطنية هو إنشاء خلافة عربية! تضم تحت لوائها كل ناطق بالضاد، فتشمل بلاد الحجاز واليمن والعراق ومصر والشام وطرابلس الغرب وغيرها! سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم!»[3].

---

(١) مذكرات عرابي، (١/ ٣٢٠-٣٢١).

(٢) عرابي المفترىٰ عليه، محمود الخفيف، (ص٢١٣).

(٣) مذكرات عرابي، (١/ ٤٠١).

وحول علاقة مصر بالدولة العثمانية. . أورد أحمد عرابي في مذكراته حوارًا بين إنجليزي ومصري محتجًا به، جاء فيه ما يلي:

«الإنجليزي: تعلمون أن مصر تابعة للدولة العثمانية، وما دامت كذلك فلا يمكن عقد معاهدة كهذه، فهل تودّ مصر أن تنفصل عن الدولة حتىٰ يتسنىٰ لها ذلك؟

المصري: لا! فإننا نعلم ما للارتباط الكائن بيننا وبين الدولة العثمانية من الأهمية الكبرىٰ، والفائدة العظمىٰ لبلادنا، خصوصًا في هذه الأزمان، التي يجب فيها ائتلاف المسلمين واتحاد كلمتهم؛ لدفع من يقصدهم بسوء، فقد ذكرت لي أن الدول الأوربية تسعىٰ في اقتسام ممالك الشرق؛ فكيف بعد ذلك تقول هل لها أن تنفصل؟! نحن لا نرضىٰ بحل هذا الرباط؛ بل نزيده إحكامًا وتوثيقًا، بشرط ألا يمس شيئًا من امتيازاتنا، ونود لو أن سعت جميع الممالك الإسلامية للتحالف والتعاهد مثل ما يسعىٰ الآن دول أوربا هذا السعي.

الإنجليزي: هل يودّ المسلمون أن يكون لهم خليفة عربي من أهل البيت النبوي؟

المصري: لا! فإننا لو فرضنا أنه يوجد فيهم من يقوم بأعباء هذا الأمر الخطير، فهم لا يرضون بالخروج علىٰ السلطان، خصوصًا في هذا الوقت، الذي يعلمون شدة احتياجهم فيه إلىٰ الاتحاد والائتلاف»[1].

ويذكر عرابي رسائل السلطان العثماني له، فيورد في مذكراته

---

(١) مذكرات عرابي، (١/ ٣٧٣).

الخطاب الذي أرسله له أحمد راتب باشا ياور السلطان، ويظهر فيه أن السلطان يأمر ويُكلّف عرابي صراحةً بمواجهة التدخل الأجنبي في شئون مصر:

«إلىٰ ناظر الحربية المصرية أحمد بك عرابي:

قد بلغت جلالة السلطان الأعظم المحادثة التي حصلت بيننا بالسكة الحديد ما بين محطتي الزقازيق والمحسمة عند عودتي إلىٰ الأستانة، وقد أحدثت تلك المحادثة سرورًا عظيمًا عند جلالته، وأمرني أن أبلغكم تشكراته الملوكاتية، وإني بلغت جلالته المعاملة الحسنة التي عوملت بها، والإكرام الذي رأته عيناي مدة وجودي بالمحروسة، وجلالته أظهر عظيم محظوظيته، حتىٰ أن الرضىٰ الذي حصل عنده أقنع جلالته بحسن ولائكم وعبوديتكم أضعافًا مضاعفة.

هذا وقد سعىٰ أناس في جعل جلالته يفتكر أنكم كنتم تسيرون علىٰ خطة مخالِفة للطريق القويم، ولا أدري كيف ذلك، ونجحوا في تغيير فكرة جلالته نحوكم، وأما الآن بعد أن أوضحت لجلالته حقيقة المسألة. . أقسم لكم إن جلالته متأسف جدًا لكونه سمع للأقوال الكاذبة والمختلقة التي بلغته عنكم! والذي يُثبت لكم ذلك هو أن جلالته أمر بأن أُحرر هذا لكم، وأوضح لكم فيه الخواطر الآتية:

لا أهمية فيمن يكون خديو مصر، ويجب أن تكون أفكار والي مصر ومقاصده وسيرته خالصة من الشوائب، بحيث إن جميع حركاته تكون مُتجهة لصيانة مستقبل مصر، ولتوطيد عُرىٰ العلاقات الوثيقة مع عرش الخلافة، وفي الوقت نفسه يجب عليه أن يُظهر الغَيرة التامة والإخلاص في

تأييد حقوق البلاد، ويلزم أن يتصف بهذه الصفات كلُّ من يتربّع من الولاة علىٰ الأريكة الخديوية.

إسماعيل باشا وأسلافه أولئك رشوا غالي باشا وفؤاد باشا ومدحت باشا ونائبيهم الخائنين في الباب العالي، وبعد أن أغمضوا عيون أولئك الموظفين المذكورين اجترأوا علىٰ ظلم المصريين وفرض الضرائب الثقيلة عليهم ومعاملتهم بالضغط والقسوة، وزيادة علىٰ ذلك فإنهم تداينوا ديونًا ثقيلة وجعلوا المصريين يئنّون تحت تأثير العبودية.

واليوم حالتهم في نظر الدنيا تستدعي رأفتنا الخاصة بهم، فالمركز بأكمله في غاية من الضعف، ويحتاج إلىٰ البحث الدقيق وراء الدواء الشافي العاجل.

وعليه.. يهمكم قبل كل شيء منع ما عساه أن يؤدي إلىٰ التدخل الأجنبي، وألا تحيدوا عن الطريق الحق القويم، ولا تصغوا إلىٰ الخلافات التي تسبب الخدعة، بل يجب عليكم في كل الأحوال منع حدوث المؤامرات الأجنبية التي يُقصد منها إثارة الفتن بكل يقظة.

وهذا هو غاية جلالة السلطان العظمىٰ.

وبما أننا سنكاتب بعضنا في المستقبل يلزمكم اتخاذ الاحتياطات اللازمة لعدم وقوع خطاباتنا في أيدي الغير، وأسهل طريقة وآمنها يمكنكم اتخاذها الآن هي أن تعطوا رسائلكم إلىٰ الرجل الصادق الأمين الذي يحمل هذا، وآخر من الشيخ محمد ظافر، وأزيد علىٰ ذلك أنه من الضروري إرسال ضابط سر يكون عالـمًا أحوال مصر، ويكون بين أحد أصدقائكم الذين تضعون ثقتكم فيهم؛ ليقدم إلىٰ أعتاب جلالة السلطان

تقارير مسهبة حقيقية عن أحوال البلاد، هذا وأرجوكم ردَّ هذا بمعرفة الرجل الذي يحمل هذا الخطاب»[1].

وذكر عرابي رسالة أخرىٰ من السلطان العثماني ضمن خطاب من الشيخ محمد ظافر شيخ الحضرة السلطانية وكاتم سر السلطان، وفيها يظهر بجلاء تام أن عرابي قد أصبح هو رجل خليفة المسلمين الأول في مصر، وهي كالتالي:

«ناظر الحربية المصرية، سعادتلو أفندم. .

قد قدمت الخطابين الكريمين الواردين منكم إلىٰ جلالة السلطان، وجلالته علم من فحواهما جميع عواطفكم الوطنية وتيقّظكم، وخصوصًا وعودكم بمساعيكم لحفظ مصالح جلالته بكل إخلاص وأمانة، فإنها وقعت لدىٰ جلالته موقعًا حسنًا، حتىٰ إن جلالته أمرني أن أُبيّن لكم سروره ورضاه وأكتب لكم كالآتي:

حيث إن حفظ الخلافة واستقامتها فرض علىٰ كل واحد منا. . فيجب علىٰ كل مصري السعي بمزيد الاهتمام وراء تثبيت سلطتنا، لمنع خروج مصر ووقوعها في قبضة الأجانب الطامعين كما وقعت ولاية تونس في أيدي الفرنسيين.

فنحن وضعنا ثقتنا فيكم يا ولدي لاستعمال قوتكم وعمل كل ما في الإمكان لمنع حدوث شيء مثل ذلك، فكن علىٰ حذر دائمًا ولا تغضّ

---

(١) مذكرات عرابي، (٢/ ٥٠٠-٥٠١)، عرابي المفترىٰ عليه، محمود الخفيف، (ص٢١٣-٢١٥).

النظر طرفة عين عن هذه النقطة المهمة، ولا تتركوا أية طريقة أو وسيلة من وسائل الاحتياطات والطرق المتخذة في عصرنا هذا، واضعًا نصب عينيكم دائمًا الغرض الذي ترمي إليه، ألا وهو الدفاع عن مِلَّتكم وبلادكم، وخصوصًا يجب عليكم أن تثابروا علىٰ حفظ ثقتنا بكم والروابط التي تربطكم بنا.

تلك البلاد هي بلاد مصر التي لها أهمية عظمىٰ لدىٰ إنجلترا وفرنسا، وخصوصًا لدىٰ الأولىٰ، ويوجد شرذمة من أصحاب الدسائس والفتن في الأستانة يمالئون هاتين الدولتين، ويشتغلون من زمن بعيد بمشروعاتهم الفاسدة التي تؤدي إلىٰ الخراب وسوء المصير، ومذ رأوا من صالحهم ازدياد تلك الدسائس والفتن في مصر، وجّهوا عنايتهم إلىٰ ذلك بنشاط وغيرة، فرغبة جلالته الخاصة هي أن تحذروا من أولئك الخونة الأشرار ومكائدهم، وتراقبوا أعمالهم بعيون ساهرة لا تنام!

وبناءً علىٰ التلغرافات والأخبار المرسلة من الخديو توفيق باشا أحد أعضاء الجمعية المومىٰ إليها نرىٰ أنه ضعيف ومتقلّب، ولاحظنا أيضًا أن كل تلغراف من تلغرافاته لا يؤيد الآخر، بل جميعها علىٰ طرفي نقيض.

وأزيدكم معرفة بأن علي نظامي باشا وعلي فؤاد بك قد أثنيا عليك ثناءً جميلًا لدىٰ الحضرة السلطانية، وكذا أحمد راتب باشا، فقد قصَّ علىٰ جلالته موضوع الحديث الذي دار بينكما في عربة السكة الحديدية ما بين محطتي الزقازيق والمحسمة، وبما أن جلالته يضع عظيم ثقته في أحمد باشا راتب، فقد كلّفني بهذا السبب أن أظهر لكم ثقته فيكم وأخبركم بأنه حيث إن جلالته يعتبركم رجلًا ذا استقامة وأمانة فهو يطلب منكم قبل كل

شيء منع وقوع مصر في قبضة الأجانب، وألا تتركوا لهم حجة تمكّنهم من التدخل في شئون مصر.

هذا، وإن التعليمات التي ستصدر إلىٰ راتب باشا في هذا الشأن ستكتب لكم علىٰ حدتها، وقد كُتب خطابي هذا وخطاب أحمد راتب باشا بأمر جلالته بمعرفة أحد كُتاب جلالته الخصوصيين، وبعد أن وقعنا عليهما بأختامنا في حضرته العلية ختمنا علىٰ الظرفين.

هذا وأعلمكم بصفة خاصة وسرية أن جلالة السلطان لا يعوّل علىٰ إسماعيل ولا حليم ولا توفيق، بل يعول علىٰ الرجل الذي يفكر في مستقبل مصر، ويثبّت الروابط التي تربطه بالخلافة، ويحترم جلالته الاحترام الواجب، ويعمل بمقتضىٰ الفرمانات السلطانية بلا تعطيل ولا تغيير، ويؤيد سلطته المستقلة في الأستانة وخلافها، ولا يعطي رشوة لأولئك الموظفين الخائنين، ولا يحيد قيد شعرة عن طريق واجباته، ويكون له دراية تامة بدسائس أعدائنا الأوربيين وأعمالهم التي يُقصد منها إيقاع الفتن والمشاغبات، ويكون واقفًا لهم بالمرصاد، ويحافظ علىٰ بلاده وملّته من أن يمسها سوء، فمن يفعل ذلك يُرضِ جلالة متبوعنا الأعظم ويكن مقبولًا لدىٰ جلالته.

وإني أرجوكم ألا تؤاخذوني في عدم كتابة تفصيلات أخرىٰ بخطابي هذا، حيث إن أحمد راتب باشا حضر منذ ثلاثة أيام فقط، ومع ذلك ففي المدة القصيرة نظرًا للأقوال التي صرّح بها عن حسن مقاصدكم الشريفة وإخلاصكم لجلالته أظهر عظيم ثقته فيكم.

هذا وقد وصلني بالأمس الخطاب الذي أرسلته لي وأتعشّم بإمكان

إرسال خطابه لكم في بريد الأسبوع الآتي متضمنًا تفصيلات أكثر، وعلىٰ كل حال فاحذروا من وقوع أي خطاب من الخطابات التي ترسلونها في أيدي الغير، واجتهدوا في الحصول علىٰ مراسل خاص بيننا تثقون به، وأما في هذه المرة فالأوفق هو تسليم ردّ هذا الخطاب ليد حامله»[1].

وقد أورد عرابي في مذكراته ردّ أحد قادة الثورة العرابية، وهو طلبة بك عصمت، علىٰ إحدىٰ الوفود العثمانية التي جاءت مصر، وفيه يظهر ولاء الحركة العرابية الشديد للخليفة العثماني؛ فكان مما قاله طلبة بك:

«الجيش المصري الشاهاني يعترف لمولانا وإمامنا سلطان الملة الإسلامية بالسلطة والسيادة علىٰ مصر، وأني بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن إخواني الأمراء وإخوتي العساكر المصرية، أقدم لمولانا السلطان الأعظم خضوعنا واعترافنا بسيادة جلالته . . .»[2].

وقال أيضًا طلبة بك:

«وكما أن الدولة العليّة ترىٰ مصر قلب الدولة، فكذلك نحن نرىٰ الدولة محل سطوتنا ومركز آمالنا ودار الخلافة الإسلامية، وإننا نرجو أن تجتمع كلمة المسلمين في سائر الأقطار، وتتحد قلوب المؤمنين لنكون يدًا واحدة في وقاية دولتنا من جميع النوازل أعاذها الله منها، ولا نشك أن إخواننا المسلمين يجدّون في بث الاتحاد بينهم وجمع الكلمة علىٰ تأييد ملكنا وسلطاننا المعظم خلد الله سلطانه»[3].

---

(١) مذكرات عرابي، (٢/ ٥٠١-٥٠٣)، عرابي المفترىٰ عليه، (ص٢١٦-٢١٧).

(٢) مذكرات عرابي، (١/ ٣١٩).

(٣) مذكرات عرابي، (١/ ٣٢٠-٣٢١).

وقد أرسل درويش باشا إلىٰ السلطان العثماني برسالة يؤكد فيها أن الجيش المصري كله يدين بالولاء للسلطان العثماني بصفته خليفة المسلمين، ومما جاء في تلك الرسالة:

«زارني اليوم رؤساء الجند وضابطان الجهادية الشاهانية المصرية بالإسكندرية، فألقىٰ يعقوب باشا وكيل نظارة الحربية الخطاب الآتي بالنيابة عن جميع رؤساء الجيش والعساكر المصرية، وهذا مفاد ما قال:

بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن جميع العساكر المصرية الشاهانية، أتشرف بأن أصرح لدولتكم أن جميع الجنود المصرية علىٰ تمام الغاية من الخضوع والقيام علىٰ عهد الطاعة لجلالة مولانا السلطان الأعظم، وأنهم مستعدون لتلقي الأوامر الصادرة إليهم من لدن جلالته أية كانت، وللنهوض بفروضهم وواجباتهم علىٰ ما ينبغي، وفقًا لأحكام الآيات الشريفة الآمرة بالخضوع لأولي الأمر، وأننا جميعًا لا غاية لنا إلا أن نكون حاصلين علىٰ رضىٰ الجانب الشاهاني، مسئولين بعنايته، خاضعين لعظمته، قائمين بخدمته، وهو ما نعدّه خير الأمور لنا في الدارَين، ورابطة سعادتنا الحسية والمعنوية.

وفي إرسال دولتكم إلىٰ مصر -وأنتم من أعظم مشيري السلطنة وأقدمهم- لإصلاح أحوالها دليل واضح جلي علىٰ انعطاف جلالته إلينا، فنحن لذلك نصرّح بشكرنا وامتناننا، ونكنّ علىٰ مسامعكم العبادات الدالة علىٰ خضوعنا لمقام خلافته العظمىٰ، موضحين أننا مستعدون لإنفاذ أوامر الجناب الخديو بالدقة التامة، فأرجو دولتكم أن تعتبروا كلامي هذا صادرًا

عن جميع الجنود المصرية الشاهانية في أي محل وجدوا من هذه الديار»[1].

وبعد أن أجرىٰ درويش باشا تحرياته عن مسلك الجيش، أعلن أنه يرىٰ أن الجيش كان مطيعًا دائمًا، وأنه حافظ علىٰ النظام العام، وأنه لا ملامة توجَّه إليه، وكمكافأة علىٰ ذلك رشّح درويش باشا عددًا من الضباط علىٰ رأسهم عرابي لنيل الأوسمة الرفيعة من السلطان العثماني، يقول عرابي:

«وبناءً علىٰ ذلك فقد طلب من السلطان نحو مائتي وسام للضباط وللمدنيين، وطلب لي الوسام المجيدي من الطبقة الأولىٰ»[2].

وقد حصل أحمد عرابي بالفعل علىٰ هذا النيشان المجيدي الرفيع، مما جعل (مستر كارترايث) وكيل قنصل الإنجليز في الإسكندرية يقول:

«ومما زاد الطين بلة، النيشان الذي أنعَم به جلالة السلطان علىٰ عرابي باشا في هذا الوقت المقلق! فإنه رفع مقامه في أعين الجميع، وأعلىٰ كلمته، وشدد عزائم الجهادية، وجعل عرابي باشا هو المشار إليه، والمُعنىٰ به، والمحدَّث عنه، فإذا ظهر في محفل عمومي أعدت له أسباب الاحتفال الفائق والاستقبال الشائق، وإذا مرّ بشوارع المدينة سار في ركابه من دون سائر الوزراء جماعةٌ من الخيّالة، مثل الذين يسيرون في ركاب الخديو!»[3].

---

(١) مذكرات عرابي، (٢/ ٥٢٩-٥٣٠).

(٢) عرابي المفترىٰ عليه، محمود الخفيف، (ص٢١٨).

(٣) مذكرات عرابي، (٢/ ٥٣٣-٥٣٤).

ويُعد إعلان عصيان عرابي من جانب الدولة العثمانية حادثًا فارقًا في مصير الحركة العرابية، فـ«بعد أن كان هناك تأييد شبه مطلق لعرابي.. بدأ التذمر يظهر ضده بحجة أنه مخالف لأوامر السلطان»[1].

فقد كان «عامة الناس ومعظم الضباط وكبار الجند معتقدين أن هذه الحرب [أي: حرب عرابي ضد الإنجليز] لم تنشب إلا للمحافظة علىٰ حقوق السلطان في القطر المصري»[2].

فلما تم توزيع المنشور العثماني بعصيان عرابي علىٰ كبار الضباط وصغارهم واطلعوا عليه «ضعفت عزائمهم، ووهنت قواهم، فعمّ الاختلال، وساد علىٰ عقولهم الارتباك». فقد كانوا «يحذرون من مناوأة السلطان ويمقتون الخروج عن طاعته»[3].

و«تذمّر بعض الأمراء العسكرية وقالوا إننا إذن عصاة علىٰ السلطان العثماني، مخالفين لكتاب الله وسنة رسوله، كما فعل محمد علي باشا رأس العائلة الحاكمة وابنه إبراهيم باشا، ومن مات مات عاصيًا لا أجر له، مثل الذين ماتوا من المصريين في قتال الدولة العلية!»[4].

وقد حدثت واقعة عجيبة تبيّن مدىٰ حرص الجنود المصريين علىٰ عدم محاربة الجنود العثمانيين بوصفهم جنود جيش المسلمين والخلافة، فقد

---

(١) د. عبد المنعم الجميعي، هامش مذكرات عرابي، (٢/ ٦٨٤).

(٢) مذكرات عرابي، (٢/ ٦٨٤).

(٣) مذكرات عرابي، (٢/ ٧٠٤).

(٤) مذكرات عرابي، (٢/ ٦٨٨).

رأىٰ الضباط والجنود المصريون العساكر الهندية في صفوف الإنجليز فظنوها جنودًا عثمانية مرسلة من قِبل السلطان، فكان ذلك من بواعث هزيمتهم وإلقائهم للأسلحة بدون قتال![1].

وقد علّق أحمد عرابي علىٰ المنشور العثماني بقوله:

«فنصحناهم بأن هذا المنشور مخالف لأحكام الدين الإسلامي؛ لأننا إنما نقاتل أعداء المسلمين، الذين يريدون أن يستولوا علىٰ بلادنا الإسلامية، وأن الجهاد في سبيل حماية الدين والمال والوطن فرض واجب علينا، وأن سلطان المسلمين لا يسمح بمثل هذا المنشور، وإنما هو دسيسة إنكليزية تمكنوا من إنفاذها بواسطة الرشوة، ولو فُرض مثل ذلك من سلطان المسلمين، لوجب خلعه لمخالفته لأحكام الدين، إلا أن تلك النصائح لم تؤثر في الذين يجهلون أحكام الدين»[2].

وقال أيضًا:

«إن هذا المنشور مغاير لأحكام الشريعة الإسلامية الغراء، ومغاير لرضاء السلطان الأعظم والسادة الأشراف، يتبرؤون مما نُسب إليهم بصفته مغايرًا للحقيقة، وإنما هو إرضاء للإنكليز فقط»[3].

ويقول عرابي:

«صدر منشور من سعيد باشا الصدر الأعظم باعتبارنا عصاة نحن ومن

---

(١) مذكرات عرابي، (٢/ ٧٠٥).

(٢) مذكرات عرابي، (٢/ ٦٨٨-٦٨٩).

(٣) مذكرات عرابي، (٢/ ٦٨٥).

اتبعنا، إجابة لطلب (اللورد دوفرين) السفير الإنكليزي لدىٰ الدولة العلية، ونشرته جريدة الجوائب، وأُرسل منه مئات الألوف إلىٰ مصر والهند وجميع البلاد العثمانية، لإطفاء ثورة غضب المسلمين، ويعلم الله كيف كان صدور هذا المنشور بغير أمر السلطان ورضاه، ضد رجل نهض بأمته التعسة لتدافع عن بلادها وشرفها، وهي لم تخرج علىٰ سلطانها، بل تقاتل أمة أجنبية اعتدت عليها في عقر دارها، فتسبب من هذا المنشور انخلاع القلوب وانحلال العزيمة، وهروب كثير من أركان الحرب إلىٰ الخديو بطرف الإنكليز، ظنًّا منهم أن الله قدر عليهم أنهم عصاة لدىٰ سلطانهم»[١].

فهكذا ينص عرابي صراحة علىٰ أن هذا المنشور صدر بدون أمر السلطان العثماني ولا رضاه، وإنما هو صادر عن سعيد باشا الصدر الأعظم بالتعاون مع الإنجليز.

وربما يؤيد صدور المنشور بغير رضىٰ السلطان، ما كان من خلاف بين السلطان عبد الحميد الثاني، والصدر الأعظم سعيد باشا[٢].

وقال عرابي في تقريره الذي كتبه في السجن قُبيل المحاكمة:

«لم يستنكر السلطان أبدًا ما فعلنا، لا في أثناء تلك المفاوضات ولا فيما بعدها حتىٰ وقتنا هذا، بل إن السلطان أيّد أفعالنا بالقول وبالعمل،

---

(١) مذكرات عرابي، (٣/ ١٢٨١-١٢٨٢).

(٢) ينظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، تقديم وترجمة د. محمد حرب، (ص٩٦-٩٨).

فكيف أكون مع ذلك متمردًا؟! أليس يُعد السلطان في نظر الأمة الإنجليزية صاحب السيادة علىٰ مصر؟!»[1].

ويقول عرابي عن هدف إنجلترا من الضغط لإعلان عصيان عرابي:

«كان غرض الإنكليز من منشور العصيان تهدئة خواطر مسلمي الهند ومنعهم من القيام لنصرة الإسلام»[2].

وهكذا قد أحسن عرابي الظن بالخليفة العثماني عندما بلغه ذلك المنشور الذي يقضي بعصيانه، فهو يرىٰ أن هذا المنشور إما أنه غير صادر عن السلطان، أو أنه صادر عنه ولكنه معذور في ذلك، قال عرابي:

«ربما كانت هذه اليانامة مبنية علىٰ سياسة السلطان اضطرته إلىٰ إصدارها مراعاة لظروف الأحوال، والخوف من ظهور المسألة الشرقية في مظهر يصعب استدراكه ويعز تلافيه»[3].

وبالفعل هذا ما صرّح به السلطان عبد الحميد في مذكراته، حيث قال:

«لو وقفت بعناد في مصر، لكنت بالتأكيد فقدت فلسطين والعراق»[4].

ففرضًا أن هذا المنشور صادر بإرادة السلطان، فيكون قد ضحّىٰ

---

(١) عرابي المفترىٰ عليه، محمود الخفيف، (ص٢١٧).

(٢) مذكرات عرابي، (٢/ ٦٨٧).

(٣) مذكرات عرابي، (٢/ ٧٠٣).

(٤) مذكرات السلطان عبد الحميد، (ص٩٧).

بعرابي دفعًا لأشد الضررين بارتكاب أخفهما؛ لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من بلاد المسلمين، لا كراهية لعرابي وحبًا للإنجليز.

ولم يكن هناك خلاف مطلقًا مجتمعيًا ولا سياسيًا حول تابعية مصر للدولة العثمانية بصفتها الخلافة الإسلامية الموجودة حينها، فالمعارضة متمثلة في عرابي ورفاقه كما رأينا تدين بالولاء للدولة العثمانية، وكذلك الخديو موالٍ أيضًا لها وإن كان غير مخلص في ذلك، يقول الخديو توفيق في افتتاح مجلس النواب:

«فالواجب علينا الاعتدال والتأني وحسن التبصر وأن نكون يدًا واحدة في إتمام الأعمال النافعة، متوسلين بعناية الله تعالىٰ وإمداد رسوله الكريم، ومتمسكين بقوة ارتباطنا بالحضرة الشاهانية والدولة العلية، أدامها الله، ونسأل الله النجاح وإنه ولي التوفيق»[1].

وكان ذلك أيضًا مما أكده رئيس مجلس النواب؛ حيث قال: «ولا أزيدكم علمًا أن لنا عهودًا أو ذممًا واجبة الرعاية، وأن للوطن علينا حقوقًا لازمة الأداء؛ فمن العهود شدة الارتباط وصلة التابعية بالدولة العلية، فلابد لنا من الثبات علىٰ ذلك بالنظر إليها، ولا شك أنها تُسَر بتأييد أمر الشورىٰ فينا، لما ينشأ عنه من القوة العائدة إليها»[2].

فكانت المطالبة بانفصال مصر عن الخلافة غير مطروحة أصلًا، فضلًا عن أن تكون هناك ثورة من أجل ذلك!

---

(١) مذكرات عرابي، (١/ ٣٥٥).

(٢) مذكرات عرابي، (١/ ٣٥٦).

وكان طلب الحركة العرابية بإنشاء مجلس النواب يرجع إلىٰ توسيع دائرة الشورىٰ التي يحث عليها الإسلام، والتي هي من أركان الحكم الإسلامي كما هو معلوم، ولإشراك رأي الأهالي مع الحكومة فيما لا يتعارض مع الشريعة الإسلامية، وبالتالي يتم تخفيف الظلم، وتحسين أحوال البلاد، والحيلولة دون انفراد الخديو بالحكم وتدخل الأجانب بالتنسيق معه في شئون مصر، وكان العرابيون يسمون ذلك بالحكم الشوري[1].

وكان أول بند في الحزب الذي رأسه عرابي ما يلي:

«يرىٰ الحزب الأهلي محافظته علىٰ العلاقات الودادية الحاصلة بين الحكومة المصرية والباب العالي، واتخاذ ذلك الباب ركنًا يستند عليه في أعماله، ويعتقد أن جلالة السلطان عبد الحميد مرادهم وخليفة الله في أرضه وإمام المسلمين، ولا يريد قطع هذه الصلات والعلاقات ما دامت الدولة العلية في الوجود، ويعترف باستحقاق الباب العالي لما يأخذه من الخراج، وما يلزم من المساعدات العسكرية إذا طرأت عليه حرب أجنبية . . .»[2].

ويقول الحزب إنه «يخضع للخديو الحالي وهو مصمم علىٰ تأييد سلطته، ما دامت أحكامه جارية علىٰ قانون العدل والشريعة . . .»[3].

---

(١) ينظر: مذكرات عرابي، (١/ ٣٦٠ و ٤٠٤).

(٢) مذكرات عرابي، (١/ ٤٠٣).

(٣) مذكرات عرابي، (١/ ٤٠٤).

- **سادسًا: فرية على عرابي!**

لقد زعم أحد الكُتاب أن عرابي استضاف مؤتمرًا تنصيريًا في منزله بمحض إرادته!

يقول صاحب هذا الكتاب:

«وكم ذا بمصر من المبكيات، واإسلاماه [!] أكبر مؤتمر للتبشير/التنصير يُعقد في منزل أحمد عرابي، فليُعد عرابي للسؤال جوابًا بين يدي الله، أفغير دين الله يبغون [!!]، أتُسلّم الأمة أزمة أمورها لمن لا يعرفون معنىٰ الولاء والبراء؟ وهل يصدق مخبول [!!] أنه في بيت زعيم المصريين أحمد عرابي عُقد أول مؤتمر تنصيري لتغيير دين الأمة[!!] وهذا أمر متواتر يعلمه كل من قرأ التاريخ [!!]»[1].

بل أقول إن مَن قرأ قشور التاريخ فقط لن يقع أبدًا في هذا الخطأ الكارثي!

فقد صودرت أملاك عرابي ولم تعد في حيازته! ولم يعُد مسئولًا عن أي شيء يدور فيها تحت الاحتلال الإنجليزي. حتىٰ بعد أن عاد من منفاه رفض الخديو والإنجليز إعادة أملاكه إليه.

ثم ألم يلاحظ الكاتب المشار إليه أن الوقائع التي نقلها هو نفسه عن المؤتمر لم يأتِ فيها أي ذكر لعرابي؟ فلم تكن له كلمة أو أي مشاركة! هل كانت وظيفته مثلًا صناعة القهوة والشاي لضيوف المؤتمر دون أن يشارك فيه؟!

---

(١) أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، سيد العفاني، (١/ ٦٢).

يرىٰ إمام العربية أبو فهر محمود شاكر أن هذا المؤتمر عُقد في منزل عرابي الزعيم المسلم، لإذلاله هو والمسلمين، فقال رحمه الله:

«وإذا شئت أن تعلم مقدار تكافل التبشير والسياسة، وتعاونهما علىٰ إذلال الأمم والرجال وتحقيرهم وإيذائهم، بأصفق ما يتسنىٰ لإنسان من الوقاحة وغلظ الوجه وجلافة التركيب الأخلاقي وبذاءة النفس الملوثة في داخلها بالحقد والاحتراق.. فانظر كيف جاء التبشير تحت راية الاحتلال الإنجليزي ليعقد مؤتمرًا في القاهرة، فيأبىٰ علىٰ زويمر القس المبشّر حسن خلقه وتمام ديانته وورع نفسه إلا أن يكون انعقاد المؤتمر في بيت زعيم الثورة وقائد النهضة أحمد عرابي المسلم العربي في باب اللوق، والرجل يومئذٍ عاد من منفاه وحُرم ماله وداره، فهو مقيم ببيت أولاده بشارع خيرت. وحسبك أن تعلم أن أحد هؤلاء المؤتمرين قد وقف تحت سقف هذا البيت، يعرض اقتراحًا بإنشاء مدرسة جامعة نصرانية، تتولىٰ كل الكنائس المسيحية الإنفاق عليها؛ لتتمكن من مزاحمة الأزهر بسهولة»[1].

فانظر إلىٰ قول أبي فهر عن عرابي: «زعيم الثورة وقائد النهضة أحمد عرابي المسلم العربي»، وترحّم علىٰ هذا الزعيم وعلىٰ ذلك الفقيه!

وكيف يعقد عرابي مؤتمرًا تبشيريًا في بيته وهو الذي نقد الخديو إسماعيل لوثوقه في جينرال نصراني؟!

فخلال رواية عرابي لأحداث حرب الحبشة، يستنكر أن الخديو إسماعيل وضع ثقته في جينرال أمريكي يقود الجيش المصري، وذكر

---

(١) أباطيل وأسمار، أبو فهر محمود شاكر، (ص١٤١-١٥٨).

عرابي أن هذا الجينرال الأمريكي كان متعاونًا مع الملك يوحنا من خلال قسيس فرنساوي، ثم يُرجع عرابي أسباب الهزيمة إلىٰ استئمان غير المسلمين؛ فقال عرابي:

«وهذا نتيجة مخالفة أمر الله تعالىٰ حيث يقول: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٣] »[١].

وما سبق ذكره أيضًا من تديُّن عرابي ومواقفه الإسلامية يؤكد خطأ هذا الكاتب فيما ذكر.

وغني عن الذكر أن نقول إن عرابي لم يكن معصومًا من الخطأ، فهذا أمر ليس من صفات البشر، ولكننا أردنا توضيح مواقفه الإسلامية التي طمسها المزورون.

رحمة الله علىٰ أحمد عرابي الزعيم المسلم[٢]، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

(١) مذكرات عرابي، (١/ ١٢٥).

(٢) سألت أستاذنا الدكتور مصطفىٰ حلمي عن أحمد عرابي، فقال لي إنه يراه زعيمًا إسلاميًا.

الفصل السادس
ما أُخفي من فِكر الزعيم مصطفىٰ كامل

• **تمهيد:**

بعد قضاء الإنجليز والخديو توفيق علىٰ الثورة العرابية، واستقرار الاحتلال الإنجليزي، استولىٰ اليأس علىٰ قلوب غالب المصريين، فقد تم التخلص من زعمائهم الذين كانوا يثقون فيهم، وتغَلغل النفوذ الإنجليزي في جميع مرافق البلاد.

ولم يحرك هذا الماء الراكد إلا ظهور الجرائد الإسلامية التي تهاجم الاحتلال وتعلي من همة المصريين للقيام في وجهه، كجريدة المؤيد لصاحبها الشيخ علي يوسف، والتي كان يكتب بها الزعيم مصطفىٰ كامل ﷺ آن ذاك.

ثم تولىٰ الخديو عباس حلمي الثاني الحكم، وأصدر عفوًا عن زعماء الثورة العرابية، وعاد إلىٰ الواجهة السياسية من جديد خطيب الثورة العرابية عبدالله النديم، وأنشأ صحيفة الأستاذ واستأنف فيها جهاده ضد الاحتلال.

وفي وسط هذا الجو الملبد بالغيوم ظهر الشاب مصطفىٰ كامل، وأخذ يعمل بالسياسة والصحافة والشأن العام عمومًا، وتجوّل في بلاد أجنبية كثيرة لنشر القضية المصرية وزيادة الوعي بها.

وقد سبق واتصل الزعيم مصطفىٰ كامل بعبد الله النديم، وعرف منه أسرار الثورة العرابية، وأسباب إخفاقها وهزيمتها، كما أوقفه أيضًا علىٰ دسائس السياسة الإنجليزية، وكان النديم هو حلقة الاتصال بين مصطفىٰ كامل وتعاليم جمال الدين الأفغاني الذي كان قد تتلمذ علىٰ يديه[1].

وبعد أن مال الخديو إلىٰ الإنجليز، ومال معه صاحب جريدة المؤيد التي كانت لسان الحركة الوليدة ضد الاحتلال، أطلق مصطفىٰ كامل جريدة اللواء في أول شهر رمضان عام ١٣١٧، الموافق ٢ يناير ١٩٠٠م، والتي أصبحت لسان حال الحركة المصرية المعارضة للإنجليز، والداعية إلىٰ التمسك بالإسلام، والوحدة الإسلامية والجامعة الإسلامية، وإلىٰ الولاء للدولة العثمانية وسلطانها بصفته خليفة المسلمين، وقاومت محاولات القضاء علىٰ اللغة العربية، ومحاولات التغريب وسفور المرأة المسلمة والتنصير، كما هاجمت أوربا وفضحت مخططاتها الصليبية، وهاجمت سعي الإنجليز لتشويه الإسلام وتعاليمه، وعملت علىٰ إعلاء

---

(١) صحافة الاتجاه الإسلامي في مصر منذ مطلع القرن العشرين حتىٰ نشوب الحرب العالمية الأولىٰ، د. جمال عبدالحي، (ص١٣٨، ٢٥٥-٢٥٩): مصطفىٰ كامل باعث الحركة الوطنية، عبد الرحمن الرافعي، (ص٣٦)، سعد زغلول سيرة وتحية، عباس العقاد، (ص٨٧)، الإسلام والتجديد في مصر، تشارلز آدمز، (ص٢١٤).

همم المصريين والقضاء علىٰ اليأس الذي تمكن من قلوب غالبهم، عن طريق تذكيرهم بفضائل وطنهم وتاريخ إنجازات الذين عاشوا سابقًا علىٰ أرض مصر مثلهم[1].

● أولًا: نشأة مصطفى كامل الإسلامية:

تعلّم والد مصطفىٰ كامل (واسمه علي أفندي محمد) القراءة والكتابة والقرآن علىٰ يد أحد الفقهاء، وكانت تلوح عليه علامات التقوىٰ والصلاح، وكان أبو علي (جد مصطفىٰ كامل) ينوي أن يهب عليًا لدراسة علوم الدين الإسلامي، ولكن الأقدار ساقته ليكون ضابطًا بالجيش، ثم مهندسًا، قبل أن يُحال إلىٰ المعاش.

وكان والد مصطفىٰ حريصًا علىٰ تربية أبنائه تربية إسلامية، فكان إذا بلغ الولد الخامسة من عمره دعا أحد الفقهاء إلىٰ المنزل؛ لتلقينه مبادئ القراءة والكتابة ليحفظ ما يستطيع من القرآن الشريف.

وقد رُزق بولده مصطفىٰ كامل (وهو اسم مركب) بالقاهرة، بمنزله بشارع الصليبة، يوم الأحد غرة رجب ١٢٩١هـ، الموافق تقريبًا منتصف أغسطس ١٨٧٤م.

فعيّن والد مصطفىٰ له فقيهًا صالحًا اسمه الشيخ أحمد السيد؛ ليعلمه مبادئ القراءة والكتابة ويحفّظه القرآن الكريم، وأخذ والده علىٰ هذا الفقيه الميثاق أن يجتهد معه في تجويد القرآن الشريف، وإتقان قراءته وحفظه.

---

(١) يُنظر العنصر الخاص بالوطنية عند مصطفىٰ كامل فيما يأتي في آخر الكتاب.

وقد قال الفقيه لوالده يومًا عن مصطفىٰ: إن ولدك هذا سيكون عالمًا كبيرًا.

وكانت نية والد مصطفىٰ متجهة إلىٰ حمل مصطفىٰ متىٰ ترعرع وكبر علىٰ طلب العلم والدين في الأزهر الشريف، والتوسع فيهما حتىٰ يكون منقطعًا لهما.

وكان مصطفىٰ كامل وهو صغير ينهض في الفجر ليقرأ ما تيسر من القرآن الشريف بصوت جهوري، بعد أن يصلي خلف والده.

ثم دخل مصطفىٰ مدرسة والدة عباس الأول، ثم ترقىٰ في المراحل التعليمية، حتىٰ حصل علىٰ شهادة الحقوق من جامعة (تولوز) بفرنسا قبل بلوغه العشرين.

وكان فصيحًا ساحر البيان، وأنشأ إلىٰ جانب جريدة اللواء جريدتين، إحداهما بالإنجليزية والثانية بالفرنسية، سمىٰ كلا منهما اللواء أيضًا.

ثم دعا إلىٰ إنشاء الحزب الوطني، فانعقد أول اجتماع له سنة ١٩٠٧ بدار اللواء، وانتُخب رئيسًا له طول حياته.

وتُوفي وهو شاب بالقاهرة، وعمره أربعة وثلاثين عامًا، عام ١٣٢٦هـ= ١٩٠٨م.

له من المؤلفات:

(حياة الأمم والرق عند الرومان)، و(فتح الأندلس)، و(المسألة الشرقية)، و(دفاع مصري عن بلاده)، و(الشمس المشرقة)، و(مصر والاحتلال الإنجليزي)، و(رسائل مصرية فرنسية).

وقد قام علي بك فهمي كامل (وهو أخو مصطفىٰ كامل) بجمع جل تراث أخيه، في ٩ مجلدات، وسماه: (مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا)، وهو بمثابة الأعمال الكاملة لمصطفىٰ كامل[١].

• ثانيًا: مبادئ مصطفى كامل بلا تزوير

فيما يلي نلقي الضوء علىٰ فكر مصطفىٰ كامل الذي تم التعتيم عليه بواسطة محتلي الثقافة تارة، وإبرازه بشكل ناقص وفي غير سياقه تارة أخرىٰ، سعيًا منهم لتحقيق أهداف هي أبعد ما تكون عن المهنية والبحث الجاد، ومن أجل توصيل أفكار علمانية وغربية للناشئة، بعيدة تمامًا عما كان ينادي به الزعيم مصطفىٰ كامل ﷺ!

١) مصطفىٰ كامل يقوّض مفاهيم العلمانية:

لا شك أن الركن الركين في العلمانية هو ضرورة إبعاد أحكام الدين عن التدخل في السياسة، إضافة إلىٰ قول العلمانيين إن الشريعة الإسلامية غير مناسبة لعصرنا، وهذا ما يرفضه بشدة مصطفىٰ كامل ويُسمي من يقولون ذلك بـ«الكفرة الخاسرين»! ويرىٰ أن القرآن هو دستور المسلمين، وأنه القائد إلىٰ التحضّر والتمدّن.

فيقول عن العلاقة بين الدين والسياسة:

«الدين والسياسة توأمان لا يفترقان»[٢].

---

(١) للتوسع في ترجمة مصطفىٰ كامل ينظر: ترجمة أخيه علي كامل له، في مقدمة «مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا»، (١/ ٥٤-١١١ وما بعدها)، والأعلام، للزركلي (٧/ ٢٣٨).

(٢) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٩/ ٢٩٣).

ويقول رَحِمَهُ اللهُ:

«ولماذا لا نتمسك بديننا في السر والجهر، وهو دين الفضائل والمكارم والهدىٰ؟

وإذا كان الغربيون يعتقدون أن الدين أساس السياسة، فكيف يقوم بيننا من يدّعي أن الدين شيء والسياسة شيء آخر؟!»[1].

«وإني كلما طالعت كتب الأوربيين وجرائدهم أزداد يقينًا علىٰ يقين بشأن مسألة ارتباط الدين بالسياسة والسياسة بالدين»[2].

ويقول مصطفىٰ كامل عن الدستور الذي ينبغي اتباعه:

«بأي كتاب نقتدي وبأي دستور نهتدي؟ نقتدي بكتاب مجيد، ودستور فريد، شرعه لنا فاطر السموات والأرض، وما فرط فيه من شيء، كتاب شريف، وقرآن منيف.

الحق يقدُمه، والنور يحيط به من كل جانب، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كتاب يكفل لنا السعادة الدنيوية والأخروية، ويحقق لنا إن -اتّبعناه- رضاء الخالق والناس والسريرة الإنسانية علينا.

كتاب آياته بينات، وبالحق ناطقات، تنشرح لقراءتها الصدور، وينتقل بتلاوتها مَن في الظلمات إلىٰ النور، كتاب أنواره ساطعة، وأحكامه باهرة، تأخذ بلُب من رآها، حتىٰ أن أعداءه الكافرين وحساده الخاسرين أقروا بأنفسهم أنه الدستور الجدير بأن يُتبع، والقانون الكافل للمعاش

---

(١) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٩/ ٢٥٢).

(٢) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٩/ ٢٩٤).

والمعاد، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

ألا ترىٰ أيها القارئ النبيل كيف أن فئة قليلة من العرب تحت قدوة الشريف سيدنا ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام، غلبت فئات قوية وأدخلتها في ذلك الدين الحنيف القويم؟

ألا ترىٰ كيف أن المسلمين في صدر الإسلام ملكوا الأرض من مشارقها إلىٰ مغاربها، وتفرّدوا بالكلمة وتوحدوا بالسلطة، حتىٰ علا مجدهم الفرقدين، وغدت أنوار الشمس لا تغيب عن أملاكهم؟ تلك الأملاك الشاسعة، والأراضي الواسعة، والقصور الشاهقة، والمباني العالية، والحصون القوية، والقلاع الحصينة، مما لم تستطع أية دولة من أعظم الدول قوة واقتدارًا أن تجاري دولة الإسلام فيه.

كلُّ ذلك باتّباع القرآن الشريف الذي يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر.

فما بالنا معشر المسلمين لا نتبعه، وقد علمنا أنه عنوان سعادتنا وقائدنا إلىٰ طريق مجدنا؟

فلنجعلْه نبراسًا في أعمالنا، وسراجًا وهّاجًا في حركاتنا وسكناتنا.

ولا نكن كمن غرّه السراب فهو يغتر بأقوال الخسرة المموهين، والكفرة الخاسرين! الذين يقولون إن القرآن أُنزل لعصر لا لكل عصر، ولقوم لا لكل الأقوام!

بل لنعلم حق العلم أن في اتباع القرآن الوصول إلىٰ أعلىٰ منائر الحضارة والمدنية، كيف لا ونحن لو نظرنا لأي أمر من أوامره أو نهي من

نواهيه لرأينا منه حكمًا جليلة وفوائد جمة عظيمة؟ ولو أمعنا النظر في تحريم الخمر مثلًا لرأينا ما في ذلك من المنافع ما لا ينكره إلا كل عدو للحق عتيد، فالخمر تسلب الشرف والصحة والمال، تلك الأشياء التي عليها تدور رحىٰ حياة الإنسان.

وكذلك الزنا فإن تحريمه حفظًا للشرف والعرض والآداب العمومية، ومحافظة علىٰ عدم اختلاط الأنساب، وفساد الأخلاق، وغير ذلك.

وفي جانب هذا، لو نظرنا إلىٰ الفرائض لشاهدنا فيها من المنافع الدنيوية والأخروية ما يعجز اليراع عن حصره.

ففي الصلاة مثلًا -التي طالما يتأخر الكثيرون عن القيام بها- فوائد جسدية ودنيوية وأخروية؛ فهي تجعل الإنسان مخلصًا في محبة الخالق، ومتواضعًا لكل إخوانه، يفرح لفرحهم ويتكدر لكدرهم، طاهر الجسد والثياب، فضلًا عن أنها تنشط الجسم، وتقوّي العضلات، مما يعلمه كل من واظب عليها»[1].

ويرىٰ مصطفىٰ كامل أن الرسل جاءوا بشرائع لاتباعها في كل الأحوال، وأنه لا يكفي تصديق النبي دون اتباع شريعته؛ فيقول:

«اعلم أن الله ﷻ خصّ من بين عبيده رسلًا، يهذبون الأمم إلىٰ طريق الخير، وأنزل عليهم الشرائع لاتباعها في سائر الأحوال؛ فمن الناس من صدق هؤلاء الهادين في دعوتهم، فرضي الله عنه وحباه من لدنه جنة وحريرًا، ومنهم من خالف ذلك فكان من المغضوب عليهم وتعست حاله.

---

(١) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (١/ ٢٥٢-٢٥٥).

وليس الواجب أن نصدق النبي في قوله دون أن نتبع أحكام شريعته، بل يجب علينا وجوبًا حقيقيًا أن نتبع شريعته، فنأتي بما أمرنا به الله علىٰ لسان نبيه.

علىٰ أن في اتباع الشريعة المطهرة من الفوائد الدنيوية والأخروية ما لا يمكن حصره مطلقًا، كيف لا وهي التي تأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر، وهي التي تجلب رضاء الله علىٰ العبيد، ورضاء الناس علىٰ بعضهم، وهي التي تأمر بمكارم الأخلاق جميعها؛ فتأمرنا بالتقوىٰ والتعاون والصبر والحلم والعدل إلىٰ غير ذلك»[1].

ويؤكد علىٰ ملائمة أحكام الإسلام لكل زمان ومكان، وأن تخلف المسلمين يرجع إلىٰ ترك قواعد دينهم؛ فيقول:

«الدين الإسلامي هو أشرف الأديان علىٰ الإطلاق، وأجلها مقامًا، وأعظمهم قدرًا؛ لأنه مكوّن من حقائق يقبلها العقل بكل سهولة، وملائم لكل زمان ومكان، ما عملت به أمة من الأمم إلا وأصلحت أحوالها، وانتظمت أمورها، وتم لها الفوز والنصر، وعلت كلمتها بين سائر الأمم . . .

وقد يخطئ أعداء هذا الدين الخطأ الجم، عندما يقولون إنه إذا كانت مبادئه حقيقية، فلمَ لمْ يرتفع للمسلمين في هذه الأيام كلمة؟ ولمَ سبقهم الإفرنج إلىٰ التقدم؟

ويضيفون علىٰ ذلك أن العرب لم تصل إلىٰ ما وصلت إليه إلا بقوتهم وشجاعتهم، لا بنور دينهم وعظيم علومهم!

---

(١) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (١/ ٢٠٥-٢٠٦).

فنجيبهم علىٰ هذا القول الفاسد والادعاء الباطل بأن العرب قبل الإسلام وبعده هم العرب، لمْ يتغيروا، وقوتهم ثابتة لم تتحول، فلمَ لمْ يصلوا إلىٰ الرفعة وعلو الشأن قبل الإسلام؟!

لا شك أن بلوغ هذه المكانة التي بلغوها يُنسب إلىٰ تأثير هذا الدين الجليل.

وأما السبب في عدم ارتفاع كلمتنا في هذه الأيام فهو لأن أكثرنا ترك قواعد الدين فعلًا لا اعتقادًا، وأهمل أمر التربية الإسلامية»[1].

ويؤكد مصطفىٰ كامل علىٰ أن سبب تأخر المسلمين هو عدم اتباعهم لأحكام الإسلام؛ فيقول:

«إننا إذا بحثنا عن سبب تأخر المسلمين وتسلط الغربيين علىٰ بلادنا، لوجدناه انقسامنا بعضنا علىٰ بعض، وعدم اتحادنا، وبالجملة: عدم اتباعنا أوامر الدين الإسلامي الجليل.

نعم، وإني أصرح بذلك بأعلىٰ صوتي، لا سلامة لمصر، ولا سلامة للدولة العلية، ولا سلامة لأمم الإسلام كافة إلا باتباع أوامر الشرع الشريف، فاتباعها يهدينا إلىٰ اتحاد الكلمة، والاجتهاد والنشاط، والسير في طريق التقدم والحضارة . . .

وإذا كان الكثيرون من علماء أوربا وفلاسفتها يعترفون بأن الإسلام دين كريم، يكفل للأمم العاملة بأوامره السير إلىٰ الأمام في سبيل التقدم والحضارة، فكيف لا نعترف نحن بهذه الحقيقة الواضحة المتلألئة؟!

---

(١) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (١/ ٢٧١-٢٧٣).

بل كيف لا نعمل نحن بهذا الدين الشريف، الذي فيه كل ما تحتاج إليه الأمم؛ من نواميس الحياة، ووسائل الحضارة والارتقاء؟

إنه من سوء حظ الشرق، أن كثيرًا من أبنائه الذين تعلموا في أوروبا، يحسبون أن المدنية هي خلع ثياب الدين والتشبه بالأوروبيين في ملبسهم وزيهم! فنجد بعضًا منا يفتخرون بأنهم يلبسون من لندرة [أي لندن] أو من باريس، ولست تجد واحدًا منا يفتخر بأنه يلبس من مصنوعات بلاده.

وإذا ذكرت للبعض أنك متمسك بالإسلام متبع أوامره قائم بفرائضه، سمعته يقول لك: أنت متعصب!

كأن التمسك بالدين نقيصة النقائص وجريمة الجرائم!»[1].

ويقول:

«لعمري إن الإسلام بريء مما ينسبه أعداؤه إليه، حيث يدّعون أنه دين التأخر والانحطاط والكسل والخمول، علىٰ أنه دين النشاط والعمل والجهاد.

وإني لا زلت أقول إن سبب تأخر المسلمين في جميع البلاد الإسلامية، هو ابتعادهم عن الإسلام كل الابتعاد، ومخالفتهم لأوامره كل المخالفة!

فما هذه المفاسد وما هذا الغرور؟ أيأمر الإسلام بهذا الفسق وهذا الميسر وهذه الخمور؟! أيأمر الإسلام بالربا وقد خرب البيوت ودكّ القصور؟! أيأمر الإسلام بالشقاق والافتراق وخيانة الأوطان؟! أيأمر

---

(١) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٩/ ١٥-١٦).

الإسلام بموت الهمم وقعود العزائم وضياع الإيمان؟!

كلا ثم كلا!

إن الإسلام لَدينُ الفضائل ودين المكارم ودين الهدىٰ، أمَا يأمركم الإسلام بالصلاة وصالح الأعمال؟ أما يأمركم بالمعروف وينهاكم عن المنكر؟ أما يأمركم باجتناب الفُحش والميسر والربا؟ أما يأمركم بالاتحاد والاتفاق وخدمة الأوطان؟ أما يأمركم أن تعيشوا رجالًا وتموتوا رجالًا؟!

فما بالكم لا تتبعون أوامره؟ وما بالكم تسألون عن طريق النجاة، وطريق النجاة في اتباع الإسلام؟

لقد حق علينا غضب الرحمن، وإن لم نسلك السبيل السوي فيا بئس الحال ويا بئس المآل!»[1].

٢) ولاء مصطفىٰ كامل لخليفة المسلمين العثماني:

كان مصطفىٰ كامل من أكثر الذين يدينون بالولاء للسطان العثماني، بصفته خليفة المسلمين الواجبة طاعته، ويدعو إلىٰ ذلك بشدّة في كثير من كتاباته وخطبه، في مصر وخارجها.

ويصف مصطفىٰ كامل السلطان العثماني بأوصاف تبجيلية عظيمة، منها:

«أمير المؤمنين» و«خليفة رب العالمين!»[2]. و«فخر آل عثمان

---

(١) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٩/١٩٨).

(٢) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (١/٢٦٩).

وفريدة عقد السلاطين العظام مولانا السلطان الغازي عبدالحميد خان»[1]. و«خليفتنا المحبوب السلطان الجليل القدر عبد الحميد خان الثاني»[2].

ويطلق علىٰ إسطنبول عاصمة الدولة العثمانية اسم: «عاصمة الإسلام والخلافة»[3].

ويدعو للسلطان العثماني والدولة العثمانية قائلًا:

«اللهم احفظ لنا أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين، ناصر الدين والأوطان»[4].

«أيّده الله بأيده الأسنىٰ، وأمدّه بعونه العظيم، ومتّع الأمة والبلاد بطول بقائه، وأجرىٰ علىٰ يديه من الخير ما به رفعتها، إن الله كريم مجيب»[5].

«أبقاه الله حُجة للأنام، وكعبةً للإسلام!»[6].

«بارك الله في الدولة[7]، ونصر سلطانها، وأيّد ملكها»[8].

---

(١) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٢/ ١١).
(٢) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٢/ ١٢٦).
(٣) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٩/ ١٣٥).
(٤) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (١/ ٢٧٠).
(٥) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٢/ ١١).
(٦) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٢/ ١٢٧).
(٧) أي الدولة العثمانية.
(٨) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٥/ ٩٢).

وينشد مصطفىٰ كامل أبياتًا من الشعر من تأليفه ثناء علىٰ الدولة العثمانية وسلطانها، فيقول:

لتحيىٰ دولة عثمان التي بلغت — من السمو مكان الشمس والقمرِ
وليحيىٰ للملك بدر الملك موئلنا — عبد الحميد حميد الرأي والفكرِ
ولتحيىٰ مصر وأهلوها بحكمته — ويبلغ النيل ما يرجو من الوطرِ

وعندما حاول البعض أن يوقع بين مصطفىٰ كامل والسلطان عبدالحميد، كتب مصطفىٰ كامل:

«اللهم إني أول مَن يُقدس مقام جلالة الإمام الأعظم، ويَشهَد أمام الله وأمام الناس أنه سيد الحكماء وقدوة السياسة وقادة الأمم، وأعتقد أنه أشد حنانًا علىٰ مصر من أحب أبنائها إليها، وأصدقهم ميلًا نحوها، وأن أسمىٰ رغباته أن يرىٰ المسلمين في رفعة وسؤدد، مجتمعين حول الراية العثمانية الشريفة»[1].

ويؤكد مصطفىٰ كامل علىٰ ولاء المصريين للسلطان العثماني، ويدعو إلىٰ التمسك بالدولة العثمانية؛ فيقول:

«لا شك أن المصريين هم أصدق الأمم جميعًا للحضرة السلطانية، وأول المخلصين المقدرين لحب جلالة الخليفة»[2].

ويقول:

«أخاطب إخواني المصريين، وأرجو منهم بالحاح أن لا يلتفتوا لنفاق

---

(١) اللواء، عدد ٥٨، الرابع من ذي القعدة ١٣١٨، الخامس من مارس ١٩٠٠م.

(٢) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٢/ ١١٢).

المنافقين، ولا لأقوال الأعداء، وليستمروا على التمسك بحب الدولة والإخلاص لها.

فإن مصر بدونها ضائعة لا محالة، ولا سبيل لنصرتنا إلا إذا تمسكنا بها، بصفتنا مصريين وطنيين، واحترامنا سلطانها الذي هو سيدنا وخليفتنا نحن المسلمين.

فقولوا معي بصوت الوفاء:

ليعِش السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين، وسلطان العثمانيين، ولتعش دولة آل عثمان، ولتعش الحرية في سلام»[١].

ويقول:

«ولا غرو إن كنا نتألم لآلام الدولة العلية، فما نحن إلا أبناؤها المستظلون بظلها الوريف، المجتمعون حول رايتها، فأصدقاؤها أصدقاؤنا، وأعداؤها أعداؤنا!»[٢].

«إن الراية العثمانية هي الراية الوحيدة التي يجب أن نجتمع حولها، ولا تتحقق وحدتنا بغير الاتحاد والائتلاف، فلنتّحذ قلبًا ولسانًا، ولنكن يدًا واحدًا في خدمة الأوطان وإسعادها»[٣].

وقد سأله ذات مرة (الميرالاي بارنج) شقيق (اللورد كرومر):

«هل أنت مصري أم عثماني؟».

---

(١) مصطفى كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٥/ ٩٢).

(٢) مصطفى كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٣/ ٢٠٣).

(٣) مصطفى كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٣/ ٢٠٤).

فأجابه مصطفىٰ كامل: «مصري عثماني!».

فقال متعجبًا: «وهل تجتمع الجنسيتان في أحد؟».

فقال مصطفىٰ كامل: «ليس الأمر جنسيتين؛ بل في الحقيقة جنسية واحدة؛ لأن مصر بلد تابع للدولة العلية»[١].

ويقول مصطفىٰ كامل:

«إن المصريين في أغلبيتهم مسلمون، بحيث إن العناصر الأخرىٰ التي لم تدِن بدين الإسلام لم تكن جزءًا من عشرين من تعداد المسلمين القاطنين أرض مصر، وبما أن دولة الخلافة الإسلامية هي الدولة العلية وسلطانها هو رئيسنا الديني.. فنحن كلما زدنا عددًا كَثُر تعلق النفوس بهذه الدولة المحبوبة»[٢].

وفي احتفال بعيد جلوس السلطان العثماني، يقول مصطفىٰ كامل:

«إننا إذا كنا نحتفل اليوم بعيد جلوس جلال السلطان فإنما نحتفل بالراية العثمانية الإسلامية...

إنهم يقولون إن المصريين وفي مقدمتهم مصطفىٰ كامل عُمي، لا يفقهون حالة الدولة[٣]، ومبلغ ما هي عليه من الظُّلم، وإن قومًا هذا شأنهم

---

(١) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٣/ ٢٠).

(٢) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٦/ ١٨٦).

(٣) أي العثمانية كما سبق، ويُلاحظ أن مصطفىٰ كامل إذا أطلق كلمة «الدولة» فهو يقصد العثمانية، هذا لاعتقاده أن مصر ما هي إلا بلد تابع للدولة الأم، دولة المسلمين.

يمجدون الظالمين لا يستحقون رحمة ولا عطفًا، ولا هم جديرون بتحرير بلادهم وسيادتهم فيها!

عجبًا أيها السادة لأولئك الأفاكين، الذين يريدون بهذه الافتراءات والأكاذيب أن ينسفوا بلاد الإسلام من الوجود، بإثارتهم الفتن التي تودي بجسم الدولة، وتسيل دم الأبرياء، بلا حكم عادل ولا رحمة بشرية . . .»[1].

وقد أنعم الخليفة العثماني علىٰ مصطفىٰ كامل برتبة المتمايز، وأعطاه النيشان المجيدي، وأبلغه رضاه عنه، وتكفل بمصاريف إقامته بالأستانة[2].

وهاجمت جريدةُ اللواء -التي كان يرأسها مصطفىٰ كامل- جريدةَ المقطم وعددًا من الصحف النصرانية، التي كانت تطعن في مقام السلطان العثماني وتفتري عليه، «وتدسّ الفتن بين الحاكم والمحكوم في الممالك العثمانية»[3].

كما كتب مصطفىٰ كامل كتاب «المسألة الشرقية» في مجلدين، تناول فيهما الصعوبات والتحديات التي تواجه الدولة العثمانية وجميع

---

(١) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٥/٨٦-٨٨).

(٢) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٩/١٣٩، ١٨٢).

(٣) جريدة اللواء، عدد ١٧٦٦، بتاريخ ٦ جمادىٰ الأول ١٣٢٣، الموافق ٩ يوليو ١٩٠٥م، والعدد الذي يليه . ١٧٧٧ (النقل عن جريدة اللواء من كتاب «صحافة الاتجاه الإسلامي في مصر منذ مطلع القرن العشرين حتىٰ نشوب الحرب العالمية الأولىٰ»، د. جمال عبدالحي).

المسلمين، ودافع بشدة عن الدولة العثمانية، وهاجم أوروبا بضراوة، وبيّن مكرها وخبثها[1].

٣) الجامعة الإسلامية لا القومية العربية:

كان مصطفىٰ كامل من أكبر الداعين إلىٰ اتحاد المسلمين تحت راية الإسلام وبقيادة السلطان العثماني، ويرىٰ أن المسلمين أولىٰ بالاتحاد من المسيحيين الذين يتحدون سويًا، فيقول في ذلك علىٰ سبيل المثال:

«وإذا كانت الدول الأوروبية علىٰ اختلاف مصالحها وتباين منافعها وعظمتها وقوة سلطانها تتحد فيما بينها، وتنسىٰ كل شقاق وكل افتراق عندما يهمّ المسيحية أمرٌ! فلماذا لا نتحد معاشر المسلمين وقد احتل الشقاء بلادنا، وخيّم الجهل والذل علىٰ ديارنا، وقوّضت المصائب أركان استقلالنا، وسلبتنا النوائب عظمتنا وقوتنا وسعادتنا؟ ألسنا أشد من الأوربيين حاجة إلىٰ هذا الاجتماع وهذا الاتفاق؟!

وإذا كنا نعتقد بالدلائل التاريخية أن الإسلام دين الفضائل والمدنية الصحيحة، وأن الابتعاد عن مبادئه سبب التأخر والانحطاط، والتمسك به داعية السمو والترقي، فلماذا لا نعمل بأوامره ونجتنب نواهيه؟!

وإذا كنا نرىٰ كل يوم شاهدًا جديدًا ودليلًا قويًا علىٰ أن أوربا لم تقُم إلا بالدين، فلماذا نهمل ديننا ونحن أحوج إلىٰ التمسك به من أوربا والأوربيين؟!

---

(١) الكتاب في مجلدين وضعهما علي كامل ضمن كتاب: مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، المجلد السابع والمجلد الثامن.

اللهم إنا نسألك أن تهدينا بفضلك كما هديت آباءنا من قبل، إنك سميع مجيب»[1].

ويقول متعجبًا:

«يلومون السلطان لأنه يحض المسلمين علىٰ الاتحاد، ويسعىٰ في جمع شتات المسلمين، ووضع زمام الإسلام في قبضته.

أما أنا فأرىٰ الدول الأوروبية تحض المسلمين علىٰ ذلك أكثر من جلالته، وتدعوهم إلىٰ الانضمام والاتحاد يدًا واحدة!

فإن أوروبا لم تخاطب المسلمين في أمر ما إلا وكان كلامها باسم النصرانية! وهي لم تتكلم قط باسم التمدن الأعم علىٰ أفراد البشر من مسائل الدين.

ولكي أمثّل لكم الحالة التي وصلت إليها خواطر المسلمين، أذكر لكم الجملة التي فاه بها جلال السلطان الأعظم لمكاتب جريدة (نيوفري بريسة) النمسوية التي تصدر في فينا؛ حيث قال: «أوروبا تحاربنا حربًا صليبية في شكل سياسي»!

وقد أعرب جلالته بهذه الجملة عما يخالج أفئدة أفراد المسلمين في العالم بأسره!»[2].

ويضيف مصطفىٰ كامل ﷺ:

«والواجب الديني يحتم علىٰ المسلمين أن يرجعوا إلىٰ مبادئ الإسلام

---

(١) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٩/ ٢٦٩).

(٢) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٦/ ٧٦-٧٧).

الصحيحة، ويعملوا بأوامر الدين الحنيف الكريم، ويجتنبوا نواهيه، ويتحدوا فيما بينهم اتحادًا متينًا أكيدًا، حتىٰ يرتفع شأنهم وتسمو بين الأمم مكانتهم.

ولا ملامة إذا عطفوا بكل جوارحهم علىٰ إخوانهم المسلمين في سائر المعمورة؛ لأن الإسلام جعل المسلمين إخوة بالرغم من اختلاف النحل والبلاد، وإذا أضفنا إلىٰ الرابطة الدينية اتحاد المصالح السياسية واضطهاد أوربا لنا بصفة واحدة وشكل واحد ولعلة واحدة، ظهر لنا ضرورة اجتماع كلمة المسلمين، وعرف الناس جميعًا لماذا ننادي بالاتحاد الإسلامي.

ألا ترىٰ أن الذين يطعنون علىٰ الإسلام يتهمونه بأنه دين التأخر والانحطاط وأن جميع أبنائه متأخرون منحطون؟

أليست هذه التهمة وحدها داعية لاستنهاض همم المسلمين في كل أنحاء الأرض، ودعوتهم للاتحاد والاتفاق وترقية شئونهم وإعلاء قدر الدين الكريم؟»[1].

وعن سعي البعض لجمع العرب علىٰ خلافة عربية، علىٰ أساس اللغة والأرض لا الإسلام وحده، يقول مصطفىٰ كامل:

«وإني أعرف كذلك أن في مصر جماعة يسعون لحل المملكة العثمانية، وإقامة خلافة عربية تكون ألعوبة في أيدي إحدىٰ الدول الأجنبية؛ فهؤلاء وأمثالهم هم أعداء الدولة والملة! وأضر علىٰ الإسلام من أعدائه الظاهرين!

---

(١) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٩/ ٢٥٣-٢٥٤).

ولا عجب إذا نبذتهم الأمة المصرية بأسرها واحتقرتهم ظاهرًا وباطنًا، ولا جرم إذا بشّرناهم بالفشل والخذلان وسوء العاقبة!

فهذا وقت وجب فيه علىٰ المسلمين عامة أن يتحدوا حول راية الخلافة الإسلامية العثمانية، ويضحّوا بأرواحهم في سبيل المدافعة عنها؛ فهي الرافعة لراية الإسلام، وبدونها لا مقام لهذا الدين الكريم، ولا حرمة للمسلمين»[1].

٤) مصطفىٰ كامل والمرأة المسلمة:

يرىٰ مصطفىٰ كامل أن الواجب علىٰ المرأة المسلمة أن تلتزم بحجابها، الذي يُغطي جميع جسدها بما فيه الوجه، وأن تقوم بدورها المنوط بها، من رعاية بيتها وزوجها وأبنائها، لا أن تمشي سافرة وتختلط بالرجال في المصالح الحكومية وما شابه، كما يرىٰ عدم تربية البنات علىٰ الطريقة الأوروبية.

فقد جاء في جريدة المدرسة -التي كان يحررها مصطفىٰ كامل وحده قبل إنشائه للواء- ما يلي، علىٰ شكل حوار بين طالب وأستاذه:

«التلميذ: رأيت البارحة بيد أحد إخواني جريدة علمية اسمها (الفتاة)، فأخذتها منه وعندما قرأت ما علىٰ الغلاف علمت أن سيدة تديرها، فتعجبت من ذلك جدًا، أهلْ للمرأة قدرة علىٰ الإنشاء والتحرير كالرجل؟

الأستاذ: اعلم يا ولدي أن المرأة مثل الرجل، لها مقدرة علىٰ الفهم

---

(١) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٩/ ٢٠٠).

والإنشاء، وطالما رأينا جرائد وكتبًا من إنشاء سيدات شرقيات وعربيات.

التلميذ: إذا كان الأمر كذلك فهل يمكن أن النساء يُستخدمن بالمصالح مثل الرجال؟

الأستاذ: إن قواعد الشرع والأدب تقضي بضرب الحجاب علىٰ النساء، بوضع البراقع علىٰ الوجوه، فليس لهنّ أن يُستخدمن بالمصالح كالرجال، وإنما يكفي أنهن يُدبرن شئون المنزل ويُهذبن أولادهن»[1].

ويقول مصطفىٰ كامل عن تعليم البنات:

«وإني لست ممن يرون أن تربية البنات يجب أن تكون علىٰ المبادئ الأوربية؛ فإن في ذلك خطرًا كبيرًا علىٰ مستقبل الأمة، فنحن مصريون ويجب أن نبقىٰ كذلك، ولكل أمة مدنية خاصة بها، فلا يليق بنا أن نكون قردة مقلدين للأجانب تقليدًا أعمىٰ، بل يجب أن نحافظ علىٰ الحسن من أخلاقنا، ولا نأخذ من الغرب إلا فضائله.

فالحجاب في الشرق عصمة وأي عصمة، فحافظوا عليه في نسائكم وبناتكم، وعلموهن التعليم السليم الصحيح.

وإن أساس التربية التي بدونه تكون ضعيفة وركيكة غير نافعة هو تعليم الدين، نعم كلٌّ له دين، وكل يجب أن يتبع دينه، فنحن معاشر المسلمين يجب علينا قبل كل شيء أن نعرف ماهية الإسلام، ونسأل أنفسنا هل نحن عاملون بمبادئه، ومتبعون لأوامره، ومجتنبون لنواهيه؟

وإذا كنا وصلنا الآن إلىٰ حضيض الذل والهوان فكيف ذلك والإسلام

---

(١) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (١/ ١٩٥-١٩٦).

كفيل بالتقدم والتمدن والعمران؟»[1].

وعندما ظهرت الدعوة إلىٰ تخلي المرأة عن حجابها . . تصدت جريدة اللواء بقيادة مصطفىٰ كامل لها بشدة، فأخذت تدعو إلىٰ الحجاب، وتندد بالداعين إلىٰ السفور، وتحذر المسلمات من هذه الدعوة الآثمة[2].

٥) مصطفىٰ كامل ووجوب تعلُّم الدين واللغة العربية:

يرىٰ مصطفىٰ كامل وجوب جعل الدين هو أساس التعليم، لا مجرد مادة ثانوية لا تُضاف إلىٰ المجموع كما هو حاصل الآن!

يقول مصطفىٰ كامل ﷺ:

«ويجب قبل كل شيء أن تكون التربية الدينية أساس التعليم والتهذيب؛ فالدين عاصم من الدنايا، رادع عن الخطايا، معلم للفضائل، محبب للكمالات.

وإذا بحثنا بحثًا مدققًا عن سبب تأخر المسلمين في سائر البلاد وضياع استقلالهم ومجدهم وسؤددهم . . لوجدنا الأسباب كلها مجتمعة في سبب واحد، وهو أننا ابتعدنا عن الدين، وقصّرنا في اتباع أوامره واجتناب نواهيه.

فصرنا كالذين يهجرون بيوت آبائهم وهي قصور عالية البنيان مشيدة الأركان، ثم يأوون إلىٰ الفضاء متشردين؛ فتصيبهم الأمراض المختلفة من عوارض الجو، ويسقطون في مهواة الاضمحلال.

---

(١) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٩/ ١٩٧).

(٢) كما جاء في اللواء في مقال (الحجابَ الحجابَ)، عدد ١٥ مارس ١٩٠٠م.

فارجعوا إلىٰ بيوت آبائكم أيها المتشردون في الفضاء! ففيها تجدون الدواء، وفيها تجدون الشفاء.

ويا أيها المسلمون، إن كنتم تبتغون استرجاع مجدكم وسؤددكم، فاتبعوا دينكم، فهو كفيل لكم بأن تعيشوا أبد الدهر سادةً لا عبيدًا.

وإنا نرىٰ الأمم الأوروبية مع ما وصلت إليه من العظمة والقوة تحافظ علىٰ دينها أشد المحافظة، ويخطب فيها ملوكها ورؤساؤها باسم الدين، وإذا ألمَّ بأحد أبناء دينها خطرٌ .. اهتزت له جمعاء، ولو كان المصاب بعيد المزار ...

فارجعوا إليه أيها المسلمون النافرون عنه، واتحدوا جميعًا حول راية جلالة الإمام الأعظم والخليفة الأكرم.

وإنكم إذا حافظتم أيها المصريون علىٰ مبادئكم الوطنية وطالبتم بحقوقكم المقدسة واتبعتم أوامر الشريعة المطهرة وزال من بينكم الشقاق والفراق .. رُدت إليكم حريتكم وسعادتكم، وبلغتم منتهىٰ العز وذروة المجد، وإلا فإذا دمتم علىٰ هذا الحال، فبئس المآل وبئس الاستقبال، وحسبكم مبشرًا ونذيرًا قول ربكم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]»[1].

واعتبر مصطفىٰ كامل اللغة العربية هي والدين سواء؛ «فمن يقترح علىٰ الناطقين بالضاد هجر اللغة العربية الفصحىٰ، واستعمال العامية في

(١) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٩/ ٧٦-٧٨).

الكتابة والخطابة، كمن يقول لنا معشر المسلمين: اتركوا دينكم ولا تحفلوا بنبيكم!»[1].

ويقول مصطفىٰ كامل علىٰ شكل حوار بين أستاذ وتلميذه:

«التلميذ: وهل يا سيدي يجب عليّ أن أُتقن معرفة العربية أكثر من غيرها؟ وإذا كان . . لم ذلك؟

الأستاذ: نعم، يجب عليك إتقانها أكثر من غيرها؛ لأنها لغتك الشريفة التي أُنزل بها القرآن، المعمول بها في البلاد.

التلميذ: وإذا أتقنت معرفتها . . أيجب عليّ أن أتكلم بها دائمًا؟

الأستاذ: ولم لا؟

التلميذ: كيف ذلك وإني أرىٰ أغلب الناس يتكلم باللغة الدارجة؟

الأستاذ: إن تكلم الناس باللغة الدارجة لا يمنع من تكلمك أنت ورفقاؤك باللغة العربية الصحيحة.

التلميذ: لكن إذا تكلمت باللغة الفصحىٰ مع العوام ربما لا يفهمها أحد.

الأستاذ: كيف تقول ذلك؟ وأنت تعلم يا ولدي أن البلاد المصرية قد انتشرت فيها الصحف والجرائد العربية انتشارًا عظيمًا، وكلها مكتوبة باللغة الفصحىٰ، وأغلب الأفراد تقرأها كل يوم، وتفهم ما بها جيدًا»[2].

---

(١) اللواء، عدد ٢ فبراير ١٩٠٢م.

(٢) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (١/ ٢١٥-٢١٦).

ونددت جريدة اللواء بنظارة المعارف لرفضها إنصاف اللغة العربية وجعل تدريس المواد العصرية بها، وأكدت علىٰ أن الإنسان لا يكون حر الفكر، حر الضمير، طلق اللسان، قوي البيان، طويل البحث، كثير التأمل في مصالحه ومصالح وطنه، إلا بإتقان لغته، ودرس كافة العلوم بلسان آبائه ودينه ونبيه، فإذا سادت اللغة الأجنبية كل المدارس فأي خير يُرجىٰ للبلاد من هذا التعليم؟ الذي يحرص فيه المستعمر علىٰ أن يتقن التلاميذ لغته وترك لغة دينهم وبلدهم[1].

٦) مصطفىٰ كامل يقاوم تشويه الإنجليز للإسلام ويواجه التنصير:

اتهم مصطفىٰ كامل الإنجليز بتضييق دائرة التعليم في المدارس، ومعاقبة الذين لا ينشرون لغتهم الإنجليزية، ولا يستحسنون أعمالهم، واتهمهم أيضًا بأنهم يجعلون الجرائد التي تتهكم علىٰ الأمير والوطن كتبًا للمطالعة بالمدارس، وبأنهم أحضروا من بلادهم مؤلفات في التاريخ مملوءة بالطعن علىٰ الدين الشريف والنبي الكريم[2].

ويقول مصطفىٰ كامل:

«ينشرون [أي الإنجليز] بلغتنا رسائل الطعن علىٰ الدين الإسلامي، ويوزعون في المدارس كتبًا تُحقر الرسول محمدًا ﷺ، ويستأجرون جرائد تطعن ليلًا ونهارًا علىٰ المسلمين وخليفة الإسلام!

ولقد علم كافة الناس أخيرًا أن اثنين من الأهالي حُكم عليهما

(١) اللواء، عدد ٩٩٤، عدد ٩ شوال ١٣٢٠، ٨ يناير ١٩٠٣م.

(٢) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٢/ ٢٦٩).

بالسجن ثمانية عشر شهرًا؛ لأنهما سبّا ملكة الإنكليز، فهل عملا شيئًا خلاف الجاري في مصر؟

كلا؛ لأن محرري جرائد أخرىٰ -يختلفون عنهما بأنهما ليسوا مصريين وأنهم يحتمون بالإنكليز- طعنوا قبلهما ولا يزالون يطعنون أشد الطعن علىٰ سلطان مصر، الذي هو خليفة الإسلام[1].

فلماذا عوقب الطاعن في ملكة الإنكليز ولا يعاقب الطاعنون علىٰ جلالة السلطان؟!

علىٰ أنه يجب أن يُحترم جلال السلطان في مصر أكثر من أي ملك كان! لأنه سلطانها الشرعي الذي لا يعارض أحد في سلطته الشرعية»[2].

ويقول مصطفىٰ كامل أيضًا:

«أما الإنكليز الذين يدعون أنهم احتلوا مصر لتأييد الأمن فيها، فإنهم يعملون جهد استطاعتهم لإحداث اضطرابات في البلاد؛ فهم يجتهدون في إهاجة خواطر المسلمين ضد المسيحيين، والمسيحيين ضد المسلمين، وينشرون رسائل تطعن علىٰ الدين الإسلامي، وتدعو المسلمين لاعتناق النصرانية، ويطعنون في جرائدهم علىٰ خليفة الإسلام الذي له في مصر سلطة معنوية لا يحدّها العقل، كل هذا مع احتقارهم لسائر النظامات والقواعد الشرعية»[3].

---

(١) يقصد السلطان العثماني.

(٢) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٥/١٠١-١٠٢).

(٣) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (الجزء الخامس).

وانبرت جريدة اللواء برئاسة مصطفىٰ كامل للرد علىٰ (اللورد كرومر)، عندما أثنىٰ علىٰ أعمال المبشرين/المُنصِّرين والإرساليات النصرانية، وبيّنت اللواء أن خطة الإنجليز في مصر والسودان هي خطة العداء للإسلام والمسلمين[1].

وتصدّت اللواء لأنشطة المبشّرين، وهاجمت الحكومة لتركها المبشرين ينتشرون في سائر أنحاء البلاد في حماية البوليس المصري[2].

وقد كشفت اللواء عما تقوم به الكلية السورية الإنجيلية، من محاولات تنصير لطلبة المسلمين، وما يقوم به القس (نكل) ناظر مدرسة طرابلس الأمريكية من أعمال تنصيرية[3].

ودعت اللواء المسلمين إلىٰ مواجهة هؤلاء المبشرين وضرورة الانتباه إلىٰ دينهم، وحثت المسلمين أيضًا علىٰ مفارقة الأهل والديار لإعلاء كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، كما كان يفعل عظماء المسلمين في الماضي[4].

٧) هجوم مصطفىٰ كامل علىٰ أوروبا وفضح عداوتها للإسلام:

كان مصطفىٰ كامل في بداية الأمر يظن أن الأوربيين -خاصة فرنسا- قد يتدخلون لإجلاء الاحتلال الإنجليزي، وقد بذل مجهودًا كبيرًا من أجل ذلك، ولكن آماله قد خابت شيئًا فشيئًا بسبب مواقف أوروبا المتعصبة من

---

(١) اللواء عدد ١٠١٤، الرابع من ذي القعدة ١٣٢٠.

(٢) اللواء، الثامن من ذي الحجة ١٣٢٢، ٢٦ يناير ١٩٠٤م.

(٣) اللواء، عدد ٢٨٦١، ٢ محرم ١٣٢٧، ٢٤ يناير ١٩٠٩.

(٤) اللواء، عدد ١٤٦١، ٣٠ ربيع الثاني ١٣٢٢، ١٤ يوليو ١٩٠٤م.

القضايا الإسلامية والدولة العثمانية، ثم اكتشف في نهاية الأمر حقيقة الأوربيين وفرنسا عندما قام الاتفاق الودي بين إنجلترا وفرنسا في ١٨ أبريل عام ١٩٠٤م، والذي يقضي بأن تطلق فرنسا يد إنجلترا في مصر، مقابل أن تطلق إنجلترا يد فرنسا في المغرب.

فمن هنا أخذ مصطفىٰ كامل يهاجم أوروبا بصورة متصاعدة، ويُبين تناقضها وكذبها وعداوتها للإسلام والمسلمين.

يوضح مصطفىٰ كامل حقيقة الحرب بين أوروبا والمسلمين وأنها جهاد ديني محض:

«وما تصفّح أحدٌ تاريخ علاقات أوربا بالدولة العليّة إلا ورأىٰ أن الجهاد بين دولتنا المحبوبة ودول الغرب جهاد ديني! وأن الدين هو أساس سياسة الأوربيين مع الشرقيين.

ولم ينسَ أحد منا ما قاله جهارًا سفير إنجلترا في الأستانة العلية أمام سفراء الدول الأخرىٰ ووزير خارجية جلالة مولانا السلطان الأعظم من أن «ما أخذ من الهلال لا يُرد، وما أخذه الهلال من الصليب يُرد»!

كذلك نعلم كلنا علم اليقين أن دول أوروبا مع اختلاف مشاربها وتباين أغراضها ومصالحها، تتحد كلها إذا أُصيب مسيحي في الشرق، أو في أقصىٰ بقاع الأرض بمصيبة، وتعمل لإنقاذه والأخذ بثأره»[1].

---

(١) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا (٩/٢٥١)، اللواء عدد ٢٠٣٩ - ٣٠ رجب ١٣٢٧، ١٦ أغسطس ١٩٠٩م.

ويُبيِّن مصطفىٰ كامل أن أوروبا لم تحارب الدولة العثمانية إلا من أجل إسلامها؛ فيقول:

«أوربا لم تُحارب الدولة العثمانية إلا بسبب الدين، ولم تتداخل في شئونها الداخلية إلا بدعوىٰ نصرة الدين، ولم تُعادِها إلا لأنها دولة إسلامية!

وكأن الدول الأوربية علمت أننا إذا تمسكنا بالدين استرجعنا قوتنا وعظمتنا، فتراها تعمل ما في وسعها لإبعادنا عن مبادئه القويمة، وتجتهد في نشر مبادئ الجحود والفلسفة الكاذبة بيننا!

وصنائع أوربا[1] في الشرق لا يكرهون شيئًا مثل قيام خطباء الإسلام وكُتابه بدعوة المسلمين إلىٰ التمسك بدينهم الكريم، والعمل لإحياء مبادئه الشريفة الطاهرة، التي قبرناها بجهلنا واستسلمنا للأجانب والأعداء!»[2].

وفي ردّه علىٰ سؤال من جريدة (الليبر بارول) الفرنسية حول رأي مسلمي مصر في أوروبا، يقول مصطفىٰ كامل:

«يرون أن أوروبا متعصبة ضدهم؛ إذ إنها في كل المسائل المتعلقة بالمسيحيين تنفعل، وتجتمع وتتفق للعمل في مصالحهم، وتعرف عندئذ الإنسانية والمدنية والحق واعتراف المعاهدات!

ولكن عندما يكون الأمر متعلقًا بنا معشر المسلمين؛ فالإنسانية، والمدنية، والحق، واحترام المعاهدات، وكل شيء من هذا القبيل.. تجهله أوروبا!»[3].

---

(١) أي عملاء أوروبا.

(٢) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا (٩/ ٢٩٤).

(٣) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٥/ ٩٧).

ويصف رحمه الله المعركة بأنها حرب صليبية؛ فيقول:

«ولقد أصبح اليوم كثير من المسلمين الذين كانوا فيما قبل أعظم أصدقاء أوروبا، يعتقدون أن أوروبا تحارب المسلمين كافة وبدون استثناء حربًا صليبية في شكل سياسي! وفي الواقع أن أوروبا حررت في القرن التاسع عشر أممًا مسيحية عديدة، ولم تحرر أمة واحدة إسلامية»[1].

ويقول أيضًا:

«إننا رأينا في أيامنا هذه فوق ما قرأناه في التاريخ، أن أوروبا جمعاء تحارب الدولة العليّة بصفتها دولة إسلامية، وإلا فلمَ نجدها تهلل وتكبر كلما انتصرت أمة مسيحية علىٰ أمة إسلامية؟ في حين أنها تتألم وتستشيط غيظًا إذا كان الأمر علىٰ العكس من ذلك؟!»[2].

ويقول ناصحًا المسلمين ونادمًا علىٰ إحسان الظن بالأوربيين فيما مضىٰ:

«والعبرة التي يجب أخيرًا علىٰ كل مسلم أن يعتبر بها، هي أنه لا سلامة لنا إلا بالاتحاد حول راية السلطنة السنية، وتعزيزها بكل ما في استطاعتنا، وعدم الاعتماد علىٰ أوروبا في شيء ما.

والذي غرر بنا إلىٰ اليوم هو اعتقادنا أن مدنية أوروبا غرضها المساواة الحقيقية والعدل الصحيح، وكنا نعتقد ذلك عن سلامة نية، ولذا احتفظنا طول هذا القرن بالأوروبيين وأكرمنا مثواهم، وتلقينا تعاليمهم وإرشاداتهم

---

(١) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٥/ ١٠٣).

(٢) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٦/ ١٨٦).

بمزيد من الارتياح، وصرنا ننافس بعضنا بعضًا في تقليدهم والتشبه بهم.

ولكنا خُدعنا وسُلبنا الكثير من عزنا ومجدنا، ولم يبقَ إلا أن نعتبر بالماضي ونعمل للمستقبل.

وها قد كاد ينتهي القرن التاسع عشر، وبعد قليل تحاسب كل أمة نفسها عما كسبت وعما خسرت، وإذا حاسبنا نحن كذلك أنفسنا تحسرنا الحسرات بعد الحسرات! ورأينا هذا القرن في ضيائه وسنائه أكثرها ضررًا بالشرق والإسلام.

وما ذلك إلا لأننا فرطنا فيه كل التفريط، وخالفنا أوامر الشريعة المطهرة، فكان جزاؤنا ما كان»[1].

ويضيف مصطفىٰ كامل أيضًا:

«إن الحوادث الأخيرة في كريت والسودان، برهنت لجميع المسلمين أن أوروبا لا تعطف عليهم أبدًا، وأن كلمتي (المدنية) و(الإنسانية) ليستا إلا لفظتين تلوكهما ألسنة السياسة لأغراض استعمارية، وأن العواطف الإنسانية الحقيقية لا تعرفها أوروبا عندما تسوس أمرًا في الشرق.

وفي الواقع فإنا نرىٰ أن البلاد الإسلامية التي تحكمها أوروبا من زمن بعيد في أسوأ حال من المظالم التي لا مثيل لها، مع أن الممالك الأوروبية عندما استولت علىٰ هذه البلاد ادّعت رغبتها الأكيدة في نشر (المدنية) و(الإنسانية) بين ربوعها، هذه (الإنسانية) وهذه (المدنية) اللتان لم يُفسَّرا بعدُ إلا تفسيرًا مبكيًا؛ إذ كانت نتيجة عمل أوربا سحق المسلم واحتقاره!

---

(١) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٩/ ٣٢-٣٣).

وتركه يتخبط في ظلمات الجهل زمنًا طويلًا، ويستوي في ذلك -وهو ما نأسف له- جميع الحكومات الأوروبية، التي امتد سلطانها علىٰ فريق من المسلمين.

هذه حالة ممالك أوروبا معنا، وليس هناك برهان علىٰ صدقنا وإنا نصف الحالة كما هي أقوىٰ من اتهام أوربا الدولة العلية بالمظالم وعدم تأيدها مبدأ المساواة بين ذوي الأديان المختلفة ممن تحكمهم، بينما نرىٰ الكثيرين من سفرائها ومعتمديها ووزرائها مسيحيين، ولا يستطيع إنسان في الوجود أن يثبت لنا وجود مسلم محكوم بإنجلترا أو بفرنسا يشغل منصب مساعد قنصل صغير!»[1].

وفي ردّ علىٰ سؤال إحدىٰ الصحف له: هل يوجد حقيقة نهضة إسلامية؟

يقول مصطفىٰ كامل:

«نعم، توجد نهضة إسلامية قوية.

إنهم يظنون في أوروبا أن الإسلام حجر عثرة في سبيل التقدم، وقد نسوا التاريخ المفعم بآيات مدنية الإسلام، تلك الآيات التي لا يزال يسطع نورها في العالمين، والتي فارقت المسلمين من يوم أن فاروقوا دينهم القويم!

وأنه إذا كانت أوروبا تجهل إلىٰ الآن كيف تقود الأمم الإسلامية التي

---

(١) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٩/١١٨-١١٩)

تحكمها، فذلك لأنها لا تقودها باسم الإسلام وعلىٰ مبادئه القويمة»[1].

٨) حقيقة الوطنية عند مصطفىٰ كامل:

لم تكن الوطنية التي يدعو إليها الزعيم مصطفىٰ كامل بمعناها المتأخر المتعصب، بأن تصبح بديلة عن الرابطة الإسلامية، أو لا تهتم بأمر المسلمين، ولا ترىٰ لهم حق الأُخوَّة والنصرة، ولا ترتبط معهم بروابط وثيقة، ولا تعتقد أن جنسية المسلم هي الإسلام، وأرضه هي أي أرض يحكمها المسلمون، والتي توالي وتعادي علىٰ الأرض؛ فتوالي من يسكن أرضها وإن كان غير مسلم، وتعادي من لا يسكن أرضها وإن كان مسلمًا.

بل رأينا مصطفىٰ كامل -كما سبق- يدعو إلىٰ التمسك بالدولة العثمانية، والولاء للسلطان العثماني بصفته خليفة المسلمين، ووجدناه يدعو إلىٰ الجامعة الإسلامية واتحاد المسلمين، بغض النظر عن جنسياتهم الضيقة، ويرفض حتىٰ فكرة الجامعة العربية أو الخلافة العربية.

وإنما كانت دعوة مصطفىٰ كامل للوطنية من أجل تشجيع المصريين علىٰ النهوض بالبلاد وطرد الاحتلال الإنجليزي، بعدما كان اليأس قد استولىٰ بالفعل علىٰ قلوب فريق كبير من المصريين، وقعدت هممهم، وتعايشوا مع الوضع القائم، فأخذ يعدد لهم مآثر قوم قد عاشوا علىٰ نفس الأرض وفي نفس المناخ، ولكنهم كانوا ذوي همة عالية ومنتجين، وأخذ يقص التاريخ ليستلهم منه العبر؛ فيكون هذا مشجعًا إضافيًا إلىٰ جانب دعوته الواضحة إلىٰ التمسك بالدين الإسلامي ورابطته كما سلف،

---

(١) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٩/ ١٢١).

واستلهامه العبر من تاريخ المسلمين أيضًا.

ويرىٰ مصطفىٰ كامل أن الاستقلال الوطني لا بد أن يُبنىٰ علىٰ الدين الإسلامي، ولا بد أن تكون الوطنية ثمرة من ثمار التمسك الإسلام، فيقول:

«إن الدين هو الأساس الذي يُبنىٰ عليه الاستقلال الصحيح والمجد الأبدي، وإن الوطنية لا تكون صادقة قوية شديدة إلا إذا كانت ثمرة من ثمار التمسك بالدين، ونتيجة من نتائجها.

لأن النفس البشرية مهما ارتفعت وسمت قاصرة عن أن تستمد كل القوة التي يحتاجها الإنسان من نفسها، بل هي مفتقرة إلىٰ قوة عالية تهبط عليها من لدن خالق السموات والأرض، وتهديها سواء السبيل.

لذلك رأينا ونرىٰ أصحاب العقائد السليمة والإيمان الحي لا يخافون في الحياة شيئًا، ولا يعرفون لليأس معنىٰ؛ بل يقضون العمر في أشرف الأطوار، ويجاهدون في معارك الوجود بقلب قوي وعزم شديد.

ولطالما ضربنا الأمثال بالأمم الحية التي عرفت أسرار الحياة، وأدركت معنىٰ العمران، فأسست مجدها علىٰ دعائم الدين، وقامت بالدين.

وإننا كلما ذكرنا كلمتي الدين والعقيدة، سمعنا بعض المارقين والمفسدين يقولون: هذا تعصب ذميم...

فهل نسي المسلمون أن سبب انتصاراتهم القديمة وبقاء دولتهم العلية في أمن من كل خطر هو التمسك بالدين تمسكًا صحيحًا صادقًا؟

وهل نسوا أن أقوىٰ سلاح للجندي التركي هو الاعتقاد الديني الذي يدفعه إلىٰ الإتيان بأعظم الأعمال العسكرية، ويجعله في صدر الرجال شهامةً وإقدامًا؟

إذا لم نكن نسينا ذلك كله، فلماذا نتساهل في أمور ديننا، ونهمل واجباتنا، ونُقصّر أقبح التقصير في القيام بما فرضه الخالق علينا؟!

اللهم هبنا من لدنك رشدًا واهدنا بنورك إلىٰ الصراط المستقيم»[١].

وقد أسهم مصطفىٰ كامل في تأخير تأثير الدعوات القومية والوطنية بمعناها المتعصب غير الشرعي، بما كان يدعو إليه من الوحدة الإسلامية، وقد شهد بذلك أحد المفكرين القوميين؛ فهو يرىٰ أن فكرة الوطنية الممزوجة بالإسلام لدىٰ مصطفىٰ كامل، قد أعاقت تقدم الفكرة القومية بمعناها الإقليمي الضيق المتعلق بمصر وحدها[٢].

تلك الفكرة القومية والوطنية المتعصبة التي رفع لواءها فريقان في تلك الفترة:

الفريق الأول: حزب الأمة، بقيادة أبي العلمانية في مصر أحمد لطفي السيد، وروجت لها (الجريدة) لسان حال ذلك الحزب؛ فهؤلاء كانوا يدعون إلىٰ الجامعة المصرية المتعصبة، ويحاربون فكرة الجامعة الإسلامية، وينكرون الرابطة العثمانية، ويرون العثمانيين محتلين!

الفريق الثاني: صحيفة المقطم الموالية للإنجليز، وقد اتفقت مع

(١) مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، (٩/ ٢٨٢-٢٨٣، ٢٨٦).

(٢) تطور الحركة الوطنية، د. عبد العظيم رمضان، (ص٣٢).

الفريق الأول في نفس الأفكار تقريبًا.

والفريقان كانا يهاجمان مصطفىٰ كامل وأفكاره ومزجه للوطنية بالإسلام؛ فماذا يعني ذلك إلا عدم اتفاقه معهم في مفهوم الوطنية المتعصب؟!

فلا بد من وضع مفهوم الوطنية عند مصطفىٰ كامل -وكذلك من سبقه كالطهطاوي وعرابي- في سياقها الصحيح.

ولا شك أن الوطنية عامةً مفهوم حادث، وليت هؤلاء الفضلاء ما تحدثوا عنه ولا ذكروه، ولكن الله تعالىٰ يأبىٰ إلا أن يكون الكمال له وحده.

وكان هذا آخر المقصود ذكره في هذا البحث، ولعل الكاتب غفر الله له يُوفَّق لكتابة بحث مماثل عن تاريخ مصر المعاصر.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أهم مصادر البحث

○ أباطيل وأسمار، أبو فهر محمود شاكر، ط: الخانجي، ط٣.

○ أحمد عرابي الزعيم المفترىٰ عليه، محمود الخفيف، ط: كلمات عربية.

○ أخبار أهل القرن الثاني عشر، إسماعيل بن سعد الخشاب، ط: العربي للنشر والتوزيع.

○ أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، علي جريشة ومحمد الزيبق، ط: دار الوفاء.

○ أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، سيد العفاني، ط: دار ماجد عسيري- جدة.

○ الأزهر جامعًا وجامعة، د. عبد العزيز الشناوي، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

○ الأزهر في ألف عام، بيارد دودج، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

○ الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابي في مصر، جوان كول، ط: المجلس الأعلىٰ للثقافة.

o الأعلام، خير الدين الزركلي، ط: دار العلم للملايـين، ط١٥.

o الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي، د. محمد عمارة، ط: مكتبة الأسرة.

o الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية في الحياة السياسية المصرية ١٩٢٨ - ١٩٤٨، د. زكريا سليمان، ط: وهبة، ط٢.

o التاريخ السري للاحتلال الإنجليزي، ألفرند بلنت، ط: مكبة الآداب.

o الإسلام والحضارة الغربية، د. محمد محمد حسين، ط: دار الوفاء.

o التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، د. عبدالغني محمود عبدالعاطي، ط: دار المعارف.

o الحركة العلمية في مصر في القرن السابع عشر، ناصر عبدالله عثمان، ط: دار الكتب والوثائق القومية.

o العرب من الفتوحات العثمانية إلىٰ الحاضر، يوجيه روجان، ط: مؤسسة هنداوي.

o الفكر المصري في القرن الثامن عشر بين الجمود والتجديد، د.عبدالله العزباوي، ط: دار الشروق.

o المرشد الأمين للبنات والبنين، رفاعة رافع الطهطاوي، ط: المدارس الملكية.

o المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم، إدوارد وليم لين، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

o تاريخ الأستاذ الإمام، محمد رشيد رضا، ط: دار الفضيلة، ط٢.

o تاريخ مصر الإسلامية، د. جمال الدين الشيال، ط: دار المعارف.

○ تاريخ مصر السياسي في الأزمنة الحديثة (الطبعة المختصرة)، محمد رفعت بك، ط: الأميرية.

○ تاريخ مصر الحديث من محمد علي إلىٰ اليوم، د. محمد صبري، ط: دار الكتب المصرية.

○ تاريخ مصر من العصر الفرعوني حتىٰ العصر الحديث، عبدالمنعم ضيفي عثمان، ط: دار الرشاد.

○ تاريخ مصر من الفتح العثماني إلىٰ قبيل وقتنا الحاضر، عمر الاسكندري وسليم حسن، وراجعه ا. ج. سفدج، ط: مدبولي، ط: ٢.

○ تطور المجتمع المصري من الإقطاع إلىٰ ثورة ٢٣ يوليو، د. أحمد أنيس، ط: مكتبة الأنجلو المصرية.

○ تخليص الإبريز في تلخيص باريز، رفاعة رافع الطهطاوي، ط: كلمات عربية.

○ جمال الدين الأفغاني، عبد الرحمن الرافعي، ط: دار المعارف.

○ ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية، نقولا الترك، ط: دار الفارابي-بيروت.

○ رسالة في الطريق إلىٰ ثقافتنا، محمود شاكر أبي فهر، ط: مكتبة الأسرة.

○ صحافة الاتجاه الإسلامي في مصر منذ مطلع القرن العشرين حتىٰ نشوب الحرب العالمية الأولىٰ، د. جمال عبدالحي، ط: دار الوفاء-المنصورة.

○ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي، ط: دار الجيل.

○ عودة الحجاب، محمد إسماعيل، ط: دار طيبة.

○ فتح مصر الحديث، أحمد حافظ عوض، ط: كلمات عربية للترجمة والنشر.

○ قذائف الحق، محمد الغزالي، ط: دار القلم - دمشق.

○ كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية، (مذكرات أحمد عرابي)، ط: دار الكتب والوثائق القومية.

○ محمد علي سيرته وأعماله وآثاره، إلياس الأيوبي، ط: دار الهلال.

○ مذكرات الإمام محمد عبده (سلسلة أدباء القرن العشرين)، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

○ مصر في القرن التاسع عشر، صالح جودت، ط: مكتبة الشعب.

○ مصر في القرن الثامن عشر، محمود الشرقاوي، ط: مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢.

○ مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، رفاعة رافع الطهطاوي، ط: الرغائب المصرية.

○ مذكرات السلطان عبد الحميد، تقديم وترجمة د. محمد حرب، ط: دار القلم-دمشق.

○ مصطفىٰ كامل باشا في ٣٤ ربيعًا، علي كامل، ط: اللواء.

○ واقعنا المعاصر، محمد قطب، ط: دار الشروق.

○ هوية مصر بين العرب والإسلام، أ. جرشوني - ج. جاكوفسكي، ترجمة بدر الرفاعي، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الفهرس

تم الصف بمكتب الحسام ٠٠٢٠١١١٨٠٢٨٧٥٦
maktab_alhosam@yahoo.com

هذا الكتاب

ساهم المؤرخون والكُتاب العلمانيون في طمس المعالم الإسلامية لفترة (القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين) من تاريخ مصر -محل البحث- وحرّفوها، من أجل أن يُثبتوا لأفكارهم امتدادًا عبر التاريخ المصري الحديث بلا وجود شيء تاريخي معارض لها، ومن ثَم يكون لديهم حجة في ترويجها ونشرها في مصر المعاصرة، تبعًا لتوجه البلاد الجديد نحو الغرب وأفكاره المسيحية المختلطة بفلسفته الملحدة، وكي لا تكون تلك المعالم الإسلامية تكئة وجذورًا تاريخية للمطالبين بالمرجعية الإسلامية كأساس للنهضة، النابذين لأفكار الغرب المتعارضة مع الشريعة الإسلامية.

من هنا جاءت أهمية كتابة هذا البحث، الذي لا أزعم أني استقصيت فيه كل ما هو داخل في موضوعه، لكني اكتفيت فقط بضرب المثل على التزوير والتزييف في الثقافة والمناهج التي يتم تقديمها للقراء وطلبة المدارس والجامعات، في مواد التربية الوطنية والقومية والتاريخ وغير ذلك.

معتز زاهر

رمز بريدي ١١١٦١ / كود ١١٥١١ / ص.ب ١١٣
شارع الأزهر - القاهرة - مصر
www.alqimare.com
daralqimari dar.alqimari

الغلاف من تصميم: شادي عاطف